من أعلام الطب العربي

تأليف

أبي الفتوح التوانسي

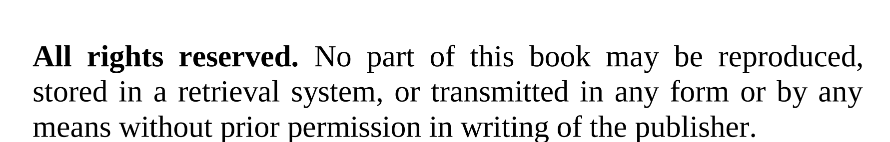
الكتاب: من أعلام الطب العربي

الكاتب: أبي الفتوح التوانسي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http: //www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

التوانسي، أبي الفتوح
من أعلام الطب العربي / أبي الفتوح التوانسي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٢٠٨ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٩٠٤٢ / ٢٠٢١

من أعلام الطب العربي





تصدير

هذا كتاب جديد يتناول الطب عند العرب، وجانبًا من سير أعلام الأطباء الذين أسهموا في بناء التراث العربي الطبي، وهو يلقي أضواء باهرة على نبوغ العرب في ميدان العلم الذي لا يقل عظمًا ولا اتساعًا عن نبوغهم في ميدان العلوم الكلامية أو اللغوية.

إذ ضرب العرب بسهم صائب في هذه الميادين، بل إن الغرب استمد بعض المقومات الحضارية للنهضة الحديثة من العرب، ولسنا نقول هذا على سبيل التعصب أو التحيز، إنما نقوله تقريرًا لواقع تاريخي اعترف به الكثير من العلماء في الغرب، ومنهم العالم الكبير (جوستاف لوبون) الذي أظهر فضل الحضارة العربية على الغرب في كثير من مؤلفاته، فضلًا على أن الإسلام الذي يدين به العرب يقوم على العلم. قال (جل وعلا) في كتابه العزيز: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"، كما قال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة".

وقد نبغ العرب في الطب نبوغًا عظيمًا، واشتهر الرازي بين أطباء المسلمين، ويعتبر كتابه (الحاوي) موسوعة طبية كبيرة، كما عرف الرازي بدراسته عن الزئبق، ونظرياته الطبية الكثيرة التي طبقت الآفاق في أوروبا في العصر الإليزابثي وخلاله.وكان العرب أول من ابتكر الأنابيب والأوعية الصيدلية، وكانت أوانٍ جميلة من السيراميك ذات ألوان مشرقة.

أما ابن سينا فقد اشتهر كأحد كبار الفلاسفة، بيد أنه كان خبيرًا بالطب والصيدلية، وأقام مبدأ انتقال المرض عن طريق العدوى، وأشهر مؤلفات ابن سينا كتاب (القانون في الطب)، وهو موسوعة طبية كبيرة ومرجع علمي نفيس.

ويعتبر الزهراوي أول طبيب نادى بإمكان الدخول إلى مجرى السمع الخارجي، عن طريق جراحة تجرى في أسفل الأذن، وهو الذي أوصى طلابه بوصية حكيمة جاء فيها: "حذار من إجراء أية جراحة قبل أن تتأكد من الموقع الدقيق للمجاري الدموية والأعصاب والأوتار".

وقد تعرض الكتاب الذي بين أيدينا بالتفصيل لبعض علماء الطب العربي ومنهم الرازي وابن سينا، فجاء الكتاب دراسة مفيدة تستحق النشر والتقدير، وهي في الوقت نفسه تسجيل تاريخي لأمجاد العرب وفضلهم على الحضارات العالمية، مما يدخل في الدائرة العربية التي نتميز بها ونحرص عليها، على النحو الذي دعا إليه السيد الرئيس جمال عبد الناصر؛ لأن هذا التسجيل فخر لقوميتنا العربية وتوضيح لجذورها التاريخية، التي تمتد منذ أبعد العصور في واقعنا العربي، كما أنه قبس من اشتراكيتنا العربية التي تؤمن بالعلم والعلماء؛ لأنها اشتراكية علمية تقوم على أسس محددة ودعائم ثابتة.

د.جمال الدين الرمادي

مقدمة المؤلف

يقوم مجتمعنا العربي الحاضر على دعامة قوية راسخة هي القومية العربية، التي حمل لواءها رئيسنا وزعيمنا المحبوب جمال عبد الناصر.

وللقومية العربية فلسفتها التي أوضحها الرئيس في أكثر من مناسبة، فهي دعوة وحدة وتكتل للشعوب العربية ضد الاستعمار في جميع صوره وأشكاله، وهي دعوة للتحرر والتخلص من النفوذ الأجنبي، ودعوة للقضاء على الرجعية والإقطاع والاستغلال، ودعوة للسلام الدائم ورفع مستوى المعيشة؛ لإقامة مجتمع عربي جديد، يشعر أبناؤه بالعزة والكرامة على أرضهم الحرة الطيبة.

ومن غير شك أن تحديد هذه الفلسفة أمر يسير، وأيسر منه أن يحفظ أبناؤه مفاهيم القومية العربية، والمبادئ التي تقوم عليها، ولكن الأمر الذي ينبغي أن يكون موضع العناية والاهتمام هو كيف نستطيع أن نحول هذه المفاهيم والمبادئ إلى سلوك عملي، بحيث نجعل أبناء الوطن العربي يعيشون في جو عربي أصيل، ويفكرون تفكيرًا عربيًا خالصًا، ويسلكون في حياتهم العامة والخاصة سلوكًا عربيًا صافيًا بريئًا من الدعوى والادعاء.

لذلك كانت مهمتنا –ونحن نشق طريقنا إلى الأمام في عزم وإصرار– أن نعمل على تعميق مفهوم القومية العربية وتحويله إلى سلوك صريح وطريقة سليمة في الحياة.

ولقد كانت هذه القومية عبر الأجيال والتاريخ في حركة نضال مرير وكفاح مستمر عنيف ضد أعدائها، منذ موقعة (ذي قار) وحروب الفرس والروم وفتح عمورية، وحروب التتر، والحرب الصليبية، ومقاومة الغزو التركي المستبد والشعوبية العمياء، إلى أن انتقلت حركة النضال إلى عصرنا، متمثلة فيما تقوم به شعوب العرب الحرة من نضال باسل مستميت ضد الصهيونية والاستعمار.

ولعل من الأساليب التي تعيننا على جعل القومية العربية حقيقة ماثلة في جميع الأذهان، وأسلوب تفكير وحياة لجميع أبناء الأمة العربية= أن تقوم بتزويد هؤلاء الأبناء بالمعلومات الصحيحة عن التراث العربي بصفة عامة، وبخاصة التراث العربي القديم.

وما من شك أن هذا التراث قد ابتكره رجال مكافحون في ميادين العلم والثقافة، مثلهم في ذلك مثل هؤلاء الأبطال الذين ناضلوا عن القومية العربية في ميادين الحرب والقتال. والمهم في عملية إبراز هذا التراث أمام القارئ العربي أن نأخذ بيده إلى الفهم الذكي العميق للأسس التي قامت عليها قوميتنا العربية في عصورها الذهبية الماضية، وفي مقدمتها هذا التراث العلمي العربي المجيد.

والأسباب القوية التي تدعونا إلى إبرازه هي دعوة رئيسنا إلى العلم وإقامة مجتمعنا الجديد على دعائمه المتينة، وهو في كل مناسبة –وبخاصة في أعياد العلم– ينتهز الفرصة للإشادة به ودعمه والتسلح به. وحياتنا اليوم إذا تميزت بشيء جوهري واضح، فإنما تتميز بأنها قائمة على العلم

في الصناعة والزراعة والتخطيط، وفي جميع المشروعات الحيوية.

والقومية العربية التي هي القاعدة لمجتمعنا العربي تقوم على أسس علمية في ماضيها الزاهر؛ لذلك كان من أوجب واجباتنا اليوم أن نعمل على وصل هذا الماضي بحاضرنا، وماضينا –الحمد لله– مليء بالعز والمفاخر، فقد نبغ العرب والمسلمون في علوم كثيرة، في الفلك والرياضة والعلوم الطبيعية والكيمياء والنبات والطب والجغرافيا، وكان نبوغهم في هذه العلوم أمرًا طبيعيًا؛ فدين العرب –وهو الإسلام– يدعو إلى العلم ويحفز العقول إلى الاشتغال به.

وقد وجد العرب من دينهم ومن اتصالهم بمراكز ومنابع الثقافات القديمة من فارسية وهندية ويونانية ما جعلهم يشتغلون بالعلم، ويتعمقون في مسائله، ويبتكرون فيه، ويضيفون إليه الكثير من ثمرة تفكيرهم العربي الخاص.ونحن إذا رجعنا إلى مصادر التراث العربي القديم وجدناها حافلة زاخرة من أصول المعرفة والعلوم الإنسانية، وكان الطب في مقدمة العلوم التي نالت نصيبًا كبيرًا من اهتمام العرب في جميع العصور.

كان العرب يشتغلون به منذ جاهليتهم، وكان من أشهر أطبائهم في هذا العصر الحارث بن كلدة، وفي العصور الإسلامية اشتد إقبال العرب على العلوم الطبية والاشتغال بالطب وغيره، مدفوعين إلى ذلك بما بعثه في نفوسهم دينهم الجديد من رغبة ملحة في الملاحظة والتجربة والدراسة والبحث والاستنباط.

وهذا الكتاب يقدم لأبنائنا وللقراء العرب والمثقفين العرب في كل

جزء من الوطن، صورة كاملة واضحة الخيوط قوية الألوان عن فضل العرب على العلم والتراث الإنساني بصفة عامة، وعن التفكير الطبي العربي في مختلف عصوره بصفة خاصة، منذ العصر الجاهلي إلى أن اتصل العرب بالثقافات الأجنبية في العصر العباسي.كما يقدم دراسات وافية دقيقة لبعض أعلام الطب العربيالذين برزوا في هذا الميدان، وكانت لهم فيه شهرة ذائعة وابتكارات علمية في أصول المعالجات الطبية.

واقتضت طبيعة الدراسة تقديم مختصرات على هوامش الصفحات لأعلام أطباء اليونان وغيرهم، وأسماء المدن والبقاع وبعض الفرق المذهبية، وغير ذلك مما له صلة وارتباط بموضوع الكتاب.

وغايتنا من ذلك أن تكون الصورة متكاملة عن التراث الطبي العربي ومصادره وأعلامه؛ لكي يقف قراؤنا العرب على أسس قوميتهم الأصيلة، ويتمثلوا الروح العلمي الخالص الذي كان صفة بارزة في حياة علماء العرب، من الإخلاص للعلم وحب التعمق فيه، والصبر على مزاولته، والكفاح في تذليله وتيسير مسائله، والثقة بالله، وقوة الإيمان.

فهذا ابن سينا مثلًا كان إذا استعصى عليه فهم مسألة من العلم، هرع إلى المسجد يصلي لله تعالى فاطر السموات والأرض، ثم يعود إلى منزله فما يكاد يستقر فيه حتى يتضح له ما أشكل عليه.

فالإيمان بالله تعالى، والتحلي بالصبر، والقدرة على البحث بروح علمي خالص من صفات سلفنا الصالح من العلماء، واننا لنرجو أن يتحلى بها أبناؤنا وعلماؤنا في عهدهم الجديد، عهد اليقظة والتحرر والانطلاق.

ولا أنسى أن أشير إلى تلك اليد الكريمة التي مدها إلي الدكتور (جمال الدين الرمادي)، لتفضله بهذا التصدير الذي توج به كتابي، فأضاف إليه اشعاعات قوية، جعلت كل صفحة من صفحاته تفيض بالفائدة، التي تبصر شبابنا المؤمن بعروبته، المعتز بقوميته واشتراكيته، وعاش زعيمنا رائد العلم والعروبة، وبطل المعجزات، وعاش الوطن العربي الموحد، وعاشت وحدة الشعوب الآسيوية والأفريقية.

المؤلف

العرب والعلم

أخطأ كثير من مفكري الغرب حين أساؤوا في تعصب ظاهر إلى عقلية الأمة العربية، فنسبوا إلى العرب أنهم كانوا يفكرون تفكيرًا سطحيًا؛ لأنه ليست لهم عقول مفكرة مبدعة، وأنهم حين نقلوا التراث اليوناني ومدنيات الأمم القديمة في الحضارة لم يضيفوا إلى مجهود هذه الأمم شيئًا، واكتفوا بعملية النقل، التي جاءت مشوهة في أكثر الأحيان. وقد تعمد هؤلاء المفكرون نشر هذه الآراء عن العرب لغايات استعمارية؛ فالغرب كان يطمع منذ زمن بعيد في استعمار بلاد العرب، وكان يدعي لنفسه في غير خجل أنه الوصي على هذه البلاد الغنية الواسعة الخيرات، فأخذ يلتمس الأسباب لتحقيق مطامعه الجائرة.

لذلك تعاون علماء الغرب من رجال السياسة والحرب على تحطيم القوى المعنوية للعرب أولًا، ثم القيام بغزو بلادهم والاستيلاء عليها بالقوة ثانيًا، فأرسلت الحملات الصليبية التي شنها الغرب ظلمًا وعدوانًا على الأمة العربية باسم الدين، والدين بريء منها، ثم تتابعت بعد ذلك الحملات واتخذت صورًا وأسماء مختلفة بقصد إخفاء الأغراض الحقيقية للاستعمار.

ولقد كان تعاون بعض علماء الغرب مع حكوماتهم لتحقيق أهداف السياسة الاستعمارية أمرًا بالغ الأسف، فقد حاول هؤلاء العلماء تزييف التاريخ الثقافي، فارتكبوا بذلك جريمة علمية في حق الأمة العربية، إذ

تعمدوا أن يسلبوها كل مفخرة في الميدان العلمي؛ لكي يشعروا أبناء العرب الذين استسلموا للجمود منذ العصرين التركي والعثماني بأنهم أبناء أمة ليس لها ماضٍ علمي، وبأنهم عاجزون عن السير في ركب التقدم العلمي، الذي يسير بخطوات فسيحة.

ومن أجل ذلك اجتهدوا في إخفاء معالم الماضي العربي المجيد، واتهموا العقل العربي بعجزه عن التفكير العلمي، والغاية من ذلك كما أشرنا إشعارنا نحن –العرب– بتخلفنا في الحضارة العلمية، فإذا سجلنا على أنفسنا العجز والتخلف كان علينا أن نخضع صاغرين لإرادة الغرب، وأن نعترف بسيادته لتقدمه علينا في النواحي السياسية والعلمية والاقتصادية تقدمًا عظيمًا.

ونجح الغرب في تحقيق أهدافه فاستعمر الشرق والغرب العربيين، اقتصاديًا وسياسيًا، ثم استعمرهما علميًا واحتكر العلم لنفسه وحده، فجعل القليل منه يدرس في المدارس العربية بلغته الإنجليزية أو الفرنسية. وأحرز الغرب نجاحًا ملحوظًا في تحقيق أغراضه كلها فترة طويلة من الزمان، حتى ثبت في أذهاننا أنه لا سبيل إلى العلم إلا في المراجع الاجنبية، وبذلك تم له عزل اللغة العربية عن الميدان العلمي، فأضحت لغة فقيرة، وفقدت ما كان لها من سلطان علمي في العصور الوسطى.

ولقد ساعد العرب أنفسهم الغرب على الوصول بهم إلى هذا المصير المؤلم، فقد استسلموا للضعف، وعملوا على خذلان أنفسهم في الميدان السياسي، فانتهز الغرب هذه الثغرات، وأخذ يفتت بمعاوله كل لقاء عربي

على الوحدة، فتفرق العرب شيعًا وأحزابًا وأخذ بعضهم يدس لبعض، وبذلك أتاحوا فرصًا ذهبية للغرب لكي يغلبهم على أمرهم، ويستولي على بلادهم، وتم له كل شيء، وفقد العرب كل شيء؛ لذلك انقطعت صلتهم بماضيهم، ثم بهرتهم الحضارة الغربية بقوتها المادية، فزاد ذلك من نسيانهم لماضيهم المجيد، ولكن هل كان الغرب على حق فيما ادعاه لنفسه؟ وهل كان العرب حقًا متخلفين في تفكيرهم وعلمهم؟ وإذا لم يكونوا كذلك فما السر في تفوق الغرب عليهم في هذه النواحي اليوم؟

والجواب عن ذلك أن كل ما ادعاه الغرب كان إفكًا وتضليلًا وكذبًا وبهتانًا، فلم يكن من حق الغرب أن يزعم لنفسه الوصاية على بلاد العرب، كذلك لم يكن العرب متخلفين علميًا وفكريًا، بدليل أن الغرب نفسه في عصر النهضة الأوروبية الحديثة أو في عصر الإحياء كان يعتمد كل الاعتماد في بناء نهضته الجديدة على المؤلفات العربية والمراجع العربية، ويقرأ ويفهم في كتب الثقافة العربية وكان كثير من علماء أوروبا المعروفين بالنبوغ والعبقرية يدرسون في الجامعات العربية بالأندلس. وفي مقدمتها جامعة قرطبة[1] التي كانت تزخر بعدد كبير من هؤلاء العلماء

([1]) قرطبة: وهي بالإسبانية **Cordoba** كانت حاضرة خلافة الأمويين بالأندلس، وهي على الشاطئ الأيمن من نهر الوادي الكبير، وعلى سفح جبل (سيرامورينا) وبها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢م، وكان سكانها لا يقلون عن أربعمئة ألف نفس، ومن رجالها الأفذاذ: ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وابن رشد وهو أشهر فلاسفة القرون الوسطى، ويسميه الإفرنج **Averroes**، وأبو الوليد أحمد (ابن زيدون) الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٩٣هـ، وابن حزم الفقيه الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦هـ، وابن زهر الفيلسوف الطبيب المتوفى سنة ٥٩٥هـ، وأبو بكر بن قزمان إمام الزجالين المتوفى سنة ٥٥٥هـ، ومقدم بن معافر

الذين انتسبوا اليها، بقصد الدراسة والاطلاع على المراجع العربية، وهذا مما دفع بعض العلماء الذين لم يقعوا تحت سيطرة التعصب الأعمى إلى الاعتراف بالحقائق. ومن هؤلاء المستشرق الإنجليزي العلامة (نيكلسون) الذي يقول: "وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب، الذين كانوا مشعلًا وضاءً في القرون الوسطى المظلمة ولا سيما في أوروبا".

ويقول البارون (كارداي فو): "إن الميراث الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه، حتى سلموه إلى العصور الحديثة".ويقول الدكتور (سارطون)[٢]: "إن بعض

مخترع فن الموشحات، ثم صارت قرطبة بعد الأمويين قاعدة الدولة الحمودية، ثم الدولة الجهورية من ملوك الطوائف ومن ضواحيها الزهراء، وفيها ولد أبو القاسم الزهراوي الطبيب الجراح، ويسميه الفرنجة **Albucasis**، وفي قرطبة توفي أبو علي القالي صاحب الأمالي، وأصله من ديار بكر.

(٢) سارطون: هو جورج ألفرد ليون سارطون، ولد في مدينة غنت **Ghent** من أعمال البلجيك سنة ١٨٨٤م وتخرج في جامعتها، إذ حصل على الدكتوراه في الفلسفة والرياضيات، ثم سافر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩١٥م فعين في مؤسسة (كارنجي) بواشنطن، وعكف على دراسة تاريخ العلوم، وأظهر الجزء الأول من كتابه العظيم مقدمة لتاريخ العلم سنة ١٩٢٧م وكان ينوي أول الأمر إغفال مجهود العرب، ولكنه سافر بيروت ودرس اللغة العربية مدة سنتين، وقد دهش عندما اطلع على آثارها القديمة المدونة بها، وما لبث أن وصل إلى الحقائق التالية:

١- العالم مدين للعرب بالمحافظة على التراث اليوناني. ٢- وبما أضافوه إليه من مبتكرات عملية ونظرية. ٣- وبنقل هذا التراث مع تلك الزيادات المبتكرة إلى الغرب. واستمر يظهر الأجزاء الباقية من تاريخ العلوم حتى انتهى من وضعه في سنة ١٩٤٨م، وتقوم الآن بنقله إلى العربية مؤسسة (فرانكلين) للطباعة والنشر، وقد ظهر منه الجزء الأول.

المؤرخين يحاولون أن يستخفوا بفضل الشرق على العمران، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئًا. إن هذا الرأي خطأ، وإنه لعمل عظيم جدًا أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية وأن يحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون".

ويقول كويلر يونج[٣]: "وحينما نولي وجوهنا نحو العلم والفلسفة نجد ما ورثه الإسلام ثقافتنا الغربية أكثر أصالة وإيجابية، ففي خلال النصف الأول من العصور الوسطى كانت جهود الإسلام العلمية من الطراز الأول. ولا سيما في ميادين الطب والفلك والرياضيات. ولم يقتصر المسلمون على نقل العلم اليوناني إلى الغرب، بل أضافوا إليه النواحي العملية بصفة خاصة، وقد تلقوا هذا العلم عن طريق السريان المسيحيين، وبخاصة النسطوريون[٤] الذين كانت عاصمتهم الفكرية مدينة (جنديسابور)[٥]في الجنوب الغربي من فارس الساسانية، قام هؤلاء

---

[٣] كويلر يونج: أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة (برنستون)، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بها.

[٤] النسطوريون: فريق من السريان ظهروا في سنة ٤٣١م عقب انقسام الكنيسة الكاثوليكية، وكان لهم مذهب ديني خاص، خالفوا به آراء الكنيسة العامة والكنيسة اليعقوبية،وكانوا ينتشرون في الشام وفي فارس، واعتمد عليهم الأكاسرة في تدريس العلوم الطبية والفلسفية في المعاهد الفارسية.

[٥] جنديسابور: اسم مدينة بخوزستان، بناها سابور بن أردشير من ملوك الدولة الساسانية وفيها أسس كسرى أنوشروان (٥٣١–٥٧٩) معهدًا للدراسات الفلسفية والطبية، وكان أكثر أساتذته من المسيحيين النسطوريين، وتخرج فيه عدد كبير من العلماء والفلاسفة، كآل بختيشوع، وكان هذا المعهد يعتبر من أكبر معاهد العلم في القرون الوسطى، وفتح مدينة جنديسابور عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب.

السريان بالترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية خلال القرنين الأولين من الإسلام، وقد أضيف الكثير إلى هذا في القرنين التاليين، ثم نقل بعد إلى اللاتينية في إسبانيا وصقلية".

ويقرر العلامة (سيديو) أن العرب هم في الواقع أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة، ثم هذا الفيلسوف الفرنسي (أرنست رينان) الذي عرف بتعصبه الشديد ضد العرب والمسلمين، وهو صاحب نظرية السامية والآرية، القائلة بتفضيل الجنس الآري على الجنس السامي، وبأن الأول هو الذي صنع الحضارة الإنسانية، هذا الفيلسوف المتعصب لا يجد بالرغم من شدة تعصبه مهربًا من الاعتراف بالحقائق السافرة والأدلة القوية الواضحة، فيرغم على الاعتراف بفضل العرب على العلوم والحضارة الإنسانية، إذ يقول: "إن العلوم والحضارة الآداب مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم طوال ستة قرون، وإن المسلمين لم يعرفوا التعصب الديني إلا بعد أن دالت دولة العرب".

غير أن الرجل لم يلبث أن تغلب عليه تعصبه فحال بينه وبين التصريح بالحقيقة كاملة، فقال: "وإن الذين نهضوا بالعلم من المسلمين لم يكونوا من العرب، وإنما كانوا من سمرقند[٦] وقرطبةوإشبيلية"، وإذا

(٦) سمرقند: اسمها القديم مرقند **Marcande**، ويطلق عليها في بعض الكتب العربية (يمران) وهي من أعظيم مدن (ما وراء النهر)، وكانت حاضرة إقليم الصفد، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٣هـ، ومن أعمالها قرية (ماتريد)، وينسب إليها أبو منصور محمد الماتريدي إمام أهل السنة المتوفى سنة ٣٣٣هـ، ومن أشهر كتبه (تأملات السنة)، كما كانت سمرقند قاعدة الدولة السامانية أما الآن فهي إحدى مدن جمهورية (أوزبكستان) السوفيتية.

فرضنا أن قوله على جانب من الصواب فإن علماء المسلمين من غير العرب كانوا يفكرون تفكيرًا عربيًا خالصًا، ويتحدثون ويؤلفون باللغة العربية، ولم يفرق الإسلام بين عربي وأعجمي، إذ جعل التقوى أساس التفاضل بين الناس: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

ثم يرجع رينان فيشعر بالأسى والحسرة؛ لأنه لم يكن مسلمًا، وقد يكون ذلك نوعًامن الدهاء فهو يريد أن يستثير قومه، ويحملهم على تقليد العرب في عصورهم الذهبية، أو أنه كان يحس في أعماق نفسه بمزيد من الألم؛لأنه لم يكن مسلمًا حقًا، وأن الظروف كانت تمنعه تحقيق ما يحسه، وهو الذي يقول: "ما دخلت مسجدًا قط إلا تملكني انفعال شديد، هو لو أفصحت عنه نوع من الأسف على أني لم أكن مسلمًا".

ويقول المؤرخ الفرنسي لوركيه في كتابه (الفن والتاريخ): "إن العرب وضعوا قدمهم في تاريخ الإنسانية ثابتة، وغيروا معالم الدنيا وحولوا وجهة التاريخ إليهم، فكانوا ملوك الأمم وقادة الشعوب وورثة الأرض، بما أسسوا من دولة مترامية الأطراف شاسعة الأكتاف، تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي، ومن زنجبار إلى قلب فرنسا".

ويقول الفيلسوف الفرنسي المسلم (رينيه جيبون)، وكان يدعو نفسه (عبد الواحد يحيى): "إن كثيرًا من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية، بل ربما لم يدركوا منها شيئًا مطلقًا؛ وذلك لأن الحقائق

التي تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل". فجيبون يشير إلى أن أكثر النقلة من الغربيين قد أساؤوا فهم الثقافة الإسلامية، وخلطوا فيما نقلوه عن الحضارة العربية، فجاءت الصور التي نقلوها مشوبة بالخلط والاضطراب والتشويه، حتى بعدت عن الصواب بعدًا كبيرًا، وجيبون بذلك يقدر قيمة الثقافة العربية الإسلامية، ويأسف لأن عددًا كبيرًا من الغربيين لم يفهموها فهمًا صحيحًا لكي يضعوها في موضعها الذي يعرفه المخلصون المتصفون بالأمانة العلمية.

إن في هذه الأقوال ما يلقي ضوءًا ساطعًا على أن الحضارة العربية في العصور الوسطى كانت تضيء العالم كله وتملأ الدنيا علمًا ونورًا، وكانت المعاهد والجامعات العربية كعبة طلاب الثقافة والمعرفة من الأوروبيين، وظلت الثقافة العربية صاحبة السلطان العلمي والحضاري طوال العصور الوسطى، بل إنكتب العرب بقيت المرجع العظيم لعلوم الطب إلى أوائل القرن الثامن عشر في أكثر الجامعات الأوروبية المشهورة، وقد سلك العرب في ترجمة الثقافة اليونانية مسلكًا يشهد لهم بالعبقرية العلمية، فقد بدؤوا أولًا يترجمون هذه الثقافة ثم رأوا أن الأمانة العلمية تقتضيهم أن يراجعوا هذه الترجمات مراجعة دقيقة ففعلواذلك، ثم أخذوا ثانيًا يستوعبون هذه الثقافات ويحصلونها.

وبعد أن فرغوا من ذلك انتقلوا إلى دور جديد هو دور الزيادة والتنقيح والحذف والإضافة والاختراع والابتكار، فشرحوا مشكلات الثقافة اليونانية وحلوا نظرياتها المعقدة، وحسنوها وبسطوها، وقاموا

بعمليات الامتداد والتحسين على خير وجه، وبذلك تحولت الثقافة اليونانية إلى ثقافة جديدة من حيث مناهج البحث والتفكير والنظريات والقوانين الجديدة التي لم يكن يعرفها قدماء اليونان، فأصبح للعرب بذلك شخصية مستقلة في ثقافتهم، فقد كانت لهم مخترعات جديدة وابتكارات لم يسبقوا بها في الطب والصيدلة والفلك والرياضة والكيمياء والنبات والطبيعة والجغرافيا، واتسعت اللغة العربية لهذا المجهود الثقافي العظيم، واستوعبت كل ما عرفه العالم في تلك العصور من ثقافات متعددة، فأصبحت بذلك لغة العلم والثقافة إلى جانب كونها لغة الآداب والفنون.

ولا ريب في أن اللغة العربية قد أثرت ثراء عظيمًا بكل هذه الكنوز، مما جعلها صاحبة السيادة العلمية والأدبية بضعة قرون.

اللغة والقومية

يذهب علماء اللغات في هذا العصر إلى أن اللغة ليست الرموز والألفاظ التي ننطق بها فحسب، وإنما هي إلى جانب ذلك الأفكار والمعاني والميراث الثقافي وأداة التفكير؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يفكر من غير لغة، ومن أجل ذلك تنعكس على اللغة حياة الأمة وعقليتها وحظها من الثقافة والتقدم الفكري والفني. وأما القومية (**Nationalism**) فهي بمفهومها الحديث الغلو في حب الإنسان قومه وأمته، أو هي الروح الذي يرمي إلى التماسك والاستعلاء القومي، أو هي مجموع الآمال والأغراض السامية التي ترمي إليها الأمة، وقيل في معناها أيضًا: إنها الحرص على الوحدة القومية والاستقلال وسعادة الأمة، كما قيل: إن القومية هي شعور الفرد بأنه منتمٍ إلى أمة معينة، وبأنه يحمل لها الولاء المطلق ويدين للدولة القائمة بالطاعة.

والقومية بعد هذا تتكون من عناصر ذات أهمية في إقامة صرحها المشيد، فهي تتكون من قوم ومن وطن يعيش فيه القوم، فلا قومية بلا وطن. ولعل هذا هو الذي دفع الصهيونية المغتصبة إلى سلب قطعة عزيزة من الوطن العربي؛ لكي تكون وطنًا لفريق من الأفاكين وشذاذ الآفاق، كذلك لا بد أن تربط أفراد القوم وحدة الأماني والآمال والآلام، ومما يدخل في تكوين القومية ويجعل لها كيانًا بارزًا قويًا أن يوزع الجهد المشترك، وهو الإنتاج العام بين جميع الأفراد بنسب عادلة.

ثم تتكون القومية من وحدة اللغة، فوحدة اللغة من أقوى العناصر التي تبعث الحياة في القومية، وليست اللغات بدرجة واحدة من حيث قدرتها على دعم القومية. ومن غير شك أن اللغة التي تتمتع بماضٍ عريق في الحضارة تخلع على القومية القوة والازدهار والسيادة. ولقد لعبت اللغة العربية دورًا خطيرًا في تشييد صرح القومية العربية ويرجع الفضل في هذا الدور إلى علماء العرب الذين ترجموا الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية، والعلماء الذين وسعوا آفاق اللغة، فابتكروا واخترعوا الجديد من الآراء والنظريات، فلقد أدى هؤلاء إلى اللغة –أولًا– ثم إلى القومية –ثانيًا– أعظم الخدمات. والذي لا شك فيه أن القومية التي تقوم على لغة حية، تحمل تراثًا حضاريًا مجيدًا، إنما هي قومية عظيمة أصيلة ناجحة، قادرة على أن تحتل مكانها بين القوميات القديمة، وتفرض سلطانها على أرضها، وهكذا كانت القومية العربية في مختلف العصور التي اتحد فيها العرب وعز جانبهم.

وتتميز اللغة العربية عبر عصور التاريخ قديمًا وحديثًا بأنها كانت العامل الأول في تكوين الوحدة العربية، والذي لا شك فيه أن عرب الجزيرة في العصر الجاهلي من أهل الشمال والجنوب كانوا يتفاهمون بلغة واحدة، هي اللغة الفصحى، أو بمعنى أدق هي اللغة المشتركة. والدليل على ذلك أن رسول الله (صلوات الله عليه) كان يعرض نفسه على القبائل العربية الوافدة من مختلف أرجاء الجزيرة في الأسواق والمواسم العربية، فكان يتفاهم (صلوات الله عليه) معهم، وكانوا يفهمون

منه، وقد بهرتهم فصاحة القرآن، واستولت على مشاعرهم، إذ وجدوه يحدثهم بلغتهم التي قد مهروا فيها، ولكنهم كانوا يجدون أنفسهم عاجزين كل العجز أمام بيانه الرائع الذي أعجزهم وأخرسهم، ثم انتهى بهم الأمر إلى الدخول في دين الله تعالى، فجمعتهم وحدة الدين ووحدة اللغة، وقد كان ذلك العمل الأول المجيد الذي قامت به اللغة في سبيل توحيد أهل الجزيرة العربية. ثم أخذ الإسلام واللغة ينتشران معًا خارج الجزيرة، وعندئذ قامت اللغة العربية بدور آخر في سبيل الوحدة العامة الشاملة، بعد أن قامت بدورها في توحيد أهل الجزيرة العربية.

ثم قدر للغة العربية بعد ذلك أن تخوض عدة معارك من أجل حفظها للقومية، بدأت هذه المعارك بالغزو التتري الذي أطاح بالكثير من مخلفاتها وآثارها، ثم أثناء الاستعمار التركي الذي استمر زهاء ثلاثة قرون، حتى كادت العربية تُنسى، فأصيبت بالجدب والضعف الشديد، حتى قامت حركة تتريك العناصر العربية، ولما زال كابوس الاستعمار التركي أخذت اللغة تتنفس قليلًا، غيرأن البلاد العربية لم تلبث أن وقعت في أسر الاستعمار الإنجليزي والفرنسي والإيطالي، وبالرغم مما حاوله هذا اللاستعمار المتعدد الألوان من القضاء على اللغة العربية، بقصد تفتيت وحدة الصف العربي وإذابة القومية العربية، فقد صمدت اللغة العربية وظلت كالصخرة العاتية تتحطم فوقها هجمات المعتدين، إذ لم تستطع هذه الأحداث أن تقضي عليها بالصورة التي كان يرمي إليها الاستعمار.

وحينما انطلقت ثورات التحرر في البلاد العربية أخذت اللغة العربية تسترد مكانتها العلمية والأدبية تدريجًيا، وفي الوقت نفسه بدأت القومية العربية والوحدة العربية تبرز في الأفق العربي في كتابات المفكرين وعلى ألسنة دعاة الإصلاح من العرب الأحرار، ويلاحظ بصفة عامة ونحن نستعرض بالإجمال أحداث التاريخ أن القومية العربية لم تضعف إلا حينما اختلف العرب على أنفسهم، ففتحوا بهذا الخلاف ثغرات نفذ منها العدو المتربص، فحطم صفوفهم وأضعف قوميتهم.

وحينما تنبه العرب إلى ضرورة تقوية وحدتهم منذ بدأت معاركهم التاريخية الكبرى من يوم ذي قار[٧] إلى حطين[٨] إلى معركة بورسعيد، استطاعوا أن يقضوا على أعدائهم، وحينما سيطر الاستعمار الفرنسي ثم الإنجليزي على مصر كان همه الوحيد أن يفقراللغة العربية، وأن يجعلها لغة هزيلة متداعية، فجعل التعليم الراقي بغير اللغة العربية حتى أهمل أهل اللغة لغتهم، واعتبروها لغة متخلفة.

ونحن نسوق إليكم هذا لكي تتبينوا أن اللغة تحيا بما تحمله من

---

(٧) يوم ذي قار: من أيام العرب المشهورة التي انتصر فيها العرب على الفرس، وسبب الواقعة التي حدثت في هذا اليوم سنة (٦١٣م) أن كسرى غدر بالنعمان بن المنذر وقتله بالمدائن، وكان قد أودع سلاحه ودرعه هانئ بن مسعود الشيباني زعيم قبائل بكر قبل أن يقتل، ويقال إن كسرى طلب هذه الودائع من هانئ فأبى فقامت الحرب بين العرب والفرس، وكان ذلك في السنة الثالثة لبعثة محمد صلوات الله عليه، فلما بلغه خبر انتصار العرب قال: (اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا)، وذو قار مكان بقرب الكوفة وقيل ماء قريب من البصرة.

(٨) حطين قرية بين أرسوف وقيسارية بالشام، وعندها انتصر صلاح الدين على الصليبيين.

أفكار ومعانٍ، تعبر عن حضارة العصر وتموت وتضمحل إذا خلت من تلك المعاني، وفي ضوء هذا نستطيع أن نفهم الدور العظيم الذي قام به علماء العرب في مختلف العصور في دعم كيان اللغة.

إن هذا الدور كان من أقوى العوامل التي ساعدت قوميتنا على الأصالة والرسوخ والقوة، ولكن الذي نلاحظه اليوم أن العرب قد تخلفوا كثيرًا في الميدان العلمي، فهل في الاستطاعة أن يلحقوا الغرب وقد سبقتهم بمراحل عظيمة؟ والجواب أننا قادرون على اللحاق به إذا تسلحنا بسلاح العزم والتصميم والعمل والجد والبحث والدرس، والدليل على ذلك أننا منذ وثبتنا الظافرة في يوليو (تموز) سنة **١٩٥٢**م، قد انتقلنا في هذه السنوات القليلة إلى أمة متحدة لها كيانها القوي في المجال الدولي، وأنه بفضل رعاية قائدنا جمال عبد الناصر رائد العروبة وبطل الأمة العربية قد استطعنا أن نقطع خطوات فسيحة في ميادين التقديم العلمي والاقتصادي والسياسي، واستطعنا أن نبني السد معجزة العصر.

والأمم حينما تصمم وحينما يتولى أمرها القادة العباقرة المخلصون تحقق لنفسها المعجزات، وقد يقول قائل: إننا نفخر بماضي العرب في العلم، ولكننا حين نرجع إلى هذا الماضي نجد علمًا أوليًا، لا يسمو إلى منزلة العلم الذي وصل إلى معرفة أسرار الفضاء الكوني وحطم الذرة واستغلها، وابتكر الأقمار الصناعية والصواريخ، وهذه حقيقة لا شك فيها، ولكن يجب أن نعلم أن هذا العلم كان أقصى ما وصل إليه الإنسان في العصور الوسطى.

وكان الأوروبيون أنفسهم في ذلك الوقت يمرون بفترة يسودها الظلام والجهالة، وهم حينما بدؤوا يستيقظون وجدوا أمامهم علوم العرب وثقافاتهم فبهرتهم وأخذت بلبهم، فأقبلوا عليها يترجمونها ويدرسونها وأخذوا يمثلون الدور الذي مثله العرب حينما ترجموا الثقافات اليونانية، ومن ثم أخذوا يقومون بعمليات الامتداد والتحسن للثقافات العربية، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن من تقدم وازدهار في الحضارة المادية، أما العرب فقد استسلموا –كما أشرنا من قبل– إلى النوم بسبب ما أصابهم من انهيار سياسي؛ لأنهم اختلفوا على أنفسهم، فضعفوا واستمروا كذلك، ولكنهم في بعض الفترات التي اتحدوا فيها عادت إليهم قوتهم، غير أن هذه الفترات لم تلبث طويلًا مع الأسف الشديد.

وأخذت الأمة العربية منذ سقوط بغداد[٩] بأيدي التتار[١٠] سنة

---

(٩) بغداد: وتسمى مدينة السلام، بناها أبو جعفر المنصور بغضًا لأهل الكوفة وتجافيًا عن جوارهم، واختطها الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان، ووضع المنصور بيده أول لبنة وكان ذلك في سنة ١٤٥هـ، وجعل ثلثها على الضفة اليمنى من نهر دجلة، ويسمى بالرصافة، وعاش فيها عدد كبير من العلماء والحكماء والأدباء وفدوا عليها من أنحاء الخلافة؛ لذلك ازدهرت فيها مجالس العلم وأندية الأدب فلم تلحقها في ذلك مدينة في عصرها، وفيها نشأ عبد اللطيف البغدادي الرحالة المشهور وعبد الله بن المقفع.

(١٠) التتار: والتتر اسم شعب يختلف مدلوله باختلاف العصور، وورد في الكتابات الأرخونية التركية التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي ذكر طائفتين من القبائل التترية أهمها التتر الثلاثون والتتر التسع، ويذهب تمسن **Thomsen** إلى أن اسم التتر كان يطلق في عهد بعيد على المغول، وليس على الشعب التركي، ويقول إن هؤلاء التتر كانوا يعيشون في الجنوب الغربي من بحرة (بيكال)، وفي كتاب أحبار العالم أن التتر من التغزغز، وقيل إنهم من الكمك، وأطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف (جنكيز خان)، ويظهر أن الشعوب التي انحدرت من أصل مغولي

٦٥٦هـ تجتاز مرحلة تفتت وانقسام، كان يتخللها في بعض الأوقات فترات صحو ويقظة وانبعاث، وما زالت كذلك حتى وثبت هذه الوثبة الجديدة في يوليو سنة ١٩٥٢، فحطمت بها كل الأغلال وهدمت صروح الاستعباد والإقطاع والظلم والاستغلال، ثم كانت الجمهورية العربية المتحدة الوليدة التي أخذت تشق طريقها في المجال الدولي بقوة وثبات، زلزلت بهما قوات البغي والعدوان، تلك القوات التي ما زالت تربص بهذه الجمهورية الفتية.

ولكن الانتصارات أخذت تتوالى؛ لأن عين الله ترعاها وترعى قائدها الملهم (جمال عبد الناصر)، وقد نبه هذا القائد العبقري إلى قوة العلم وبخاصة في هذا العصر الذي حقق العلم فيه كثيرًا من المعجزات؛ لذلك أشاد في خطبه في مناسبات كثيرة بمزايا العلم، وأهاب بجامعة الأمم لكي تنهض برسالتها على نحو يؤدي إلى الابتكار والاختراع والسبق العلمي. ونبه السيد الرئيس على وصل ما انقطع من تيار نهضتنا الأولى أيام العباسيين، وليس الغرض من ذلك أن نبدأ من حيث انتهى ابن الهيثم وابن سينا والرازي، والخوارزمي وجابربن حيان والزهراوي وغيرهم؛ لأن العلم الغربي بدأ من حيث انتهى هؤلاء، حتى وصل إلى ما وصل إليه، وإذًا فنقطة البدء تكون من أول مرحلة من مراحل العلم الحديث الذي يتقدم اليوم بسرعة مذهلة، وأما العلم القديم الذي أرسى العرب السابقون

وتتحدث بالمغولية كانت تسمي نفسها دائمًا باسم التتر، وبعد عهد جنكيز خان أطلق اسم المغول على التتر.

قواعده، فهو وإن لم يكن ذا فائدة في عصرنا الحاضر، إلا أننا بحاجة شديدة إلى معرفته؛ لكي نقف على المجهود العظيم الذي قدمه أجدادنا العرب إلى الحضارة الإنسانية في وقت كان النور لا يشع إلا من بغداد وقرطبة والقاهرة[١١]؛ ولكي نعرف بدقة موقف العرب من الحضارة الإنسانية والدور العظيم الذي كان لهم فيها.

ولو قدر للغرب أن يضل الطريق، فلم يدرس الحضارة العربية والأسس العلمية التي قامت عليها لكان عليه أن يبدأ من حيث بدأ العرب، وكان لا بد أن تمر فترة طويلة لا تقل عن بضعة قرون، وكانت النتيجة الحتمية لهذا الغرض أن يتأخر ركب الحضارة التي يعيش فيها الغربيون عدة قرون. ومن هذا يبدو واضحًا أن ما وصل إليه علماء العرب في مختلف نواحي العلم والثقافة والمعرفة، وإن لم تكن له قيمة علمية كبيرة في مجال البحث العلمي الحديث، إلا أنه كان الأساس القوي الذي ساعد الغربيين على البحث والدرس حتى حققوا ما نسمع عنه اليوم من معجزات. وإننا لنشعر ببالغ الأسف حين نعلم أن انقسام العرب واختلافهم في الشرق والغرب كان السبب فيما أصابهم من محن وما نزل

---

(١١) القاهرة: **Lecaire**، أسسها جوهر الصقلي في ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨هـ ٩ من يوليو في موضع شمالي الفسطاط، حيث بنى الجامع الأزهر وحوله القصور والمساكن، وحيث بنى قصرًا فخمًا للمعز لدين الله الفاطمي، ومكانه الآن بيت القاضي القديم، وبنى فيها صلاح الدين الأيوبي قلعة الجبل في مكان يعرف بقبة الهواء، وجدد سورها وأباح للأجانب الاقامة بها والاتجار مع أهلها، وبفضل الأزهر أصبحت مركز العلوم بعد سقوط بغداد، وبنى بها ابن يونس المصري صاحب الزيج الحاكمي مرصدًا فلكيًا على جبل المقطم.

بهم من كوارث، حتى تفتتت وحدتهم فتوقفوا عن السير بركب العلم إلى الأمام.

وإننا لنطمع اليوم بعد أن تهيأت لنا الظروف في أن نبدأ عصرًا جديدًا، نعوض به فترة الجمود التي مرت بالعرب ونلحق الأمم الغربية التي سبقتنا، وبذلك نصل ما انقطع من تيار الحضارة العربية الذي لو قدر له عدم التوقف لكانت حضارتنا هي التي حطمت الذرة، وابتكرت الأقمار الصناعية والصواريخ العابرة للقارات، ووصلت إلى الكواكب السيارة، وكشفت عما فيها من بدائع خلق الله، واستخدمت العلم فيما يعود على الإنسانية كلها بالخير في زمن مبكر.

وقد اهتم العرب أشد الاهتمام بالترجمة والنقل باعتبارهما الأساس الوحيد في عملية بناء الحضارة، كما وعى العرب قبل غيرهم حقيقة بالغة الأهمية في التقدم الفكري، يجب ألا يفوتنا التنويه عنها، فقد أدركوا أن النبوغ في العلم والوصول فيه إلى درجة الابتكار والإبداع لن يكون أبدًا مع بقاء العلم في لغة أجنبية غير لغتهم؛ لذلك نهضوا بكل طاقاتهم في سبيل نقل العلم اليوناني وغيره إلى اللغة العربية، وبذلك تهيأت لهم فرص النبوغ فيه، وبرز منهم عدد كبير من العباقرة الذين خلدوا التراث الإنساني، ومهدوا بابتكاراتهم الجديدة إلى قيام الحضارة العربية الإسلامية.

ويقول العلامة ابن خلدون: "إن تعلم العلم بلغة أجنبية يعتبر نصف تعلم". وفي هذا القول دليل ساطع يلقي ضوءًا قويًا على ما نشاهده اليوم

من قلة عدد علماء العرب الذين يمكن وضعهم في صف العباقرة؛ وذلك لأنهم تتلمذوا على المراجع الأجنبية فحسب، ولو أننا عربنا العلم وتنبهنا إلى هذه الحقيقة التي عرفها أجدادنا العرب في العصر العباسي لكان منا اليوم من سبق الغربيين في معرفة سر الذرة، ومن يستطيع عمليًا أن يستخدمها في المجال الحيوي في خدمة الإنسانية وسعادة البشر.

ولكن أملنا قوي في عهدنا الجديد في قيام نهضة عربية جديدة، تقوم على تعريب العلم في الجامعات العربية؛ لاسترداد دور العرب في بناء الحضارة الإنسانيةالقائمة على نبذ العنصرية، وتأييد السلام الدائم من أجل تحقيق الرخاء والرفاهية لسكان كوكبنا الأرضي.

العرب والترجمة

كانت الحضارة العربية تقوم على أسس دينية بحتة أثناء عصر الخلفاء الراشدين، ولم يكد يطمئن العرب على بناء الدولة الإسلامية، وعلى أن هذا البناء قد أصبح قويًا شامخًا لا تزعزعه العواصف، حتى بدؤوا يفكرون في دعم هذه الدولة بالعلم الدنيوي، بعد أن رسم لهم القرآن الكريم منهجًا سليمًا في تعلم العلم والانتفاع به في ترقية حياتهم. ومنذ ابتداء العصر الأموي أخذ الزحف العلمي العربي يضع الخطوط الأولى، فقد روي أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من اشتغل بالترجمة وصناعة الكيمياء، وأنه ترجم كراسة في الطب تدعى (كناشة أهرن)[١٢]، ثم أخذ تيار حركة النقل والترجمة يشق طريقه ويبلغ في قوته أعلى درجة له في عصر المأمون. وكان أبو جعفر المنصور من أول خلفاء العباسيين الذين تنبهوا إلى قوة العلم في بناء دعائم الخلافة، اعتمد على علماء السريان الذين اشتهروا في ذلك العهد بأنهم حملة العلم ونقلته، وهم الذين يقومون بتدريسه في مدارس الشام في الرها[١٣] ونصيبين[١٤] وحران[١٥]وغيرها.

---

(١٢) أهرن: طبيب مسيحي من أطباء مدرسة الإسكندرية، ظهر في أوائل القرن السابع الميلادي، وكان له تأثير في الدراسات الطبية الأولى للعرب.

(١٣) الرها: **Edessa**أدسا باليونانية وأرهوني بالآرامية، ومنه الاسم العربي الرها، وهي بالتركية أورفا، وهي مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، وكانت لها شهرة عظيمة في الحضارة والمباني الكثيرة وبخاصة الكنائس والأديرة، وتعد عند النصارى من البلاد المقدسة. فتحها عياض بن

كان هؤلاء السريان على درجة عالية من العلم بالثقافة اليونانية، كما كانوا ملمين باللغة اليونانية القديمة إلمامًا تامًا، ووجه أبو جعفر عنايته إلى ترجمة علوم الطب والفلك، ولم يحاول العرب وقتئذ ترجمة الأدب اليوناني، وإن كانت هناك محاولة حدثت في عصر المهدي، وترتب عليها ترجمة بعض أجزاء من إلياذة (هومير)، ولكن هذه الترجمة لم يكن لها أي أثر أدبي في أذهان العرب إذ ذاك؛ إذ كانوا ينظرون إلى أدبهم باعتباره أحسن الآداب، ولما كان الأدب ترجمة عن الشعور والإحساس رأوا أنفسهم في غير حاجة إلى استعادة شيء من الأدب اليوناني، وحين اطلعوا على بعض ترجماته هالهم أنه أدب وثني، يتحدث عن تعدد الآلهة ويعترف بأن للآلهة بنات في الماء وفي السماء؛ لذلك أنكروه أشد الإنكار وعزفوا عنه عزوفًا.

غنم سنة ١٧هـ، واشتهرت أيام الصليبيين، وقيل إنها بنيت أيام السلوقيين، وكانت من أكبر المراكز العلمية أيام السريان.

(١٤) نصيبين: مدينة من مدن الجزيرة فتحها عياض بن غنم في خلافة عمر بن الخطاب، وتقع على نهر (هرياس) من روافد الخابور، وكان بها قبل الإسلام مدرسة نسطورية نالت تأييد الساسانيين من ملوك الفرس، وقد أثرت في انتشار العقائد النسطورية والمعارف اليونانية في فارس.

(١٥) حران: مدينة وتسمى باللاتينية **Garrhae**، وتعرف في النقوش المسمارية باسم خرانو بمعنى الطريق، وهي مدينة قديمة في شمال العراق وقيل: هي بين الرها ورأس العين، أو بين الرها والرقة وأهلها الحرانيون أو الصابئة، وقد خيرهم الخليفة المأمون في أول القرن الثالث الهجري بين الإسلام أو أي دين كتابي أو العمل على إفنائهم، فقالوا إنهم الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وهم طائفة تعميدية يهودية مسيحية، ومنها أسرة بني قرة التي أدت خدمات جليلة في العلوم الرياضية والفلكية عند العرب، وينسب إلى حران البتاني الرياضي الفلكي المسلم، وابن تيمية إمام العلوم الإسلامية في عصره والمتوفى في سنة ٨٢٧هـ.

وفي أيام الرشيد أقبل العرب على الترجمة والنقل إقبالا شديدًا، وكان الرشيد أشد حماسة من المنصور في تشجيع الحركة العلمية، فقد كان يقوم بنفسه بغزو بلاد الروم كل سنة، وكان يطلق على هذه الغزوات (الصوائف).واذا تأملنا الباعث على هذه الغزوات الصيفية اتضح لنا أنها كانت غزوات علمية بمعنى أدق؛ لأن الرشيد وإن كان يقصد إلقاء الرعب في قلوب أعداء الخلافة، إلا أنه كان إلى جانب ذلك يهتم أشد الاهتمام بالحصول على مزيد من الكتب في مختلف العلوم في الطب والرياضة والفلسفة.

ولكن كيف كان يحصل على هذه الكتب؟ كان يتجه بغزواته إلى كثير من المدن الرومية في آسيا الصغرى، وفي مقدمتها عمورية[١٦] وأنطاكية[١٧]، وكانت خزائنها مملوءة بالكتب النفيسة التي لم يكن يدرك قيمتها أحد من سكان هذه المدن إلا أنها مخلفات قديمة، وكان الرشيد يجعل من بين شروط الصلح الحصول على الكتب التي يريدها، واستمرت هذه الصوائف من أجل ذلك الغرض الأسمى الذي هو محاولة امتلاك مصادر العلم والثقافة، وترجمتها إلى اللغة العربية. وشتان بين غزو

---

(١٦) عمورية: **Amorium**، مدينة للروم مشهورة حاصرها الخليفة المعتصم في حرب طويلة، وهدمها وأحرقها وسبى أهلها انتقامًا من (تيوفيلس) امبراطور الروم، ومكانها الآن مدينة (سوري حصار) في (آسيا الصغرى).

(١٧) أنطاكية: **Antioche**، مدينة ببلاد الشام اشتهرت أيام الحروف الصليبية وتقع على نهر العاصي، وكانت قاعدة العواصم قديمًا، ولا تقل أهميتها عن دمشق، وإليها كان ينسب بطارقة الكنيسة الشرقية، وفيها ولد أبو القاسم المعروف بالقاضي التنوخي من شيوخ الفقة والسنة والأدب وتوفي سنة ٣٤٢هـ.

من أجل العلم وغزو من أجل استعباد الشعوب، وسلب الناس حرياتهم وحقوقهم الطبيعية في الحياة، وإهدار آدميتهم، والحط من كرامتهم، وفي عصر الرشيد اشتهر (يوحنا بن ماسويه)[١٨]باعتباره شيخ المترجمين، وقد كان للرشيد ثقة كبيرة فيه، وهو الذي نصح هارون بإنشاء دار كبيرة للكتب، تلك الدار التي اتسعت واشتهرت فيما بعد، وأصبحت تدعى (دار الحكمة) في عصر المأمون.

وقد تميز هذا العصر بأنه كان عصر تهذيب للترجمات السابقة، ذلك التهذيب الذي ترتب عليه التحصيل الواعي والهضم الدقيق لجميع الثقافات الأجنبية، ثم عصر الابتكار وبناء الثقافة العربية الإسلامية ووضع أصولها ومناهضتها، وينفرد المأمون بين خلفاء الدولة العباسية بأنه كان عالمًا مثقفًا محبًا للعلم والعلماء، مخلصًا أشد الإخلاص في تأييد الحركة الفكرية والنهوض بالثقافة العلمية، فوجه عناية كبرى إلى دار الكتب التي أنشأها الرشيد، ومنحها كل اهتمامه ورصد لها الأموال الكثيرة، وحشد فيها عددًا كبيرًا من العلماء والمترجمين، ومما يدل على تقديره لتلك الدار وتعليقه أهمية كبرى على النهوض بها أنه أمر بتسميتها دار الحكمة

---

(١٨) ابن ماسوية (يوحنا) كان طبيبًا مشهورًا من أطباء (جنديسابور)، هاجر إلى بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وأنشأ بها بيمارستانًا، ثم جعله الخليفة المأمون (٢١٥هـ/٨٣٠م) رئيسًا لبيت الحكمة، وكان أستاذًا لحنين بن إسحق، وتوفي سنة (٢٤٣هـ/٨٥٧م)، ومن مؤلفاته كتاب دفع ضرر الأغذية وكتاب الإسهال وكتاب الصداع، وكتاب الدوار وكتاب لماذا امتنع الأطباء عن علاج الحوامل في بعض شهور حملهن، وكتاب محنة الطب وكتاب القصد والحجامة.

وجعل (سهل بن هارون)[١٩] رئيسًا لخزنتها، وكانت هذه الدار تشبه إلى حد كبير الأكاديميات الحديثة للعلوم.

واتخذ المأمون طريقة جديدة لتزويد دار الحكمة بالكتب ونوادر المخطوطات، وأطلق يده في سخاء في تشجيع الحركة العلمية، فلم يكن يبخل بالمال في سبيل ذلك، وأثار المأمون بعطفه الشديد على العلماء والمترجمين شعور بعض الأسر العربة والفارسية، فأخذت هذه الأسر تتنافس في ذلك الميدان، وفي مقدمتها أسرة أبناء (موسى بن شاكر)[٢٠]، فقد كانت لهم جهود عظيمة في استجلاب المخطوطات وترجمتها، ومن العلماء الذين اشتغلوا بالنقل والترجمة وكانوا يكثرون من التردد على دار الحكمة الفضل ابن نوبخت[٢١] ويحيى بن البطريق[٢٢]، والحجاج بن

---

(١٩) سهل بن هارون: هو سهل بن هارون بن رامنوي الدستميساني، انتقل إلى البصرة ثم جعله المأمون صاحب خزانة الحكمة ببغداد، وكان شاعرًا حكيمًا عظيمًا فارسي الأصل شعوبي المذهب، وعرف بتعصبه الشديد ضد العرب، وله في ذلك كتب كثيرة، وله رسائل في البخل.

(٢٠) أبناء موسى بن شاكر هم محمد وأحمد والحسن أبناء شاكر المنجك، وقفوا حياتهم على طلب العلوم القديمة والحصول على الكتب من بلاد الروم، وكانوا يظهرون اهتمامًا كبيرًا بعلوم الهندسة والفلك والموسيقى، وأنشؤوا بدارهم ببغداد مرصدًا خاصًا، وترجموا وألفوا كتبًا كثيرة.

(٢١) الفضل بن نوبخت: هو ابن سهل الفضل بن نوبخت فارسي الأصل، وكان في خزانة الحكمة أيام هارون الرشيد، نقل كتبًا من الفارسية إلى العربية منها كتاب الفأل النجمي، وكتاب التشبيه والتمثيل، وكتاب المنتحل من أقاويل المنجمين وغيرهم.

(٢٢) يحيى بن البطريق: هو أبو زكريا يحيى بن البطريق مترجم مشهور في أوائل القرن الثالث الهجري، ترجم كتاب الحيوان، وتلخيصًا لكتاب النفس وكتاب العالم لأرسطو، وترجم كتب أبقراط في الطب، ووصفه القفطي في أخبار الحكماء بالأمانة في النقل.

مطر الوراق الكوفي وقسطا بن لوقا البعلبكي[٢٣] وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي، وحنين بن إسحق[٢٤]وابنه إسحق بن حنين. وكان حنين بن إسحق ذا شهرة عظيمة في فنون الترجمة، كما كان على حظ عظيم من الاتقان في النقل، مما جعله ينشئ مدرسة خاصة لتعليم الترجمة، وكان لها منهج خاص وأصول وتعاليم.

وجرى حنين في تعليم تلاميذه أصول فن الترجمة على طريقة تحقيق النصوص ومقابلتها بغيرها ونقدها قبل ترجمتها، ثم تدريبهم على الترجمة عمليًا، بأن يكل إليهم ترجمة كتب معينة، ثم يقوم بمراجعة أعمالهم، ويعلق عليها، وكان لتعمقه في اللغات اليونانية والسريانية والعربية يسلك طريقتين في الترجمة، فمرة كان ينقل من اليونانية إلى العربية مباشرة، ومرة ينقل من اليونانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية.وبلغت شهرة حنين مبلغًا

---

(٢٣) قسطا بن لوقا: قيل إنه يوناني نصراني ظهر في سنة ٩٠٠م وهو من (بعلبك) بسورية، ويقول ابن النديم بعد أن ترجم لحنين بن إسحق قبل قسطا: وكان من حقه (أي من حق قسطا) أن يقدم على حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب، ولكن بعض الإخوان سأل أن يقدم (حنين) عليه، وكلا الرجلين فاضل، وكان قسطا بارعًا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة، فصيحًا باليونانية جيد العبارة بالعربية، وتوفي بأرمينية عند بعض ملوكها بعد أن ترجم كتبًا كثيرة في الطب.

(٢٤) حنين بن إسحق: هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادي، والعباد نصارى الحيرة، كان شديد العناية بترجمة كتب الطب عالمًا باللغات اليونانية والسريانية والعربية، رحل إلى كثير من البلاد رغبة في جمع الكتب القديمة، وكانت أكثر تراجمه لبني موسى ابن شاكر، وتوفي يوم الثلاثاء لستٍ خلون من صفر سنة (٢٦٢هـ)، وذكر ابن النديم طرفًا من مؤلفاته منها كتاب أحكام الاعراب على مذاهب اليونانيين ويقع في مقالتين، وكتاب المسائل في الطب وكتاب الأغذية، وكتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها، فضلًا عما ترجمه من كتب كثيرة.

عظيمًا، حتى قيل إن بني شاكر كانوا لاهتمامهم الشديد بنشر العلم وترجمة الكتب يبالغون في إكرامه، لدرجة أنهم جعلوا له راتبًا شهريًا قدره خمسمئة دينار، كذلك كان المأمون يعرف قدره وقدر علمه، فكان يعطيه على كل كتاب يترجمه قدر وزنه ذهبًا خالصًا.

ولحنين بن إسحق مواقف نبيلة تدل على ما كان يتحلى به من خلق كريم ونفس طيبة مفطورة على حب الخير والإخلاص، فقد حدث بعد أن توفي المأمون أن اتخذه المتوكل على الله العباسي طبيبًا له، فطلب منه في يوم من الأيام أن يصنع له دواء سامًا كي يقتل به عدوًا له، فأبىحنين أن يصنع هذا الدواء وصمم على ذلك، وألح عليه المتوكل ولكنه في كل مرة كان يجد منه إعراضًا شديدًا، فأمر المتوكل بإدخاله السجن وظل فيه عامًا كاملًا، ثم أخرجه من السجن وأمر باحضار السياف وأخذ يهدده بالقتل إن لم يصنع له الدواء الذي طلبه، فلم يتراجع حنين عن موقفه وأصر على الرفض والسيف مسلط على رقبته، ثم قال للمتوكل هذه العبارة البليغة السامية الغرض: "لم أحسن إلا الشيء النافع ولم أتعلم غيره"فتأثر المتوكل بقوله وعفا عنه، ثم قال له: "طِب نفسًا يا حنين، فإنا أردنا امتحانك".

فهذه القصة تلقي ضوءًا على ما كان عليه حنين بن إسحق من أمانة في طبه، وإخلاص في خدمة الإنسانية وعزوف شديد عن عمل ما يضر الناس، هذا إلى جانب ما عرف عنه من الدقة في النقل والترجمة، وكان المأمون لا يترك سبيلًا من السبل في تشجيع الترجمة والنقل إلا سلكه،

فقد بلغه أن بجزيرة صقلية[٢٥] مكتبة حافلة بنوادر الكتب ونفائس المخطوطات، فأرسل رسلًا من بغداد إلى حاكم صقلية المسيحي، يطلب منه إرسال ما عنده من كتب، فتوقف الحاكم أول الأمر ولم يوافق على طلب المأمون، ولكنه خشي فيما بعد أن يغزو المأمون جزيرته كما كان يغزو الرشيد بلاد الروم من أجل الكتب، فلم يجد مفرًا من إرسال كل ما طلبه المأمون.

ومن المترجمين الذين كان يعتمد عليهم في السفر إلى بلاد الروم الحجاج بن مصر ويوحنا بن ماسويه، وقد نجح هذا الرجلان في الحصول على عدد كبير من الكتب والمخطوطات، ولشدة ولع المأمون بقيام حضارة علمية زاهرة في عصره، رأى أن الكتب المترجمة في عصري أبي جعفر المنصور والرشيد يشوبها كثير من النقص بسبب عدم توافر الدقة في التحقيق؛ لذلك أمر بإعادة النظر في جميع هذه الترجمات بقصد تصحيحها وضبطها ومراجعتها على الأصول التي عثر عليها أخيرًا.

فقد اتضح له أن يحيى بن البطريق كان يتبع في الترجمة طريق نقل

---

(٢٥) صقلية: Sicile، جزيرة عظيمة ببحر الروم فتحها أسد بن الفرات بعمارة بحرية سنة (٢١٢هـ/٨٢٧م)، وأرسل إليها أيضًا زيادة الله إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقية جيشًا في أسطول ضخم واستولى عليها، وكانت أساطيل الدول الإسلامية قد ملأت بحر الروم، بعد أن وفق العرب في استخدام البوصلة البحرية في أسفارهم في البحر، ومن مدنها المشهورة مسينة Messine، واستولى عليها الفاطميون بعد الأغالبة، ثم ملكها بعد الفاطميين الحسن بن على الكلبي سنة (٣٣٦هـ/٩٤٧م) وأسس فيها دولة الكلبيين، وكانت أثناء الحكم العربي ذات حضارة عربية إسلامية زاهرة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم.

الكلمة من اليونانية إلى العربية من غير مراعاة لأساليب البلاغة العربية، فجاءت ترجماته جافة وفي أغلب عباراتها كثير من الغموض والإبهام، ثم أسند إلى (حنين بن إسحق) وابنه (إسحق بن حنين) مهمة مراجعة هذه الكتب، وقد عرفنا من قبل منزلة حنين في الترجمة، أما ابنه إسحق فكان يشارك أباه في القدرة الفنية ويفضله في تمكنه من اللغة العربية، وكان حنين يسلك في الترجمة طريقة مثلى تقوم على أساس تفهم معاني الجمل والعبارات في اليونانية، ثم ينقل المعنى المفهوم إلى العربية مراعيًا أساليبها في التعبير والأداء وترتيب الجملة، ومن أجل ذلك جاءت ترجمات حنين وابنه سليمة واضحة دقيقة. وكانت هذه الترجمات الجديدة للكتب التي عمل المأمون على تنفيذها هي المرجع الصحيح الدقيق لجميع علماء العرب، فأقبلوا على هذه الكتب يقرؤونها ويستوعبون ما فيها، فلما فرغوا من دور التحصيل والفن بدؤوا يبتكرون ويصححون آراء اليونان ويضيفون إليها.

ويلاحظ أن أهم الكتب التي نقلت وتمت مراجعتها في عصر المأمون هي كتب أفلاطون[٢٦] في السياسة وأصول الهندسة وكتب

---

(٢٦) أفلاطون: **Platon**(٤٢٧–٣٤٧ ق.م)، ولد بأثينا، وينتهي نسبه من جهة أبيه إلى ملوك أثينا القدماء، وأما أمه (بريكسون) فهي من نسل صولون الحكيم. تلقى العلوم النحوية والرياضية والموسيقى وحفظ أشعار هومير، ثم صار تلميذًا لسقراط، وظل ملازمًا له حتى مات، ثم سافر إلى مصر فالقيروان، ودرس فلسفة (فيثاغورث)، ومات بعد أن بلغ ثمانين عامًا ودفن في بستان البطل (أكاديموس) تحت ظلال شجرة الزيتون. وأكثر مؤلفاته محاورات يتضمن بعضها تعاليم سقراط، وبعضها الآخر يتضمن مذهبه الخاص.

أرسطو[٢٧] المنطقية، ومنها المقولات والعبارة والقياس والجدل والخطابة والكون والفساد، ثم كتبه في النفس والحيوان والأخلاق وكتب أبقراط[٢٨]في الطب ثم كتب جالينوس[٢٩].

---

(٢٧) أرسطو: أو أرسطوطاليس **Aristote** (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) كان من أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين، ولد في بلدة (استاجيرا) من أعمال مقدونيا، وكان أبوه نيقوماك **Ncomaque** أو نقوماخس طبيبًا لملك مقدونيا، فنشأ أرسطو في بيت الملك مهذب العادات دقيق الفكرة والحساسية، ثم رحل إلى أثينا سنة ٣٦٧ ق.م واستمع إلى البلغاء والخطباء فأعجب بأفلاطون ولازمه ومنًا، ولما مات أفلاطون أسس بأثينا مذهبًا يسمى أتباعه المشائين، لأنه كان يعلم تلاميذه في مماشٍ مظلمة. وكان الإسكندر الأكبر تليمذًا مخلصًا له، ويقال إنه من فكر في إنشاء المكتبة، وفي كتابة التاريخ على شكل معجم مرتب على حسب الحروف الأبجدية، وامتاز بعبقرية علمية فذة ومعرفة واسعة شاملة، ومؤلفاته تعتبر دوائر معارف عامة تتناول جميع العلوم البشرية التي كانت معروفة في الجيل الرابع (ق.م)، وتنقسم خمسة أقسام: الكتب المنطقية، والكتب الطبيعية وكتاب ما بعد الطبيعة، والكتب الخلقية والسياسية والكتب الفنية (الخطابة والشعر).

(٢٨) أبقراط أو بقراط: وهو الاسم الذي أطلقه العرب على هبيوكراتسي **Hippocrate**، وكانت له شهرة واسعة بين علماء المشرق الذين نقلوا معظم مؤلفاته، ونقل (سرجيوس) مصنفاته إلى السريانية وكان حنين بن إسحق وقسطا بن لوقا من أشهر الذين نقلوا مؤلفاته إلى العربية فنقل (حنين) مقالات بقراط التي عنوانها (تقدمة المعرفة) وترجم عيسى بن يحيى كتاب الأمراض الحادة له، كما نقل كتاب الفصول وأضيفت إلى مؤلفاته شروح وتفاسير عربية، ويقال: إنه عاش قبل الإسكندر بنحو ١٠٠ سنة.

(٢٩) جالينوس: **Galenus**، هو كلوديوس جالينوس طبيب يوناني مشهور من القدماء، ولد في برغاموس من (ميسيا) سنة ١٣٠ ميلادية ودرس المنطق والفلسفة والطب، وسافر إلى البلدان المختلفة لطلب العلم، وغاب عن مسقط رأسه تسع سنوات، ولما عاد صار طبيب المدينة وأستاذًا في مدرسة المصارعين، ثم سافر إلى روما ومكث فيها أربع سنوات، تعلم أثناءها فني التشريح والمعالجة، وعني العرب بكتبه وآرائه في الطب، ومات في صقلية سنة ٢١٨ ميلادية.

ومن المترجمين الذين برزوا في عصر المأمون ثابت بن قرة الحراني(٣٠)، وقد نشأ أول حياته بين الصابئة(٣١) الذين كانوا يعيشون في حران مع أسرته، وبرع في علوم الفلك والرياضة، وقد عجز كثير من المترجمين قبله عن نقل بعض كتب الفلك والرياضة، فلما أسند إليه المأمون مهمة نقل الكتب اضطلع بترجمة ما قد استعصى على غيره من هذه الكتب، وكان (ثابت بن قرة) يضارع (حنين بن إسحق) في مكانته العلمية، غير أن (حنينًا) كان مختصًا بإصلاح كتب الفلسفة والمنطق، وأما ثابت فقد كان يقوم بإصلاح كتب الرياضيات والفلك، ومن الكتب التي أصلح ترجمتها

---

(٣٠) ثابت بن قرة الحراني: كان من العلماء اللامعين الذين أسهموا بنصيب وافر في التراث العربي، بدأ حياته صيرفيًا بحران ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بالطب وغيره من العلوم الفلسفية، واتصل بالمعتضد فعرف فضله. وقد تعددت نواحي عبقريته بنقله كثيرًا من التأليف إلى العربية، وإضافاته وابتكاراته في الرياضة والطب، ومن أولاده إبراهيم الذي بلغ منزلة أبيه في الطب وغيره، ويقال إنه عالج الشاعر المشهور (السري الرفاء) فشفي من مرضه، فمدحه بقوله:

هل للعديل سوى ابن قرة شافٍ ... بعد الإله وهل له من كافِ؟

فكأنه عيسى بن مريم ناطقًا ... يهب الحياة بأيسر الأوصافِ

وتوفي سنة ٢٨٨هـ.

(٣١) الصابئة: من صبأ أي خرج من دين إلى دين، أو تدين بدين الصابئين، والصابئون والصابئة قوم كانوا يعبدون النجوم، واختلف المحققون في تحديد ديانتهم، والمعروف أنهم ينقسمون إلى مؤمنين وكافرين، ويقول الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، فذكرهم من بين الأمم الأربع الذين ينقسمون إلى ناجٍ وهالك، وكانوا يقيمون بحران وينقسمون إلى حنفاء ومشركين.

كتاب المجسطي[٣٢] وكتاب (إقليدس)[٣٣] في أصول الهندسة.

كذلك كان من النابغين في نقل الكتب قسطا بن لوقا، وقد مهر في ترجمة كتب الطب والفلسفة والموسيقى والحسا، ب واشتهر فوق ذلك بأنه كان يتقن اللغة اليونانية ويجيد الكتابة بالعربية، وبأنه كان طبيبًا ماهرًا في عصره. ولم يكن قسطا مترجمًا فحسب بل كان مؤلفًا أيضًا، ومن أحسن كتبه رسالة ألفها في الفرق بين النفس والروح.

وظلت حركة الترجمة والنقل تسير في طريقها، فلم تضعف همة المترجمين بوفاة المأمون؛ إذ سلك بعض الخلفاء الذين جاؤوا بعده مسلكه في تشجيع النهضة العلمية، واستمر ذلك إلى منتصف القرن الرابع الهجري تقريبًا.وكانت حركة التأليف تسير إلى جانب حركة الترجمة، بدليل أن بعض المترجمين كانوا يزاولون التأليف والترجمة في وقت واحد، وقد عرفنا من قبل أن علماء العرب كانوا مولعين بالعلم؛ لذلك أكبوا على الدراسة والاطلا ع، فسكبوا الملكة في العلم والقدرة على التأليف، ومن أجل ذلك كانت نهضة

---

(٣٢) المجسطي: اسم الكتاب المشهور الذي وضعه بطليموس الرياضي الفلكي اليوناني، الذي ولد في بيلوسيوس ونشأ في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد، ويعرف هذا الكتاب عند اليونان باسم (السنتكس الرياضي)، وعند العرب باسم المجسطي. ويبحث في العلاقة بين الأرض والسماء وتأثير الكواكب في الأرض، وفيه يجعل بطليموس الأرض في وسط المسكونة، وانتقده ابن الأفلح الأندلسي في كتاب له يسمى إصلاح المجسطي.

(٣٣) إقليدس: لفظ يوناني مركب من (إقلي) بمعنى المفتاح و(دس) بمعنى المقدار أو الهندسة، فمعناه مفتاح الهندسة، وسمي به صاحبه؛ فإقليدس فيلسوف يوناني رياضي ولد في الإسكندرية، وأقام في بلاد الإغريق قبل الميلاد بثلاثمئة سنة، وما تزال المدارس الإنجليزية تعتمد على قسم الهندسة من هذا الكتاب، وشرحه نصير الدين الطوسي.

أخرى بعد نهضة الترجمة، وهي نهضة التأليف في العلوم، وقد وضح مما قدمناه أن أكثر الذين اشتغلوا بالترجمة والتأليف كانوا من الأطباء، وأن أعلام التراث العربي كانوا ينبغون في أكثر من علم واحد.

اللغة العربية لغة العلم والحكمة والتأليف

لا ريب في أن حركتي الترجمة والتأليف في العلوم والثقافات اليونانية كان لها أثر عظيم في اللغة العربية، فاللغة باعتبارها وعاء العلم والتفكير قد اتسعت بما نقل إليها من أفكار جديدة وآراء في الفلسفة والفلك والرياضة والطب والجغرافيا، وبذلك أفادت اللغة مرونة في التعبير وقدرة على حسن الأداء. فهناك كلمات فنية واصطلاحات علمية في مختلف العلوم المترجمة قد دخلت، فاتسع متنها وازدادت بذلك قدرة الناطقين بها على التعبير عن أدق مسائل العلوم المعروفة في العصور الوسطى، كذلك استغل المسلمون الفلسفة اليونانية في التوفيق بين نظريات الفلسفة وحقائق الدين، وإن كان بعض المفكرين في هذا العصر يحاولون التفريق بينهما، باعتبار أن لكل منهما منهجه الخاص في تفسير الحقائق، فالدين يعتمد على الوحي، والفلسفة مجالها البحث والتأمل والنظر، والحقيقة التي لا ريب فيها أن الدين الإسلامي يدعو إلى التفكير والنظر، ويطالب بعدم التقليد في الإيمان، فهو يدعو إلى الحرية الفكرية، الحرية التي لا تضل ولا تنحرف، وقد ظهر أثر العلوم اليونانية واضحًا فيما أخذ به علماء الكلام أنفسهم من اصطناع طرق الجدل والحجاج واستخدام الأدلة والأقيسة المنطقية.

وكان للمنطق اليوناني أثر واضح في النحو العربي، إذ استخدم النحاة القياس وابتدعوا العلل النحوية متأثرين بهذا المنطق، وكذلك تأثر

به علماء الفقه الإسلامي في استنباط الأحكام الفقهية، وكانت البلاغة العربية في مقدمة العلوم التي تأثرت تأثرًا كبيرًا بمناهج البلاغة اليونانية، ونستطيع أن نقول في إجمال إن الفكر العربي الإسلامي قد أفاد فائدة كبرى من الثقافات الأجنبية، فضلًا عما أفاده من النهضة التي جاء بها الإسلام، من أجل ذلك قويت مادة اللغة وغرزت، وقد ساعد ذلك كله على قيام نهضة علمية عظيمة الشأن في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وما كادت بغداد تسقط في أيدي التتار حتى انتقلت مراكز العلم إلى القاهرة ودمشق[٣٤] وحلب[٣٥].

(٣٤) دمشق: damas، واسمها باللغة المصرية القديمة دمسكو، ويسميها العرب جلق، وهي حاضرة الشام من قديم، وقد بنيت على عدة أنهر أشهرها نهر (بردي) فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد ١٣هـ/٦٣٥م بعد واقعة اليرموك، ثم صارت قاعدة الأمويين فانصرفت إليها الآمال ووفد عليها من أقاصي بلاد العرب وجوه القبائل وشعراؤها، وبنى فيها الوليد بن عبد الملك الجامع الأموي المشهور، ثم أضحت وطن كبير من الفقهاء والشعراء والأدباء، منهم ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنباء وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ومحيي الدين بن عربي إمام الصوفيين المشهور، وابن قيم الجوزية وشمس الدين الذهبي وابن عريشاه المؤرخ المعروف، وفيها قبر معاوية بن أبي سفيان وصلاح الدين الأيوبي، ونور الدين محمود بن زنكي وأبي نصر الفارابي، وهي الآن قاعدة الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة.

(٣٥) حلب: وقد سماها الصليبيون Beree، وهي مدينة كبيرة بالشام (الإقليم الشمالي من الجمهورية المتحدة) تقع في الشمال، فتحها أبو عبيدة وخالد، وكانت تسمى قديمًا هلبون أو هلبة، واتخذتها الدولة المرداسية قاعدة لها سنة ٤١٤هـ-٤٧٣م، ويقال بناها قوم من العماليق، وبها مشهد إبراهيم الخليل، وقيل مكان تعبده، ومن علمائها وأدبائها ابن سناء الخفاجي صاحب (سر الفصاحة) وابن حيوس الشاعر، وتوفي فيها علاء الدين الخازن صاحب (لباب التأويل في معاني التنزيل).

العرب والطب

كان سبيلنا في الفصول السابقة أن نبين فضل العرب على العلم والحضارة الإنسانية بصفة عامة، وقد نبغ العرب في جميع العلوم التي كانت معروفة في العصور الوسطى، ولو شئنا أن نبين آثار العرب في كل علم وفن لاتسع القول أمامنا وتشعبت نواحيه؛ ولذلك اقتضت طبيعة البحث أن نقصر الكلام على ناحية واحدة من النواحي المجيدة، وهي فضل العرب الطب وفنونه. ومن حق كل عربي أن يفخر بما أداه العرب إلى الطب؛ فقد درسوا قديمه وحديثه وابتدعوا نظريات جديدة، وأحدثوا أساليب مبتكرة في العلاج، ومن ذلك أنهم عملوا على فصل الجراحة عن الطبوجعلوها قسمًا قائمًا بذاته، وأنشؤوا المستشفيات لمعالجة المرضى، ووضعوا اللوائح والتعليمات الخاصة التي تنظم صناعة الطب والصيدلة، وتحدد الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يمارس صناعة الطب، ثم أضافوا إلى المعارف اليونانية في الطب شيئًا كثيرًا من ابتكاراتهم.

وجاء في كتاب تراث الإسلام أن العرب زادوا على الطب اليوناني كثيرًا، وكانت زياداتهم مبنية على التجربة، وفي هذا القول رد على المزاعم الباطلة التي تقول إن الطب العربي كان يقوم على الطرق الغيبية، فهو طب روحاني لا يتصل بسبب بالعلم والتجربة، ولو كان كذلك لما كانت كتبه المراجع الأولى التي اعتمدت عليها الجامعات الطبية في

أوروبا إلى القرن السابع عشر، ومن هذه المراجع التي كسبت شهرة واسعة في دنيا الطب (القانون) لابن سينا، و(الحاوي) لأبي بكر الرازي، و(التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي. ولا تزال هذه الجامعات تحتفظ بصورة رائعة لأعلام الطب العربي، ولا تزال مكتباتها إلى اليوم تقتني المخطوطات العربية الطبية.

ويبدو اهتمام العرب شديدًا بالاشتغال بالطب، وآية ذلك أن مدينة بغداد في زمن المقتدر بالله العباسي قد حفلت بعدد كبير من الأطباء، وقد بلغ في إحدى السنوات عدد الأطباء الذين تقدموا بطلباتهم لكي تمنحهم حكومة الخلافة الحق في مزاولة تطبيب الناس ثمانمئة وستين طبيبًا في مدينة بغداد وحدها، ومما يدعو إلى العجب أن صناعة الطب عند العرب لم تكن مقصورة على الرجال وحدهم، فقد شارك النساء في الاشتغال بالطب، وكان منهن من يمارس هذه الصناعة إلى جانب الرجال، واشتهر من طبيبات العرب بالأندلس أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، فقد عرفتا بالنبوغ في الطب ومعالجة أمراض النساء، ولأسرة ابن زهر الأندلسية مكان مرموق في عالم الطب رجالًا ونساء.

وإذا رجعنا إلى أعماق التاريخ حيث كان يعيش قدماء المصريين، علمنا أن (هوميروس) اليوناني قد زار مصر في تلك العصور، واطلع على أصول الحضارة المصرية عيانًا ومشاهدة، وقد سره ما رآه من مهارة أطباء مصر القديمة، وما لهم من قدرة عجيبة على مزاولة أنواع شتى من

الأمراض، ومما يروى أن(كورش الأكبر)[٣٦] ملك الفرس أرسل إلى مصر طلب طبيب من أطباء العيون، فلبى المصريون طلبه وأرسلوا إليه الطبيب الذي يطلبه، ولما بدأ يعالج المرضى بعيونهم كان موضع دهشة الفارسيين جميعًا. ومن بعد كورش كان دارا ملك الفرس أيضًا يبدي إعجابه الشديد بأطباء مصر، ويعتمد عليهم في تطبيب نفسه وأسرته.

وكان الطبيب (أمحوتب) (أعظم أطباء مصر وإله الحكمة عند القدماء) قد ملأت شهرته الخافقين الشرق والغرب، ومن المؤكد أن الإغريق نقلوا عن المصريين كثيرًا من وسائل العلاج وأنواع العقاقير وآلات الجراحة. وكان الكلدانيون -وهم من صميم العرب- يمارسون ألوانًا من الطب يختلط فيها السحر بالشعوذة بالعلاج المبني على التجربة، فنقل عنهم اليونان جميع معارفهم الطبية. ثم تدور عجلة الزمان بسرعة وينتقل مركز الحضارة إلى الإسكندرية، ثم إلى المراكز العلمية التي أنشأها السريان في بلاد الشام، وجامعة الإسكندرية ومدارس الشام.

درس المصريون والعرب والسريان المعارف الطبية اليونانية التي ترجع إلى أصول مصرية قديمة وكلدانية، وقد كان ذلك قبل ظهور الإسلام، وفي أثناء هذه الفترة كان الفارسيون يستعينون بأطباء السريان

---

(٣٦) كورش الأكبر: جمع كلمة الفرس وكانوا تابعين للميديين، فحاربهم وضم دولتهم إلى فارس، واستولى على المستعمرات الإغريقية الواقعة على الشاطئ الغربي بآسيا الصغرى ثم مد فتوحه حتى بلغت نهر السند، وقضى على دولة بابل الحديثة، وهي التي أذاقت بني إسرائيل الأمرين، وأحسن كورش إلى بني إسرائيل، ولعل ذلك من أسرار العلاقة التي بين رضا (شاه بهلوي) إمبراطور إيران الحالي ودولة إسرائيل المزعومة.

الذين كانوا يقومون بالتعليم في مدارس الرها ونصيبين وأنطاكية. وكان كسرى أنوشروان محبًا للعلماء، فأخذ يعمل على قيام حضارة علمية في بلاده، فأنشأ مدينة (جنديسابور) وبنى فيها (بيمارستانًا) ومدرسة طبية، فكانت هذه المدرسة ذات شهرة عظيمة، وعن طريقها تسربت المعلومات الطبية إلى العرب، وكان الحارث بن كلدة الطبيب العربي المشهور أحد المتخرجين في معهد (جنديسابور).

العرب في الجاهلية والطب

كان العرب في الجاهلية يلمون بكثير من المعارف الطبية التي كانت مزيجًا من الطب والكهانة[٣٧] والعلاج بالوسائل الأولية، فكان العرافون هم الأطباء والمرشدون الذين يؤخذ رأيهم في حل المشكلات، وكان لكل قبيلة عراف[٣٨] يرجع إليه أفراد القبيلة فيما يصيبهم من أمراض وعلل، ومن أحداث مختلقة. وكان الجاهليون ينزلون العراف منزلة الكاهن من حيث الاحترام والتقدير، فالعراف يعالج أمراضهم بوسائله الخاصة، كما يخبرهم بالغيب على حد زعمهم، وإن كان يبدو أقل درجة من الكاهن، ومن العرافين الذين نالوا شهرة كبيرة في الجاهلية رباح بن عجلة وكان يقيم باليمامة، والأبلق السعدي وهو من أهل نجد، ويقول عروة بن حزام مشيرًا إلى هذين العرافين:

---

(٣٧) الكهانة: بفتح الكاف وكسرها ادعاء علم الغيب كالأخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، وقيل الكاهن القاضي بالغيب، والعرب تسمي كل من أخبر بشيء قبل وقوعه كاهنًا، وقيل: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية؛ لذلك ألفتهم الشياطين، ولما بينهم وبين الشياطين من التناسب في هذه الأمور. وكانت الكهانة فاشية في العرب أيام الجاهلية لانقطاع النبوة فيها، وللعرب الجاهليين اعتقاد عظيم في الكهنة لزعمهم أنهم يعلمون الغيب، وكانوا يرفعون إليهم أمورهم للاستشارة، ويستقضونهم في الخصومة، ويستفسرونهم عن الرؤى، ويستنبطونهم في أمراضهم، ومن أشهر كهان العرب شق أنمار وسطيح الذئبي.

(٣٨) العرافة: هي قسيمة الكهانة، فالكهانة مختصة بالأمور المستقبلة، والعرافة خاصة بالأمور الماضية، وقيل: العرافة هي الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية، وكانت كثيرة في العرب جاهلية وإسلامًا، وكان في عصر الرشيد رجل أعمى من أهل العرافة يستدل عن المسؤول عنه، وبكلام صدر عن الحاضرين عقب السؤال، ومن العرافين عراف نجد (الأبلق السعدي)، وقيل الأسدي وعراف اليمامة رباح بن عجلة.

جعلت لعراف اليمامة حكمة وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا:

نعم تشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران

فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سقياني

فقالا شفاك الله والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدان

وفي البيت الأخير إشارة إلى أن العرافين قد بدؤوا يشعرون بأنهم لا يملكون للمريض شيئًا، فما به من داء وما يصيبه من شفاء ليس مما في طاقتهم، فهم لا يستطيعون أن يدفعوا مرضًا ولا أن يجلبوا شفاء؛ إذ ذلك كله بأمر الله تعالى. وكانت العادة عندما يعرض المريض على العراف أن يأخذ في معالجته بأنواع من الرقى والتعاويذ والبخور، وأحيانًا يعطي المريض بعض الأدوية، غير أنه أثناء ذلك كان يقوم بشئ من العزائم كما يكتب التمائم، ويطلب من المريض أن يحملها، إذ كان الاعتقاد المسيطر على أغلب الاذهان وقتئذ هو أن الأمراض ترجع إلى أسباب روحانية لا إلى أسباب عضوية في الجسم نفسه

وكان إلى جانب هؤلاء العرافين صنف آخر من الأطباء يزاولون العلاج بالكي والبتر والفصد[٣٩] والحجامة[٤٠] والحمية، وبعض العقاقير والأعشاب الطبية، التي ينبت بعضها في بلاد العرب ويجلب بعضها من

---

(٣٩) الفصد: قطع العرق أو شقه.

(٤٠) الحجامة: المداواة والمعالجة بالمحجَم، والمحجَم والمحجَمة آلة الحجم، وهي شيء كالكأس يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد فيحدث تهيجًا، ويجذب المد بقوة وجمعه محاجم.

الهند والصين. ومن هذا يتضح لنا أن الطب في الجاهلية كان يزاوله نوع آخر من الأطباء، وهم الأطباء التجريبيون الذين يرفضون الاعتماد على التأثير في المرضى بأسماء الجن والشياطين، وإنما كانوا يعالجون بالوسائل العلمية والأعشاب الطبية، وقد كان هذا النوع من الأطباء يخالطون أفراد القبائل في الصحراء أثناء رعي الماشية، وتتبع مساقط الغيث ومنابت الكلأ والعشب، وكانوا أثناء ذلك يراقبون ما يحدث من حمل وولادة ونمو بالنسبة للإنسان والحيوان، ثم دعتهم الحاجة إلى تشريح أجزاء الحيوانات، فعرفوا أعضاء الجسم ومكان كل عضو ووظيفته وما له من أثر في صحة الحيوان وبنيته.

وقد كانت هذه المعرفة تقترب في أغلب الظن من الآراء الطبية الصحيحة؛ ولهذا نستطيع أن نقول إنه كان بين أطباء العرب في الجاهلية من يمارسون الطب المبني على التجارب العلمية وأنواع الجراحات، وكان هؤلاء الأطباء يصيبون في أكثر الأحيان في تشخيص العلل ووصف العلاج، ومنهم ابن حذيم التيمس[٤١]، ولشهرته في الطب ضرب به المثل فقيل "أطب من ابن حذيم"، ومنهم الحارث بن كلدة الثقفي وأصله من الطائف، وقد أشرنا من قبل إلى أنه تعلم الطب في معهد (جنديسابور) بفارس، ثم أخذ يمارس هذه الصناعة ببلاد العرب. ويروى أن كسرى أنوشروان كان معجبًا به، وقد استدعاه يومًا إلى مجلسه ثم

---

(٤١) ابن حزيم: طبيب عربي جاهلي كان ذا قدم راسخة في الطب، وله فيه باع طويل، وهو من قبيلة تيم الرباب، ويقال إنه كان أطب العرب؛ لذلك قيل في المثل: "أطب في الكي من ابن حزيم".

قامت بينهما محاورة مشهورة، يمكن أن توصف بأنها دستور طبي جليل الشأن.

ومما جاء في هذه المحاورة: قال كسرى يسأل الطبيب العربي الحارث ابن كلدة: ما الداء الدوي؟فقال الحارث بن كلدة: إدخال الطعام على الطعام هو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في جوف البرية، قال كسرى: فما الحمرة التي تصطلم منها الأدواء؟ قال الحارث بن كلدة: هي التخمة إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت، قال كسرى: صدقت. ثم قال: فما تقول في الدواء؟ قال الحارث بن كلدة: ما لزمتك الصحة فاجتنبه (يريد: اجتنب الدواء ما دام الجسم صحيحًا)، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه؛ فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت.

قال كسرى: فأي اللحوم أفضل؟ فقال الحارث بن كلدة: الضأن الفتي والقديد المالح مهلك للآكل. قال كسرى: فما تقول في الفواكه؟ قال الحارث بن كلدة: كلها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها، وأفضل الفواكه الأترج[٤٢] والرمان، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج[٤٣]، وأفضل البقولالهندباء[٤٤] والخس.

---

(٤٢) الأترج والترج: من شجر الطيب واحدة أترجة، وفي جوف كل أترجة شيء يسمى الحماض، ولعله ثمرها.

(٤٣) البنفسج: نبات زهرة سمنجوني اللون طيب الرائحة، والسمنجوني ما كان بلون السماء.

(٤٤) الهندباء: نوع من البقول يؤكل.

قال كسرى: فما تقول في شرب الماء؟ قال الحارث بن كلدة: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة، وشربه بعد النوم ضرر.قال كسرى: فما طعمه؟قال الحارث بن كلدة: لا يتوهم له طعم، إلا أنه مشتق من الحياة.قال كسرى: فما لونه؟قال الحارث بن كلدة: اشتبه على الأبصار لأنه يحكي كل شيء يكون فيه.

قال كسرى: أفتأمر بالحقنة؟قال الحارث: نعم قرأت في كتب الحكماء أن الحقنة تنقي الجوف وتكسح الأدواء عنه، والعجيب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد! وإن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته مؤثرًا شهوته على راحة بدنه. قال كسرى: فما الحمية؟قال الحارث: الاقتصاد في كل شيء؛ فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامها.قال كسرى: لله درك من أعرابي! لقد أعطيت علمًا وخصصت فطنة وفهمًا، ثم أحسن صلته وأمر بتدوين جميع ما نطق به.

وليس في هذه المحاورة ما يدعو إلى الشك من حيث إشارتها إلى بعض الآراء الطبية التي يتوهم بعض الباحثين أنها سابقة لعصره وبيئته، فالحارث بن كلدة تعلم في جنديسابور، والمعروف أن المعهد الطبي بها قد انتهت إليه جميع المعارف الطبية اليونانية، وتوفي الحارث سنة ١٣هـ. ويذكر الرواة أن النبي (صلوات الله عليه) كان يحث المسلمين إذا أصابتهم بعض العلل والأسقام على زيارة الحارث بن كلدة واستشارته؛ لكي يصف لهم ما يبرئ أسقامهم بإذن الله تعالى، وفي هذه الرواية دليل

على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يترك للمسلمين حرية العمل فيما يتصل بشؤون الحياة، ولكن بشرط ألا يتعارض ذلك مع تعاليم الدين.

وللحارث بن كلدة بعض الوصايا الطبية التي تدل على خبرته الواسعة بشؤون الطب والعلاج، فهو الذي يقول: "من سره البقاء –ولا بقاء– فليباكر الغداة وليخفف الرداء، وليقل غشيان النساء". ويقول: "دافع بالدواء ما وجدت مدفعًا، ولا تشربه إلا من ضرورة؛ فإنه لا يصلح شيئًا إلا أفسد مثله"، وقال: "أربعة تهدم البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز". ويقال إن معاوية بن أبي سفيان سأله يومًا: ما الطب يا حارث؟ فقال له: الأزم (يعني الجوع).

وإذا تأملنا قوله هذا ثم وصاياه السابقة مع كسرى اتضح لنا أن منهج الحارث في العلاج والطب يتفق مع الدستور الطبي العظيم الذي وضعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذي سنشير إليه في موضعه من هذه الفصول، وكانالحارث ابن كلدة ينهى عن الاستحمام بعد الطعام، ويوصي بالتخفيف من الدين والهموم. وكان للعرب في تلك الأيام طريقة فريدة في التطبيب والعلاج، ذلك أنه إذا استعصى عليهم معالجة مريض خرجوا به إلى مكان يشرف على طرق القوافل التجارية، كي يراه الرفقة المسافرون من تجار وغيرهم، فإذا كان أحدهم قد مرض بمثل مرضه وشفي منه أمكن أن يصف له الدواء الذي كان سببًا في برئه وشفائه. ومن القواعد الطبية التي اشتهر بها الجاهليون قولهم: "آخر الدواء الكي".

واشتهر العرب بالطب الحيواني (البيطرة) إلى جانب شهرتهم بالطب البشري، والغرض من البيطرة تطبيب الحيوان من إبل وخيل، وقد نبغوا في تتبع أمراض هذه الحيوانات ووصفها، ووصف ما يلائم كل مرض من أمراضها من علاج. وساعدهم على ذلك خبرتهم الدقيقة بطبائع هذه الحيوانات وصفاتها، وقد استفاضت كتب الأدب بهذه الأوصاف التي تؤيد خبرتهم وعلمهم بأحوالها.

وكان للحارث ولد يدعى النضر فأخذ الصنعة عنه، ولكن النضر كان يختلف عن أبيه، فقد كان وهو ابن خالة الرسول (صلوات الله عليه) من أشد أعدائه الذين أسرفوا في إيذائه، كان يناصرأبا سفيان في عداواته للنبي؛ لأنه كان ثقفيًا، وثقيف كانت من حلفاء بني أمية. وكان النضر قد سافر إلى كثير من البلاد، وأفاد علومًا كثيرة وعاشر الأحبار والكهنة واطلع على علوم الفلسفة، فاستخدمها في حرب الرسول، وفي غزوة بدر الكبرى كان يقاتل المسلمين في صفوف المشركين، فأسر مع من أسر، ثم أمر النبي بقتله؛ لأنه كان من أشد أعداء الدعوة الإسلامية، ويروى أن أخته قتيلة بنت الحارث قالت فيه بعد قتله تخاطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

أمحمد ولدتك خير نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق[٤٥]
ما كان ضرك لو مننت وربما ... من الفتى وهو المغيظ المحنق[٤٦]
والنضر أقرب من أخذت بزلة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق

(٤٥) النجيبة: الكرية والمعرق من له عرق في الكرم، الكريم.

(٤٦) الحنق: الغيظ أو أشده.

لو كنت قابل فـــدية لفديتـــه بـأعز مـا يفـدى بـه مـن ينفـــق

ويروى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته.

المسلمون والطب

ما كادت شمس الإسلام تشرق وضاءة ناصعة البياض، تملأ الدنيا نورًا وتهدي العالم الحاشر المضطرب إلى الطريق السوي، طريق الهداية والسعادة والأمن والسلام، حتى قضي على الكهانة والسحر والعرافة، فحل الطب الطبيعي محلها، وكان الرسول (صلوات الله عليه) يعلم أن العرب كانوا يعتمدون على العرافين في معالجتهم فأراد أن تقوم طائفة أخرى؛ لكي تحل محل العرافين فتمارس الطب باسم الدين؛ لذلك نصح الرسول إلى (سعد بن أبي وقاص)، وكان قد عاده أثناء مرضه بمكة بأن يستشير الأطباء.

ويروى أن الرسول قال: "ادعوا له الحارث بن كلدة؛ فإنه رجل يتطبب"، ويروى أيضًا أنه قال للحارث: "عالج سعدًا مما به"، فلما زار الحارث سعدًا وعرف ما يشكو منه قال: "اتخذوا له فريقة[٤٧] بشيء من تمر[٤٨] وحلبة يطبخان، ثم تحسى[٤٩] سعد هذا الدواء فبرئ.

وكان الحارث إذ ذاك على غير دين الإسلام، وفيما أمر به الرسول إشارة صريحة إلى أن التماس الطب والانتفاع بشؤون العلاج الطبيعي أمر لا يتعارض مع الدين، وإنه يجوز للمسلم أن يستشير طبيبًا وثنيًا أو

---

(٤٧) الفريقة: تمر يطبخ بحلبة للنفساء.

(٤٨) العجوة: نوع من التمر بالحجاز، ويقال إن العجوة أم التمر.

(٤٩) تحسى الدواء: شربه شيئًا بعد شيء.

نصرانيًا، كما حدث بالنسبة لسعد والحارث بن كلدة الثقفي، ويؤيد ما أمر به رسول الله ما جاء في الكتاب الكريم: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ".

وقد فسر الثقات من السلف المراد من الحكمة في الآية الكريم، فقال إنها تشتمل على سائر ضروب الحكمة ومن بينها (التطبيب).فجعل الإسلام الطب نعمة من النعم التي ينبغي على من أتمها الله عليه أن يشكر الله عليها، ولا شك بما في ذلك من تمجيد لشأن الطب وإشادة بما له من فضل على الإنسان، وقد كان تقدير الإسلام للطب واعترافه بفضل الأطباء الذين يعالجون المرضى علاجًا طبيعيًا= سببًا في إقبال عدد كبير من المسيحيين على الاشتغال بالطب في ظل الإسلام، الذي كرم الأطباء من كل جنس.

الخلفاء والطب

شجع خلفاء المسلمين العلماء من كل جنس، وكان لهذا التشجيع أثر عظيم في ظهور عدد كبير من أطباء النصارى والأعاجم في حاشية الخلفاء، بسبب ما نالهم من عطف ورعاية وتقدير، وذلك مما يؤيد روح الإسلام، ذلك الدين الذي ينكر التعصب في كل صورة من صوره. وليس معنى تشجيع الخلفاء لأطباء النصارى إلا استجابة لهذا الروح السامي الذي يقررهالدين الإسلامي، وقد أنشأ الخلفاء في بغداد دارًا خاصة لتعليم الطب على نحو مدرسة الطب في (جنديسابور) بفارس، وأسندت إدارتها إلى طبيب من الأعاجم يدعى (فرات بن شحتانا) كان تلميذًا للطبيب (تياذوق) الذي كان طبيبًا خاصًا للحجاج ابن يوسف الثقفي، حينما كان واليًا على العراق، وفي هذه الدار تخرجت طائفة من أطباء النصارى.

ويلاحظ أن المسلمين قد أعرضوا أول الأمر عن التعليم بالمدارس الطبية؛ اعتقادًا منهم بكفاية ما عندهم من المجربات الطبية التي ورثوها عن مشايخهم، ولأنهم كانوا في حاجة إلى كسب الرزق بهذه الصناعة ترفعًا وأنفة. ولا ريب أنهم كانوا على خطأ في تقديرهم؛ لأن موقفهم هذا حرمهم كثيرًا من المزايا التي تمتع بها أطباء النصارى، ومنها تقلد المناصب الكبيرة في دواوين الخلفاء، فالمنصور العباسي استخدم طبيبًا نسطوريًا من(جنديسابور) وجعله طبيبًا ملكيًا لدار الخلافة، وهذا الطبيب هو

(جورجيس بن بختيشوع)[٥٠]، وكانت له شهرة كبيرة، ثم تحولت الدار التي أنشأها المنصور إلى مدرسة طبية كبرى تعرف بمدرسة بغداد، وكان يشرف على إدارتها الأطباء النسطوريون. واستمر (جورجيس) يمارس مهنته كطبيب للخليفة، ويقوم في الوقت نفسه بالتدريس في مدرسة بغداد حتى مرض، فأذن له الخليفة في السفر إلى (جنديسابور) التماسًا للعلاج هناك، وعندئذ أقام مقامه أحد تلاميذه وهو (عيسى بن صهاربخت)[٥١]، ويقال إن عيسى هذا وضع كتابًا في فن الأدوية (الأقرباذين)، وظل جورجيس بفارس حتى عوفي واسترد صحته، ثم عاد ليعمل طبيبًا للخليفة هارون الرشيد.

أما ابنه جبرائيل فقد عهد إليه بأن يقوم بتطبيب جعفر البرمكي وزير هارون الرشيد، وقد سر جعفر من غزارة علمه وكثرة تجاربه، فأحبه كل الحب، وقدمه على صالح الهندي الذي كان شيخ الأطباء في دار الخلافة. ويروى أن جبرائيل ألف رسالة في (التغذية والمشارب)، ووضع ملخصًا في الطب اعتمد في كتابته على ما أخذه من (ديسقوريدس) و(جالينوس)، وترك بعض الوصايا الطبية التي كان لها شأن كبير في علاج المرضى، ورسالة في الروائح.

واشتهر في بغداد طبيب آخر من النسطوريين هو (يحيى بن ماسرجويه)، وقد تولى رياسة مدرسة الطب البغدادية فترة من الزمان، وترجم

---

(٥٠) جورجيس بن يختيشوع: كان طبيبًا نسطوريًا مشهورًا في صدر الدولة العباسية، وعالمًا فاضلًا وله من الكتب كتاب (الكناش) المشهور.

(٥١) عيسى بن صهاريخت: قال ابن المدبر: إنه من أهل جنديسابور، وله من الكتب كتاب الأغذية المفردة.

وألف كتبًا كثيرة في الطب، ومن أطباء النصارى المشهورين (ماسويه)، وكان رجلًا أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، غير أنه كان على درجة كبيرة من الذكاء والفطنة، فقد خالط الأطباء طويلًا وسمع منهم ونقل عنهم بالمشافهة، ثم طالت به المرانة والتجربة حتى صار طبيبًا معروفًا، وكان له ولدان تخرجا عليه في علمه، وهما يحيى ويوحنا، أما يوحنا ابن ماسويه فقد كسب شهرة عظيمة، وأحله الخلفاء منزلة عالية، واعتاد يوحنا أن يعقد بداره مجلسًا طبيًا، يجتمع فيه عدد كبير من الأطباء للمناقشة في الموضوعات الطبية، وكان لما يجري من مشاورات ومناقشات في هذا المجلس أثر في النهوض بصنعة الطب، ويقال إن يوحنا كتب رسالة طويلة أودعها كل تجاربه في تشخيص الأمراض ووصف العلاجات.

واعتمد عليه الرشيد في القيام بترجمة الكتب الطبية التي حصل عليها، وهي من مدونات أبقراط وجالينوس، وكان يوحنا خبيرًا بتعريب الكتب الطبية، بسبب ما اشتهر به من حذق ومهارة في صنعته، وكانت الكتب الطبية المترجمة إلى العربية في عهدهلا تتحدث إلا عن طرق العلاج التي أشار بها بعض الأطباء الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من الحذق والمهارة، وأغفلت الكلام عن القوانين والقواعد الطبية، فلما قام يوحنا بمهمته لاحظ هذا النقص، فنقل كتب الثقات بأمانة ودقة.

ومن الأطباء الذين خدموا الخلافة العباسية (حنين بن إسحق العبادي)، وكان يكنى أبا زيد، وهو من قبيلة العباد من نصارى

الحيرة[٥٢]، وكان طبيبًا فصيحًا فاضلًا عالمًا باللغات العربية واليونانية والسريانية، كما كان مترجمًا دقيقًا. ومنهم قسطا بن لوقا البعلبكي وسلمويه، أما سلمويه فكان متقدمًا في صنعة الطب وخدم المعتصم، ويروى أنه لما مات سلمويه حزن عليه المعتصم فأظهر أسفه الشديد عليه، وقال: "سألحق به؛ لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي". وابن قسطنطين، وكان من أفاضل الأطباء واسمه عيسى ويكنى أبا موسى، وله كتاب (البواسير وعلاجها). ثم عيسى بن علي[٥٣] وكان من تلاميذ حسن بن إسحق، ومن كتبه كتاب (المنافع التي تستفاد من أعضاء الحيوان)، وحبيش بن الحسم الأعسم، وكان نصرانيًا من تلاميذ حنين، ومن المترجمين الذين اشتغلوا بالنقل من السريانية إلى العربية، وكان حنين يعرف قدره في الطب ومن كتبه (كتاب الزيادة في المسائل التي لحنين).

---

(٥٢) الحيرة: مدينة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة شمالًا، وهي على نهر صغير يصب في نهر دجلة، وتعد من أكبر مدن العصور السابقة، وكان من ملوكها المناذرة الذين أقاموا فيها بعد تنصرهم القصور والكنائس الكبيرة والحصون المنيعة، وبقيت عامرة زاهية إلى أن فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢هـ، ولما بنيت الكوفة تحول عمرانها إليها، ومعنى الحيرة في اللغة السريانية (الحصن).

(٥٣) عيسى بن علي: هو الابن الثاني لعلي بن عيسى بن داود بن الجراح، توفي (سنة ٣٩١هـ-١٠٠١م) وكان وزيرًا مشهورًا وتلميذًا وصديقًا ليحيى بن عدي، وتعلم المنطق والحديث ولم يتحدث عنه القفطي إلا قليلًا، ويروى أنه قد عثر بعد وفاة عيسى بقرنين على نسخة من السماع الطبيعي، وهي من شرح يحيى النحوي، وتقع في عشرة مجلدات كبار وعليها حواشٍ لعيسى بن علي (التراث اليوناني للحضارة الإسلامية).

وعيسى بن يحيى[٥٤]؛ وكان ناقلًا مجودًا وطبيبًا ماهرًا، ويلاحظ أن أكثر الأطباء كانوا من النصارى والمسيحيين النسطوريين؛ والسبب في ذلك كما أشرنا من قبل يرجع إلى عدم اهتمام المسلمين أول الأمر بصناعة الطب، غير أنهم لم ينتهوا على ذلك إلا قليلًا من الوقت ثم أخذوا يشتغلون بالطب ودراسة كتبه، فنبغ منهم من فاق جميع أطباء النساطرة. وكان الخليفة المعتصم قد أخذ على عاتقه مساعدة الأطباء، وبخاصة الذين يشتغلون بالجراحة، فأمدهم بأنواع كثيرة من القردة لإجراء تجاربهم وأبحاثهم عليها.

وفي عصر المتوكل على الله برز طبيب عربي من المسلمين هو (علي الطبري)، كان يهوديًا ثم أسلم، وقد ذاع صيته ومن أشهر مؤلفاته (فردوس الحكمة)، ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثمئة وستين بابًا مقسمة على ثلاثين محاضرة، وقد لخصت وشرحت أبواب كثيرة من كتابه، واعتمد عليها أطباء الهنود في صناعتهم وهو أستاذ الرازي، ومن أطباء المسلمين المشهورين (الكندي)[٥٥]، وقد كان الطبيب الإسلامي الأول،

---

(٥٤) (عيسى ابن يحيى): هو أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي، ولد في شمال فارس، وتوفي ولم يتجاوز الأربعين عام (٤٠٠هـ/١٠١٠م) ولكنه بلغ شهرة واسعة، كان حكيمًا بارعًا في الطب، أتقن اللغة العربية الفصيحة أكثر من أي عالم مسيحي آخر، ويقال: إن ابن سينا تتلمذ عليه، وكان له كتاب مشهور في الطب يدعى (المئة في الطب)، ومنه نسخ مخطوطة في مكاتب الشرق والغرب.

(٥٥) الكندي: يقول ابن النديم وابن أبي أصيبعة: هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، فهو من قبيلة كندة عري المنتسب، ولقب بفيلسوف العرب، وكانت كندة أرسخ قدمًا في الحضارة من غيرها من قبائل

برع بصفة خاصة في علم الجرعات، وقد أقامه على أسس حسابية دقيقة، وكان مع ذلك فيلسوفًا عظيمًا، ألف في الطب عشرين كتابًا، وترجم مؤلفه في علم الجرعات إلى اللاتينية، ثم نشر بعد ذلك في استراسبورغ سنة ١٩٣١م.

ولا يفوتنا أن نسجل ملاحظة لها أهمية في البحث، هي أن العرب كانوا يدرسون ويقومون ببحوثهم الطبية على أحدث الطرق العلمية، والذي دفعهم إلى هذا المسلم العلمي أن الإسلام يعتبر الاشتغال بالحكمة من نعم الله السابغة، في حين أن رجال الدين في أوروبا في ذلك الوقت كانوا يجرمون على الناس الاشتغال بالطب ويعتبرون أن المرض عقاب من الله، ولا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، فإذا فعل ذلك كان كافرًا بعقاب الله. وقد ظل الاشتغال بالطب محرمًا على الأوروبيين إلى القرن الثاني عشر، وهو الوقت الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية في الأندلس، وعندئذ فقط بدأت مشاعل قوية تخرج من هذا الفردوس لكي تضيء ربوع القارة الأوروبية.

العرب، ولد في الكوفة في أوائل القرن الثاني الهجري وأوائل التاسع الميلادي، درس علومه بالبصرة ثم بغداد ثم أحب ثقافة الفرس وحكمة اليونان؛ بسبب ذلك برع في الطب والفلسفة والمنطق والألحان والهندسة وطبائع الإنسان والحيوان والفلك، وكان يقوم بعمل الطبيب ورئيس ديوان الخراج في قصر الخلافة أيام المأمون والمعتصم والمتوكل، ثم أقصي في أواخر أيامه لرجوعه إلى مذهب أهل السنة، وكان يقوم بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، كما كان يقوم في الوقت نفسه بتهذيب ما يترجمه غيره، حذا حذو أرسطو في تأليفه، ويقال إنه وضع أكثر من عشرين مؤلفًا في الطب، ويروى أنه وصل إلى حد البراعة في علم الجرعات على أسس حسابية دقيقة وتوفي في بغداد أواخر سنة ٨٦٧م.

ومما يدل على أن صناعة الطب عند العرب في العصر العباسي قد وصلت إلى درجة من القوة والازدهارأنه في عهد أحد الخلفاء تقدم للامتحان النهائي لنيل إجازة الطب تسعمئة طبيب، وقد قام بامتحان هذا العدد الكبير عدد آخر من أساتذة الطب الذين أجيزوا من قبل، ومنحوا الشهادة التي تخول لهم الاشتغال بالطب، ومن الواضح أن هذا العدد الكبير من الأطباء يدل دلالة قاطعة على أن الحياة الاجتماعية قد وصلت إلى درجة عالية، وأن الطب كان يمارس باعتباره حاجة من حاجات تلك الحياة الراقية، وأنه لا يمكن أن يقال إن الخلفاء قد استخدموا هذا العدد الكبير لحاجتهم الخاصة، وإذًا فلا بد أن تكون طبيعة الحياة قد حملت الدولة على التوسع في إعداد الأطباء؛ تلبية لحاجة المجتمع الذي بلغ فيه الوعي الصحي درجة كبيرة.

ومما ينبغي أن يسجل بالفخر للأمة العربية أنه لم يتيسر وجود هذا العدد من الأطباء في أية عاصمة من عواصم الأمم القديمة التي سبقتها في الحضارة، ففي عهد الحضارة الفارسية أو الرومانية لم تبلغ درجة المعرفة بفضل الطب وأثره في الحياة ما بلغته في مدينة بغداد، ويرجع ذلك إلى التفاعل الحميد الذي تم بين العبقرية العربية وسماحة الدين الإسلامي، فالعرب لم يمارسوا الطب لكي يحققوا لأنفسهم كثيرًا من الفوائد المادية، وإنما كانوا يلتمسون الاشتغال به لتحقيق هدفين: الأول هو الحصول على الفائدة العملية لهذه الصناعة بتطبيب المرضى ومعالجة ذوي العلل والأسقام؛ كي تعود إليهم صحتهم، ومن ثم يستطيعون أن يستأنفوا حياة جديدة مع ركب الأصحاء.

والأمم المتحضرة اليوم تعني بإعداد الأطباء وبناء المستشفيات لمحاربة المرض؛ لأن العقول السليمة في الأجسام الصحيحة، وبذلك تستطيع الأمة أن تبني مجدها بسواعد أبنائها الأقوياء. والثاني هو أنهم كانوا يدرسون الطب ويتعمقون في درسه، كما يتعمقون في درس العلوم الأخرى؛ لأن العلم رصيد قوي يعاون الأمم على أن تكون سيدة عزيزة كريمة؛ لذلك لم يقتصر العرب على دراسة طب الأمم القديمة، ولم يقفوا عند معارف اليونان والهنود، بل قاموا بتحقيق معلومات السابقين، ثم أخذوا يضيفون إليها من عندهم الشيء الكثير، وبمثل ذلك ينمو التراث الثقافي للأمم.

وعندما يرجع الباحث إلى الكتب الطبية العربية يجد نفسه أمام موضوعات عظيمة، تتناول الوصفة الهندية أو اليونانية أو الفارسية ثم العربية، وقد تجلت فيها دقة الوصف العلمي. ولما استيقظ الأوروبيون في ضوء ما كان يشع من نور باهر من أضواء الحضارة العربية الإسلامية، وجدوا أمامهم الموسوعات العربية ينهلون منها العلم، ويستمدون المعرفة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور، كذلك وجدوا أنفسهم عاجزين كل العجز عن إنكار هذه الكتب وتجاهلها؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يبنوا حياتهم العلمية على أساس غيرها، بالرغم من شدة ولعهم بإنكارها، ولم يجرؤوا في هذه الفترة على أن يزعموا لأنفسهم شيئًا من المجد العلمي، فقد كانوا لا يزالون مشدوهين أمام الفكر العربي الجبار.

ولقد بينا من قبل موقف بعض علماء أوروبا من الحضارة العربية

الإسلامية، ذلك الموقف المشين الذي يوصف بالتعصب الذميم، ومع ذلك فلم يغنهم هذا التعصب شيئًا، واضطروا كارهين إلى أن يتتلمذوا قرونًا على المراجع والموسوعات العربية، وقد هالهم ما كانت علي من الضخامة وغزارة المعارف الدقيقة وما تناولته من أسباب البحث العلمي الحديث. واستمر الأوروبيون زمانًا بعد اطلاعهم على المراجع العربية لا يحاولون وضع مؤلف طبي.

ذلك لأن أساليب البحث لم تكن قد تكاملت أسبابها لهم، واستمر حالهم كذلك إلى فترة طويلة من عصر النهضة، ومما يدعو إلى الأسف أن بعض الأوروبيين الذين كانوا يزاولون صناعة الطب في عصر النهضة اتهموا علماء العرب بأنهم كانوا يطلبون العلم الطبي لمجرد الربح المادي، ولما ترجمت الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية بدأ الأوربيون يستغلون علم الطب ويتخذونه وسيلة للربح وجر المغانم، وقد نسوا أن يتهموا أنفسهم، كما اتهموا به العرب من قبل. وفي هذا دليل قاطع على سوء القصد وعدم الإنصاف وإشباع شهوة الحقد.

وإنه ليثير عجبك أن ترى علماء العرب في الوقت الذي يبدو فيه الأوروبيون حاقدين غير منصفينلا يغفلون فضل جالينوس وأبقراط وغيرهما من أطباء اليونان، فهم حينما نقلوا آراءهم لم يزعموا أنها لهم؛ إذ كانوا يضيفونها إليهم معجبين بها، فإذا علقوا عليها أو أخترعوا جديدًا أو صححوا خطأ نسبوا ذلك إلى أنفسهم. ومن يرجع إلى كتاب مثل كتاب الحاوي للرازي مثلًا يستطيع أن يخرج بفكرة واضحة عن الأمانة

العلمية التي تميز بها علماء العرب، وفاقوا فيها غيرهم، فالرازي لا ينسى أبدًا أن يقول: "وقال جالينوس"، "وقال ديسقوريدس"([٥٦])، ثم يعقب على ذلك برأيه.

وإن الإنصاف ليحملنا على القول في غير تعصب بأن العرب جمعوا حقًا بين دقة البحث وعمقه والقدرة على الابتكار والاختراع والأمانة العلمية، وتلك صفات قلما تهيأت للعلماء من غير العرب في تاريخ العلم، فالمراجع العربية تعترف بفضل اليونان والهنود وغيرهم، في حين أن المؤلفات الأوروبية أثناء عصر النهضة وبعده خالية من الإشارة إلى فضل العرب، الذين أمدوا المعرفة الإنسانية بما أخصبها، وزادها نماء وقوة وازدهارًا.

---

(٥٦) ديسقوريدس: يقول ابن النديم هو (ديسقوريدس العين زربي)، ويقال له السايح في البلاد، ويطريه (يحيى النحوي) ويمدحه في كتابه في التاريخ فيقول: تفديه الأنفس صاحب النفس الذكية، النافع للناس المنفعة الجليلة، المتعوب المنصوب السايح في البلاد، المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والجزائر والبحار، والمصور لها المعدد لمنافعها، وله من الكتب الحشائش ويقع في خمس مقالات، وأضاف إليها مقالتين في الدواب والسموم، ونقل من كتبه إلى العربية كتاب في العقاقير أيام المتوكل العباسي.

التراث العربي الطبي

بدأ العرب يشتغلون بالعلوم الطبية في وقت احتدم فيه الصراع الفكري بين نظريات طبية قديمة وأخرى جديدة، تريد أن تهدم النظام الطبي الذي ألفه الناس منذ أقدم العصور، وتعزي النظريات القديمة إلى الطبيب اليوناني (جالينوس) الذي كان يزعم أن الأمزجة أربعة وهي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، فمن أصيب بسبب الحرارة فعلاجه يكون بالبرودة، ومن أصيب بسبب الرطوبة فعلاجه يكون باليبوسة، كما تعزى إلى (أبقراط) الذي يقول: إن الأخلاط أربعة: دم وبلغم وسوجاء وصفراء، ويحدث المرض بسبب اختلاف النسبة بين هذه الأخلاط، فإذا أريد الشفا للمريض لزم العمل على إعادة هذه النسبة إلى الوضع الذي كانت عليه في حال تمام الصحة.

وحينما أخذت مدرسة الإسكندرية الطبية تحتل مكانها بدأت تهاجم النظريات الطبية القديمة، وقد أفاد العرب من هذه التيارات المتصارعة، واختاروا لأنفسهم مذهبًا جديدًا في التطبيب يقوم على أساس الملاحظة والتجربة، وتتبع حال المريض وقياس حاله بحال غيره من المرضى، وهم وإن نقلوا عن أبقراط وجالينوس إلا أنهم لم يعولوا على آرائهما تمامًا؛ إذ خالفوا هذه الآراء في كثير من الحالات. ويؤيد الطب الحديث في عصرنا مبدأ العلاج بالعوض، ومعنى ذلك أنه يمكن نقل بعض الأعضاء السليمة من أجسام ماتت حديثًا لكي تحل محل أعضاء

من نوعها قد تلفت في جسم لا يزال حيًا، وهو ما يسمى الترقيع الطبي.

وقد عرف العرب هذا النوع من العلاج الطبي قبل الطب الحديث بقرون، ومارسوه ممارسة عملية بعد أن قاموا بدراسات دقيقة لخصائص أعضاء الحيوان. ويروي الدميري[٥٧] في كتابه (حياة الحيوان) أن العرب كانوا يعالجون مرضى الصدر برئة الثعلب؛ لأنهم وجدوا بالتجربة أن رئة الثعلب من أقوى الرئات، فالثعلب إذا جرى لا يلهث أبدًا، وهذا دليل على قوة رئته.

ويمكن أن يفهم من هذا أن العرب وصلوا في طبهم الجراحي إلى درجة الترقيع في جسم الإنسان، أما الفحص الطبي عند العرب فلم يختلف في أسلوبه عما هو متبع الآن، فقد كان الطبيب العربي يعني بفحص البول ويقيس النبض، ويسأل المريض عما يشكو منه، وعن طريقة معيشته وعاداته، والأمراض التي أصيب بها من قبل، وعن حالته الصحية ومناخ بلاده، وغير ذلك من الأسئلة التي تساعد الطبيب على تشخيص المرض، والتي لا يمكن أن يسأل خيرًا منها أطباء هذا العصر.

كذلك مهر أطباء العرب في ملاحظة لون الجلد وملتحمات العين وحالة الجلد عند اللمس، هل هو ساخن أو بارد؟ وهل هو ناعم أو

---

[٥٧] الدميري: هو كمال الدين محمد بن عيسى المصري صاحب كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، ذكر فيه أسماء الحيوان مرتبة على الأبجدية، وقد توسع في وصف كل حيوان بذكر خصائصه وما جاء بشأنه من حديث وأمثال وأشعار، كما ترجم فيه لبعض المشهورين الذين تعرض لذكرهم من شعراء وخلفاء، وقد طبع الكتاب عدة مرات وهو في مجلدين. والدميري نسبة إلى دميرة قرية بمصر، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ.

خشن؟ وفضلًا عن براعتهم في تشخيص الأمراض، فقد استطاعوا بحذقهم أن يصفوا الأمراض المعدية وصفًا دقيقًا، وتوصل ابن سينا إلى التفرقة بين بعض الأمراض، وأما ابن زهر الأندلسي فكان أول من وصف خراج الحيزوم والتهاب التامور الناشف والانسكابي.

وأطباء العرب هم أول من استخدم المرقد (المخدر) للاستعانة به في إجراء العمليات الجراحية، وهم الذين عرفوا أثر الكاويات في الجراحة، وكانوا أول من تنبه إلى ما للون الأظافر من دلالة على أمراض السل، كما توصلوا إلى معرفة أمراض اليرقان والهواء الأصفر، ووصفوها وصفًا دقيقًا ينتفع به الطبيب في تشخيصها، واهتموا بعلاج الجنون فكانوا يصفون له الأفيون بكميات كبيرة، ومما يدل على عنايتهم بعلاج الأمراض العقلية والعصبية أنهم خصصوا لها أجنحة خاصة في المستشفيات، وأنهم فضلًا عن استخدام الأفيون كدواء في بعض الحالات، فإنهم في الوقت نفسه كانوا يسلكون طرقًا إنسانية مبتكرة، تقوم على الإلمام بعلوم النفس وإدراك أثر الوهم في هذا النوع من المرضى. وعرفوا السل الرئوي وأشاروا إلى أن الأمراض تنقل بالماء والتراب، فأكدوا بذلك انتقال العدوى، في حين أن الأوروبيين المعاصرين لهم كانوا ينكرون ذلك.

وجاء في كتاب أطباء العرب للدكتور خير الله، أن العرب وان كانوا يجهلون وجود جراثيم الأمراض، إلا أنهم كانوا يثبتون وجود العدوى بطرق منطقية لا شك فيها، وأن ابن الخطيب الطبيب الفيلسوف

الأندلسي كان يجزم بوجود العدوى. وعرف أطباء العرب مرض البواسير وقالوا إنه ناشئ من قبض المعدة، وإن المأكولات النباتية يمكن أن تكون علاجًا شافيًا. والعرب هم من كشفوا مرض (الإنكلستوما)، ويؤيد ذلك المرحوم الدكتور محمد خليل عبد الخالق في مقال نفيس نشره قبل وفاته. وقد جاء فيه: "وأود أن ألفت النظر إلى أن ابن سينا أول من كشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة بالإنكلستوما، وكذلك المرض الناشئ عنها المسمى بالرهقان أو الإنكلستوما، وقد كان هذا الكشف في كتابه القانون في الطب في الفصل الخاص بالديدان المعوية، ويقول:

"وقد سمى ابن سينا هذه الطفيلية الدودة المستديرة، وقد كان لي الشرف في سنة ١٩٢١ م أن قمت بفحص ما جاء في كتاب القانون في الطب، وأمكنني أن أقوم بتشخيصها بدقة، وتبين من هذا أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي التي نسميها الإنكلستوما، وقد أعاد (دوبيني) اكتشافها في إيطاليا سنة ١٨٣٨م، أي بعد كشف ابن سينا لها بتسعمئة سنة تقريبًا، وقد أخذ جميع المؤلفين في علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الحديثة وكذلك مؤسسة (روكفلر)؛ ولذلك كتبت هذا ليطلع عليه الناس ولكي يضيفوا إلى اكتشافات ابن سينا العدة هذا الكشف العظيم لمرض هو أكثر الأمراض انتشارًا في العالم الآن".

والمرحوم الدكتور خليل عبد الخالق حجة في الطب، وبحوثه لها صفة عالمية، والدليل على ذلك أن المؤسسات الطبية المشهورة تعتمد

عليه وتأخذ بجميع آرائه، وعرف العرب مرض الفيل وكيف ينتشر في الجسم، وهم أول من وصف الجمرة الخبيثة، وكانوا يسمونها النار الفارسية، وكان الرازي أول طبيب عربي قال بالعدوى الوراثية، وأما أستاذه الطبري فكان أول من اهتدى إلى كشف الحشرة الخبيثة التي تسبب الجرب. وأدرك أطباء العرب خطر الأمراض الوبائية، ففكروا في عمل أدوية خاصة لوقاية السكان من آثارها المدمرة.

ويروى أن ابن التميمي الطبيب العربي فقد توصل إلى عمل معاجين خاصة دفعًا للأوبئة، وسبق العرب الإفرنج إلى وصف أمراض الجذم والحصبة والجدري وبيان أسبابها، وأعراضها وقاموا بمحاولات ناجحة في التحليل النفسي تقرب كثيرًا من مذهب (فرويد) في الطب النفسي. وكان ابن سينا وجبرائيل بن بختيشوع(٥٨)، من الذين استخدموا التحليل النفسي في علاج بعض الحالات، ويعد ابن النفيس الدمشقي أول طبيب في تاريخ الطب وصف الدورة الدموية الرئوية، وأثبت أن الدم ينقى في الرئة.

ومما يسجل للعرب بالفخر أنهم لم يهملوا طب العيون، فقد كانت لهم اكتشافات عظيمة الشأن في هذا الميدان، ويبدو أن انتشار هذه الأمراض في بعض البلاد العربية كمصر والشام والعراقكان سببًا في

(٥٨) جبرائيل بن بختيشوع: هو عبيد الله جبرائيل بن جورجيس بن بختيشوع من أسرة بختيشوع المشهور بالطب، التي ظلت ثلاثة قرون ذات مكانة كبرى عند الخلفاء، فكان من أفرادها الأطباء والوزراء والأطباء المحترفون، وأطباء البيمارستانات ومعلمو الطب والفلسفة، وقد جمع جبرائيل عدة مقتبسات من الأطباء القدماء في كتاب بعنوان (نوادر المسائل)، ونشر له حديثًا كتاب الروضة الطبية، ونشره الأب (بول سباط) بالقاهرة سنة ١٩٢٧م.

اهتمام أطباء العرب بأمراض العيون، وقد وصلوا إلى أنواع من العلاج استمر العمل بها إلى القرن السابع عشر.

ثم شرحوا عيون الحيوانات شرحًا فسيولوجيًا، وعرفوا السبب في حركة مقلة العين، وقالوا إن حركة مقلة العين ناشئة عن انقباض وانبساط القزحية. واهتم ابن سينا بتشريح العين في كتاب القانون، فتحدث عن عضلات العين ووظائفها وأما ابن ماسويه فقد تحدث عن أمراض العيون حديثًا طبيًا دقيقًا، وألف حنين بن إسحق كتابًا يدعى (المقالات العشر في العين)، وترجمه (مايرهوف) إلى الإنجليزية. ومن أطباء العرب الذين نالوا شهرة واسعة في أمراض العيون (علي بن عيسى)، فقد وضع رسالة هامة في تشريح العين، وبيان أمراضها الظاهرة، والباطنة فكانت رسالته هذه مرجعًا عظيمًا في هذه الناحية، وكان العرب يعللون عنايتهم بأهمية العينينبأن الله تعالى جعلهما في الدماغ الذي هو أعلى جزء في جسم الإنسان؛ ليسهل الإشراف بهما على كل شيء، وكان ابن الهيثم[٥٩] ممن عنوا بوصف العين وبيان طبيعة النظر، والعلاقة بين العين وقضايا البصريات.

---

(٥٩) ابن الهيثم: هو أبو علي بن الحسن بن الهيثم، ويعرف في مصنفات الغربيين في العصور الوسطى باسم الهازن **Alhazen**، وقد التبس الأمر على من نقل عن كتاب الإفرنج، فقد ظنوا أن المراد بالهازن الخازن وشتان ما بينهما، فالخازن في المراجع العربية هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني، المعروف بالخازن، وهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي. نشأ في مرو أشهر مدن خراسان واشتهر ببحوثه في الطبيعة والميكانيكا، وإذن فهو غير ابن الهيثم عالم البصريات ومؤسس علم الضوء، الذي كان قوي الذكاء متفننًا في العلوم، بحيث لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولد بالبصرة حوالي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م.

ويروى أن صلاح بن يوسف الكحال كان أشهر من علي بن عيسى في طب العيون وأكثر مهارة منه، وقد وضع كتابًا في أمراض العيون وأسبابها وأدويتها، وكيف تحفظ العين، وهو من أعظم المراجع، وبرع أطباء العيون في عملية قدح الماء الأزرق الذي يرى فوق العين، ويجد أطباؤنا في العصر الحديث صعوبة في إجرائها، في حين كان العرب قبل ذلك يجرونها بسهولة وفي نجاح تام.

كذلك برع أطباء العرب في فنون الجراحة ونجحوا فيها نجاحًا منقطع النظير؛ فقد كان علي بن عباس المجوسي[٦٠] أول من وصل إلى عملية الشق العجاني على الحصاة، وكان الزهراوي الطبيب الأندلسي أول من استخدم في الجراحة الأدوات والآلات الطبية. ونقل (جوستاف لوبون) عن العالم الطبيعي الكبير (هاللر) أن كتب الزهراوي كانت مرجع الجراحين جميعًا إلى القرن السابع عشر الميلادي، ومن مؤلفاته كتاب الآلات الجراحية التي تستخدم في العمليات على اختلافها، وقد أوضحها بالأشكال مبينًا طريقة استخدامها.

---

(٦٠) علي بن عيسى المجوسي: طبيب اشتهر فيما بين ٩٧٠/٩٨٠م وكان ينصح طلاب الطب بالملاحظة ودراسة الأمراض دراسة مبنية على الخبرة الشخصية، فيقول: ومن بين الأمور المحتمة على طالب الطب أنه ينبغي له على الدوام أن يزور (البيمارستانات) ودور العلاج، وأن يوجه انتباهًا لا يفتر إلى أحوال من فيها وظروفهم، وهو في صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء، وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم، ذاكرًا ما قرأه عن تلك التغيرات، ومما تدل عيه من خير أو شر، فإن هو فعل ذلك بلغ مرتبة عالية في هذه الصناعة (حضارة الإسلام جوستاف جرونيباوم).

واستخدام العرب في الجراحة المخدرات كالحشيش والأفيون والزوان وست الحسن (هيوسيامين)، واخترعوا الإسفنجة المخدرة واستعانوا بالخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوان على تخييط الجروح، ويقول الأستاذ حافظ طوقان في كتابه (العلوم عند العرب): "وكانت الجراحة نفسها محتقرة في أوروبا، والجراحون منظور إليهم كأنجاس، وكانت الجراحة عندهم بأيدي الحلاقين والجزارين، وكانت المدارس الطبية الأوروبية تتحاشى تعليم الجراحة من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر؛لأنهم كانوا يعتقدون أنها لا تليقبالأطباء المحترمين، وأنه لا يجوز لهم أن يغيروا ما خلقه الله، ففي سنة ١٦١٣م أصدر مجلس (تورس البابوي) قرارًا يفرض على المدارس الطبية إهمال تعليم الجراحة"، كان كل ذلك يجري في أوروبا في حين أن أطباء العرب يشيدون للطب مقامًا رفيعًا، ويعدون الجراحة قسمًا منفردًا ومحترمًا من الطب.

فالعرب كانوا يحترمون الجراحة الطبية بوصفها قسمًا من الطب قائمًا بذاته، فقد فهمواروح الإسلام فهمًا دقيقًا، وأدركوا أن دينهم يأمر بالمحافظة على النفس، ومن غير شك أن علاج البدن بالجراحة أو بالأدوية مما يؤدي إلى سلامة الجسم والنفس معًا، وعرف العرب بطريق التجربة أن الجراحة في بعض الحالات أجدى وسيلة في جسم الداء؛ لذلك اهتموا بالطب الجراحي في الوقت الذي كان الأوروبيون ينظرون إليه بوصفه شيئًا حقيرًا لا ينبغي أن يمارسه الأطباء المحترمون. وكانت الكنيسة في الوقت نفسه تحرم عليهم الالتجاء إلى مزاولة الجراحة في تطبيب الإنسان؛ لأن في هذا العمل تغييرًا

لما خلقه الله وهذا الفهم دليل على مقدار العقلية التي كان يتميز بها الأوروبيون في هذه العصور وعلى ما كانوا عليه من جهل مطبق وعجز تام عن تفسير التعاليم الدينية تفسيرًا صحيحًا.

ونسي هؤلاء الذين زيفوا تاريخ الحضارة، وأنكروا كثيرًا من فضل العرب على التراث الإنساني، نسي هؤلاء أن العرب في العصور الوسطى كانوا أنضج الأمم عقولًا، وأنهم فهموا بدقة موقف الدين من العلم، فأدركوا بعقولهم الناضجة أن الدين والعلم يبحثان معًا عن الحقيقة، وأن لكل منهما وسائله الخاصة، فهما مختلفان في الوسائل ولكنهما متفقان على الغايات، وفي ضوء هذا الفهم المستنير قام العرب والمسلمون بدورهم كاملًا في خدمة الحضارة الإنسانية، ومهدوا الطريق بما أدوه للعلوم وبخاصة العلوم الطبية، إلى هذا التقدم العلمي الباهر الذي يجني العالم كله ثمراته الطبية اليوم.

ومن الحكايات الطريفة التي يرويها الجاحظ[٦١]في الجزء الثاني من

---

(٦١) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري، أديب العلماء وعالم الأدباء، المعتزلي الفيلسوف، سمي الجاحظ لأنه كان مشوه الخلق جاحظ العينين، ولد على التقريب في سنة ١٥٩هـ في مدينة البصرة، وعاش في أخصب أيام العباسيين علمًا وأدبًا وفلسفة وحضارة، شاهد كثيرًا من الأحداث في عصره وانفعل بها، فكان لذلك أثر في اتجاه حياته العقلية، وكان واسع الاطلاع على لغة العرب كما درس المؤلفات اليونانية، وتأثر بأستاذه النظام، وخالط الناس على اختلاف طبقاتهم، وقاسى الفقر حينًا كما تمتع بالغنى والجاه والثروة حينًا، والجاحظ صاحب مذهب علمي وطريقة في البحث، وله موقف مشهور من الشعوبية دل على عروبته الأصلية، فقد تصدى ببيانه القوي لهذه الفرقة دفاعًا عن العرب، ويعد الجاحظ مؤسس فن البيان، وله كتابان مشهوران البيان والتبيين والحيوان، وعدة رسائل منها رسالة البخلاء.

كتاب الحيوان، وهو يتحدث عن أيام طفولته حينما كان صبيًا يتعلم في الكتاب مع أخلاط من الصبيان من أبناء القصابين وغيرهم، يقول: "وأنا حفظك الله رأيت كلبًا مرة في الحي ونحن في الكتاب، فعرض له صبي يسمى (مهديًا) من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنييه دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقيًا على وجهه وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحة، وخرج منه الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتًا قائمًا لا ينبس، وأمسكه الفزع، وبقي خائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر، وقد عاد إلى الكتاب وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط".

ونسوق هذه القصة وقد سجلها أعظم كتاب العربية للدلالة على أن الطب الجراحي عند العرب قد بلغ من الدقة والمهارة والحذق درجة عالية، فهذا الصبي الذي شق الكلب وجهه شقًا كبيرًا، والذي نزل منه مقدار كبير من الدمقد أسعف وعملت له عملية جراحية، وبعد شهر واحد رجع إلى الكتاب سليمًا في وجهه من أثر إلا مكان الخياطة.

ولا سبيل إلى الشك في هذه القصة الشائقة، فراويها الجاحظ الذي هو معلم العقل والأدب، والذي لا يمكن أن يرقى الشك إلى ملاحظاته الدقيقة. كذلك كانت العرب ذات عناية واختصاص في نوع من الطب يدعى (الطب النبوي)، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنهم كانوا ينسبونه إلى الرسول (صلوات الله عليه)، ومن يرجع إلى أحاديث الرسول

(صلى الله عليه وسلم)، يجد أن بعض أحاديثه الشريفة ترسم دستورًا طبيًا عظيم الشأن في باب العلاج الطبي والمحافظة على سلامة صحة المسلم، فالرسول يقول: "صوموا تصحوا"، ويقول: "المعدة بيت الداء، والحمية رأي الدواء"، ويقول: "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كانلا محالةفاعلًا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه". ويقول (صلى الله عليه وسلم): "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، واذا أكلنا لا نشبع"فاتخذ أطباء المسلمين هذه الأحاديث دستورًا للمعالجة يعتمد على التجربة، ثم ما للإيمان من أثر قوي في صحة المريض، وقد ثبت أن المريض إذا وثق بطبيبه، وبالدواء الذي يصفه له كان ذلك من أقوى أسباب الشفاء.

وأبدى العرب اهتمامًا شديدًا بإنشاء المستشفيات وكانوا يسمونها (البيمارستانات)[٦٢]، وقد بدؤوا ينتبهون إلى أهميتها الطبية منذ العصر الأموي، بيد أنهم لم يقيموها على أسس طبية صحيحة إلا في العصر العباسي، فشيد عدد كبير منها في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من العواصم الإسلامية والمدن الكبرى. وكانوا يبالغون في عنايتهم باختيار المكان الصحي الملائم الذي يصلح لإقامة مستشفى عليه، وكانت لهم سياسة طبية مرسومة يتبعونها في إنشائها، فهناك المستشفيات التي أعدت لجميع الأمراض، والتي أعدت لأمراض معينة، فمثلًا أنشؤوا المستشفيات

---

(٦٢) (البيمارستانات): جمع بيمارستان، وجاء في كتاب شفاء الغليل للشهاب الخفاجي أن بيمارستان لفظة فارسية استعملها العرب، ومعناها مجمع المرضى؛ لأن (بيمار) معناه المريض (ستان) وهو الموضع، وأول من صنعه بقراط وسماه (أخشندوكين).

للأمراض العقلية وأخرى لأمراض الجذام والعيون، ومستشفيات للسجون وأخرى للجيش، والمستشفيات الثابتة والمتنقلة.

واهتداء العرب إلى فكرة إنشاء المستشفيات المتنقلة يدل كما أشرنا من قبل إلى تقدم الوعي الطبي، وأن الحياة الاجتماعية والصحية قد وصلت إلى درجة جعلت المسؤولين يقومون بتقديم الخدمات الطبية إلى الناس في جميع القرى والمدن، ويقول الدكتور أحمد عيسى في كتابه (تاريخ البيمارستانات في الإسلام): إن العرب أول من أنشأ (البيمارستان) المحمول، وهو مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربه وملابس وأطباء وصيادلة، وكل ما يعين على ترفيه الحال على المرضى والعجزة والمزمنين والمسجونين، ينقل من بلد إلى آخر من البلدان الخالية من (بيمارستانات) ثابتة، والتي يظهر فيها وباء أو مرض معد. وقد بينا من قبل أن وجود هذا النوع من المستشفيات برهان ساطع على تقدم الفكر الطبي عند العرب.

ومما يدعو إلى العجب أن النظم التي تتبع داخل المستشفى كانت تسير على نمط، يعد من أحدث الطرق من حيث العناية بصحة المرضى وغذائهم، وتتبع أحوالهم ومراقبة تطورات أمراضهم، وأثر العلاج الذي يقدم إليهم، وكانت المستشفيات على نوعين: مستشفيات للرجال ومستشفيات للنساء. وقد بلغت العناية بتنظيمها إلى درجة أنهم قسموا كل مستشفى أقسامًا، وجعلوا كل قسم يشتمل على قاعات وغرف، منها ما هو خاص بالأمراض الداخلية، ومنها ما هو خاص بأمراض العيون أو الجراحة، أو الكسورأو التجبير، كذلك كانت أقسام الأمراض الداخلية

تشتمل على غرف بعضها للحميات، أو حوادث الإسهال، مما يعطينا فكرة واضحة عن وجود نظام طبي دقيق، لإدارة المستشفيات العربية الإسلامية وتنظيمها، وتوفير الخدمات الطبية بها على أحسن وجه.

كان هذا حال المستشفيات العربية الإسلامية في العصور الوسطى، فإذا نظرنا إلى حال الأوروبيين في ذلك الوقت وجدناهم يؤمنون بأن المرض نقمة وعذاب من الله؛ لذلك كانوا لا يرحمون المريض ويعدون الإشفاق عليه أمرًا مخالفًا لتعاليم الدين، وفي هذا المجتمع الذي تسيطر فيه هذه الأفكار على الناس في معاملتهم، عاش المرضى يقاسون أهوال المرض، وتنكر أهلوهم وذووهم لهم، مما جعلهم يستعذبون الموت تخلصًا من هذه الأهوال وتلك الآلام، بل إن الأمر قد يصل أحيانًا إلى ما هو أشد وأنكى من ذلك، فالمصابون بالجذام يحرقون، ويوقع العقاب الشديد على المجانين، وحينما بدؤوا يتحررون من هذه الأفكار والأعمال وأقاموا بعض المستشفيات كانت بيئة مخصبة للجراثيم، وعشًا للأمراض الخبيثة.

يقول الدكتور (ماكس نوردو): "إن مستشفيات أوروبا في العصور الوسطى كانت مثالًا للفوضى والقذارة"، ويمكننا في ضوء هذا أن نتبين الفرق الهائل بين ما كان عليه العرب المسلمون والأوروبيون، فقد كان العرب يتزعمون العالم في العلوم الطبية وغيرها من مقومات الحضارة، وكانت كلمة (عربي) تحتل في الأذهان المكانة التي كانت تحتلها كلمة (غربي) أو أوروبي في هذا العصر، لقد كانت كلمة عربي تقرع أذن كل أوروبي في هذه العصور قرعًا شديدًا.

ويتصل بالطب اتصالًا قويًا في إعداد الأدوية (الأقرباذين)، إذ كان أطباء العرب يمارسون صناعة الطب وإعداد الأدوية في وقت واحد، . كذلك كان الرازي وابن سينا، فكانا يصفان المرض ويشخصانه، ثم يعدان الدواء للمريض، غير أن ذلك لم يمنع وجود صيادلة مختصين، وكانت هناك عناية خاصة بإعدادهم والإشراف عليهم، ومنحهم الإجازات الطبية التي تسمح لهم بممارسة صناعة الصيدلة.

واهتم العرب بجلب العقاقير الطبية من كل ناحية، وبخاصة بلاد الهند، وكما كانت هناك مدارس خاصة للطب كانت هناك أيضًا مدارس خاصة لتعليم الصيدلة، وكان تقدم العرب في فن إعداد الأدوية دليلًا قويًا على نبوغهم في علوم الكيمياء والنبات؛ لذلك عرف العرب في العصور الوسطى بالبراعة في صنع الأدوية وتجهيزها، فلم تقف مهارة العرب في هذه الناحية عند معرفة المواد التي تدخل في تركيب الأدوية، فقد مهروا في الوقت نفسه في معرفة النسب والمقادير التي تؤخذ من كل عنصر، ومما يروى أن طبيبًا حرانيًا هاجر من الشرق إلى بلاد الأندلس، وكان قد جهز معجونًا مركبًا من عدة عناصر لعلاج أمراض الجوف، وكان يبيع الشربة منه بخمسين دينار، وأقبل عليه المرضى حتى عظم ربحه، فدفعت الغيرة بعض زملائه إلى مطالبته بإشراكهم معه، فأبى الطبيب الحراني، فاشترى هؤلاء الأطباءشربة منه وقسموها خمسة أقسام، ثم أخذوا يتذوقونها، وادعوا آخر الأمر أنهم عرفوا سر تركيب هذه الشربة، وعرضوا على الطبيب الحراني أن يشركهم، وإلا قاموا وحدهم بصنع الشربة

وبيعها، وبذلك يفسدون عليه تجارته، فلما تأمل النتائج التي وصلوا إليها على حسب ظنهم قال لهم: لقد أصبتم في معرفة المواد ولكنكم أخطأتم في معرفة النسب والمقادير، غير أنه لم يلبث أن أشركهم معه حرصًا على علاقته بهم.

وتترجم هذه الرواية عن أن أطباء العرب كانوا يدركون قيمة النسب والمقادير في تركيب الأدوية، بما لا يخرج كثيرًا عما هو معروف اليوم في الصيدلة الحديثة. وكانوا يعنون أشد العناية بالغذاء بوصفه عاملًا مهمًا في العلاج؛ ولذلك كانت القاعدة الطبية عندهم الاعتماد على الغذاء كأسلوب من أساليب العلاج، ثم على الأدوية المفردة ثانيًا، ثم على الأدوية المركبة ثالثًا، وكانوا لا يستخدمون الأدوية المركبة إلا عندما تشتد الحاجة إليها، ولم ينسوا أن يكون استعمالها في حذر ومهارة.

ويقال إن الوزير أبا المطرف عبد الرحمن بن محمد بن وافد الأندلسي (٣٨٠هـ-٤٦٠هـ)، وكان ممن برعوا في الطب وله فيه مذهب سليم= لا يوافق على التداوي بالأدوية إذا كان في الإمكان التداوي بالأغذية وما هو قريب منها، وإذا دعت الضرورة إلى الأدويةفكان لا يرى التداوي بالمركب، إذا كان في الاستطاعة التداوي بالدواء المفرد. وحين لا يجد مفرًا من استعمال الدواء المركب، فقد كان لا يكثر التركيب. ومما لا شك فيه أن العرب كانوا يعلمون أن هناك سرًا خطيرًا في تركيب الأدوية، وأنه كلما قلت العناصر التي تدخل في تركيب الدواء كان ذلك أكثر إفادة للصحة وجلبًا للشفاء، وأن الإكثار من العناصر قد تكون له

عواقب وخيمة، ويوافق الطب الحديث على النظرية العربية، ويؤيد سلامتها من وجهة النظر الطبية، أما الأوروبيون في العصور الوسطى فقد كانوا يؤمنون بأن أثر الدواء يتضاعف إذا كثرت العناصر الداخلة في تركيب الدواء، وقد أثبت ابن رشد[٦٣]فساد النظرية الأوروبية في القرن الثاني عشر، مما يؤكد أن العرب كانوا يتبعون في التطبيب وإعداد الأدوية نظريات علمية صحيحة.

لقد كان العرب –ونحن نسجل هذه اللمحة من تاريخ الطب العربي–يسلكون أصح المذاهب الطبية، ويلتزمون المناهج السليمة في العلاج، وكان ابن سينا وغيره من أطباء المسلمين يعالجون المرضى بالحقن واستعمال المخدرات أثناء العمليات الجراحية، ويعالجون الصرع والجنون والسل وأمراض العيون بطرق علمية دقيقة، في الوقت الذي كان ينظر فيه الأوروبيون إلى المحموم والمصروع والذي به بثور خبيثة على أنه شيطان من الشياطين، فيوسعونه ضربًا ولكمًا؛ كي يخرج الشيطان من جسمه، فإذا لم يشف المسكين من مرضه اعتقدوا أن شيطانه من أخبث

---

(٦٣) ابن رشد، وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في مدينة قرطبة سنة (٥٣٠هـ/١١٢٦م) ويسميه الإفرنج (**Averroes**)، وتوفي في مراكش سنة ١١٩٨م، ويقول بيكون: ابن رشد فيلسوف متين متعمق صحح كثيرًا من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لا يستغنى عنها بسواها، ويقال إن ابن طفيل قدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف المنصور، فسأله الأمير ما رأي الفلاسفة في السماء؟ أقديمة هي أم حديثة؟ فتظاهر بأنه لا يحسن الفلسفة خوفًا على نفسه، ولما أفاض الأمير في شرح آراء أرسطو وأفلاطون ذهب عنه الروع، وتكلم في غير تهيب، ولما صار أبو يعقوب خليفة للموحدين اتخذه طبيبًا خاصًا له.

الشياطين، وهنالك يقررون أنه لا بد من عقابه عقابًا شديدًا، وليس هذا العقاب إلا الحرق، ولكي يحرقوا هذا الشيطان الخبيث كانوا يحرقون معه المريض السيء الحظ.

ذلك تصوير دقيق للعقلية الأوروبية قبل عصر النهضة، ومن الأسف أنهم يتشدقون اليوم بأنهم الذين صنعوا هذه المدنية الحديثة، ونسوا أنهم كانوا يحرقون المرضى تخلصًا من الشياطين التي تحل في أجسامهم، وقد تجاهلوا متعمدين أن العرب حقًا هم الذين مهدوا الطريق لقيام هذه المدنية الحديثة، وإن كانوا لم يصنعوها بالذات، فقد وضعوا الأصول التي ابتدأ منها خط سير هذه المدنية. فعلوم العرب ونظرياتهم وأفكارهم كانت القبس الذي انبعث منه هذه الأضواء الساطعة، التي تتمثل اليوم في أحدث ما وصل إليه العالم من ابتكارات، ولعل هذا السر الذي أخفاه الأوروبيون متعمدينهو الذي يدفعهم اليوم إلى مقاومة تيار القومية العربية، وهو ذلك التيار الذي عرفوا أثره القوي في البناء والتوجيه فيما قبل، وأغفلوه في تعصب وحقد وكراهية، ولا يستطيع أن يماري في ذلك إلا هؤلاء الذين لم يطلعوا على ماضي العرب المجيد.

وقد فتنتهم الحضارة الراهنة فتونًا، أما الشباب العربي في كل مكان فمن واجبه أن يتبين هذه الحقائق، وأن يحس أشد الاحساس أنه سليل أولئك العرب الغطاريف الذين أسسوا دعائم الحلقة الوسطى بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة. وقد قامت هذه الحلقة الوسطى على أسس من التهذيب والابتكار والإضافة، مما ساعد التراث الإنساني

المجيد على السير إلى الأمام. وإذن فيجب ألا تنسى أيها الشاب العربي أنه لولا الثقافة العربية الإسلامية لما وصلت حضارة العصر الحديث إلى ما وصلت إليه الآن. ولكي تبدو الحقائق أمامك واضحة؛سنحدثك في الفصول الآتية عن سير بعض النابغين من أطباء العرب المسلمين الذين تركوا أروع الآثار في ميدان الطب، ولا تزال آثارهم إلى اليوم تتحدى الجاحدين المنكرين لفضل العرب.

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازي

تتحدث المراجع الدينية عن عدد كبير من هؤلاء الأطباء منهم: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، وأكثر الباحثين يطلقون عليه (أبا الطب العربي ومؤسس الكيمياء الحديثة).

١- عصره:

عاش في العصر العباسي الثاني، وظهر في بغداد في أيام الخليفة المعتضد، وكانت النهضة العلمية التي أرسى المأمون قواعدها وعمل على نشرها لا تزال تسير في طريقها إلى الرقي والازدهار، إذ لم تكن جحافل التتر قد بدأت تتحرك، ولم يكن القواد التتار قد فكروا بعد في القضاء على الخلافة العباسية واحتلال بغداد. وإذا كانت سلطة الخليفة في بغداد قد أصيبت بضعف شديد، بدليل استقلال كثير من أطراف الدولة البعيدة عن عاصمة الخلافة، فإن الخلفاء مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بشئ من الهيبة والقوة.

فهذا الخليفة المعتضد العباسي كان على درجة من الشجاعة والقوة والإقدام، ويصفه بعض المؤرخين بأنه كان ميالًا لسفك الدماء، ومن أجل ذلك سموه (السفاح الثاني)، واستطاع بما عرف عنه من هذه الصفات أن يعيد إلى الدولة العباسية شيئًا من سطوتها وسيطرتها، فأعاد إلى حظيرة الخلافة بعض الولايات التي انفصلت عنها، وحارب البيزنطيين في جرأة

وشجاعة وانتصر عليهم، واسترد بعض المعاقل والحصون على الحدود في آسيا الصغرى، وكان الروم قد انتزعوها من المسلمين. وقام الأكراد بثورة في الجزيرة، فقضى على ثورتهم وطردهم من بلاد الجزيرة، ثم تمكن من إخماد الفتن التي أثارها الأمير الحمداني في الموصل[٦٤].

وقامت بينه وبين خمارويه الحاكم الطولوني صلات ودية قوية، أسفرت عن زواج المعتضد بالأميرة قطر الندى كريمة خمارويه، وزفت إليه في احتفالات أخذت تتحدث عن ذكرها الركبان، إذ كانت مضرب الأمثال فيما أحاط بها من مظاهر الثراء والأبهة والعظمة، وجاء في بعض الروايات التي تتحدث عن عظمة هذه الاحتفالات أنه بنى للعروس قصرًا، تتوافر فيه كل وسائل الراحة والتسلية، بين كل مرحلة وأخرى في الطريق بين مصر وبغداد؛ لكي تقيم فيه بعض الوقت طلبًا للراحة من عناء السفر. ولا شك أن النفقات الطائلة التي تكلفها هذه الاحتفالات تعد دليلًا على أن الخلافة في بغداد كانت على قدر كبير من الفخامة والعظمة والقوة؛ لذلك اتسع الوقت أمام المعتضد لكي يقوم ببعض الإصلاحات وتشجيع العلماء.

---

(٦٤) الموصل: مدينة بأرض الجزيرة (العراق) على نهر دجلة وعلى جانبه الغربي، وهي قديمة العهد لا يعلم من بناها، وفي قبالتها على البر الشرقي من دجلة أطلال مدينة (نينوى) القديمة كانت قاعدة الأشوريين، وهي التي أرسل إليها يونس عليه السلام، وفي الموصل توفي أبو تمام حبيب الطائي الشاعر طائر الصيت سنة ٢٣١هـ، وكان قيمًا على بريدها، ومنها أبو إسماعيل الطغرائي صاحب لامية العجم المتوفى سنة ٥١٣هـ، وأبناء الأثير الثلاثة: المحدث، والمؤرخ، والأديب، ومن شعرائها (السري الوفاء)، ومن أدبائها المؤرخين ابن الطقطقي المتوفى سنة ٦٣٢هـ، وكانت قاعدة ملك بني حمدان قبل أن ينتقلوا إلى حلب ثم كانت قاعدة الدولة الزنكية.

وكان الرازي وقتئذ يقيم ببغداد واشتهر فيها بطبه وبحوثه الدقيقة في الكيمياء، فأراد المعتضد أن ينتفع بعلمه وطبه، ويقال إنه اختاره لكي يعين له المكان الذي يصلح من الناحية الطبية لإقامة (البيمارستان)، وهو المستشفى الذي عرف بعد باسم (البيمارستان) العضدي. ولذلك قصة طريفة، فحينما وقع عليه الاختيار أمر باعداد قطع من اللحمالطازجفي عدة أماكن من مدينة بغداد، وقد لاحظ أن الفساد قد أسرع إلى بعضها، وبقيت قطع أخرى لم يسرع إليها الفساد، فاختار مكانها لبناء (البيمارستان)، ويقول ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء: "إن عضد الدولة[٦٥] استشار الرازي ليختار له مكانًا لبناء مستشفى يحمل اسمه، فطلب الرازي أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم، واعتبر الناحية التي لم يتغير فيها اللحم، فأشار بإقامة المستشفى عليه".

ويذكر المؤرخون أن الخليفة أراد بعد ذلك أن يختار بعض الأطباء للإشراف على هذا المستشفى الكبير، فوضعت له قائمة تتناول مئة طبيب كان منهم الرازي، أمر باختصارها إلى خمسين، ثم إلى عشرة ثم إلى ثلاثة، فكان الرازي من بين المختارين في كل مرة، ولما أريد تفضيل واحد من الثلاثة كان الرازي الأول، فاختاره المعتضد مديرًا للبيمارستان، وتدل هذه العملية على دقة بالغة في اختيار الأطباء الذين يتولون تطبيب

---

(٦٥) يخلط ابن أبي أصيبعة بن عضد الدولة والمعتضد، فالأول أمير من أمراء بني بويه الذين تغلبوا على العراق وفارس، ولم يظهر عضد الدولة هذا على مسرح الحوادث في بغداد إلا في سنة ٣٦٧هـ، والمعروف أن الرازي توفي سنة ٣١٣هـ، وإذًا فليس من المعقول أن يكون الرازي معاصرًا لعضد الدولة بن بويه.

الناس وعلاجهم في مستشفيات الدولة، وتدل هذه العملية أيضًا على أنه كان لا يتصدر لصناعة الطب إلا العلماء الذين درسوا دراسة علمية واشتهروا بالنبوغ، ويمكن أن يقال إنه لم يكن يزاول الطب أحد من الأدعياء.

ثم قامت الدولة السامانية[٦٦] في أيام المعتضد، وصار لها شأن كبير في توجيه الحركة العلمية والنهوض بها، ويذكر ابن النديم[٦٧] أن الرازي كانت بينه وبين المنصور بن إسماعيل أحد ملوك هذه الدولة صداقة قوية، ويروى أنه ألف كتابه المنصوري في الطب، فجعل اسم الكتاب منسوبًا إليه، ويعد هذا الكتاب من أشهر الكتب الطبية. لقد كان الجو السياسي في هذه الأيام مشحونًا بطاقة قوية من العواصف والاضطرابات، بدأت تلبد السماء وتملؤها بسحب قاتمة بعد قتل

---

(٦٦) الدولة السامانية: تنسب إلى إسماعيل بن أحمد الساماني، وهو من أسرة فارسية عريقة في المجد، وكان أفرادها يحكمون بلاد ما وراء النهر منذ زمن المأمون، إلى أن ظهر إسماعيل فانتهز فرصة ضعف الدولة العباسية، وأقام دولة قوية في المشرق تشمل سمرقند وفرغانة والشاس وأشروسنة وهراة وطرستان، وظل نفوذها قويًا إلى سنة ٣٨٩هـ، وكان عدد ملوكها عشرة، أولهم نصر بن أحمد بن سامان وآخرهم عبد الملك بن نوح.

(٦٧) ابن النديم: هو أبو الفرج محمد بن إسحق بن يعقوب النديم الوراق البغدادي، صاحب الفضل الأكبر على تاريخ آداب اللغة العربية بما دونه في كتابه الفهرست، ولولاه لضاع كثير من أدب اللغة العربية، وصف فيه لغات الأمم من العرب والعجم، مستعرضًا كتب الشريعة وعلوم القرآن وطبقات النحويين واللغويين وتاريخ النحو، وأصحاب الأخبار والسير والفقهاء والمحدثين، والعلوم القديمة وأصحابها والأسمار والخرافات والمذاهب والمعتقدات، وكتب الطب والأطباء والكيمياء وأصحابها، وترجمة المستشرق (فلوجل) سنة ١٨٧١م في ليدن، ويعتبر الفهرست ذخيرة علمية أدبية عظيمة الفائدة.

المتوكل على الله العباسي، ولكن هذه الفترة بالرغم من كل ذلك لم تخل من بعض الخلفاء الأقوياء، الذين استطاعو أن يحتفظوا بشيء من هيبة الدولة. وأما الحركة العلمية فهي وإن كانت قد فقدت المأمون الذي كان أعظم نصير لهاإلا أنها مع ذلك استمرت تسير في طريقها؛ ذلك لأن الدول الناشئة بعد استقلال الأطرافكانت في حاجة قوية إلى دعم سلطانها، فلم تجد وسيلة أقوى إلى تحقيق هذه الغاية خيرًا من تشجيع العلماء ومناصرة الحركة العلمية، وفي هذا الجو عاش الرازي.

٢- حياته:

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في الري(٦٨) من أعمال فارس، والرازي نسبة إلى الري، وهي نسبة على غير قياس.ويقول البيروني(٦٩) في

---

(٦٨) الري: كانت مدينة عظيمة ببلاد الجبال واسمها القديم (راغا) ومنه اشتق الاسم العربي، فتحها نعيم بن مقرة في خلافة عمر، وفيها ولد الخليفة هارون الرشيد، وهي وطن محمد ابن زكريا الرازي الطبيب، وهو من نوادر القرن الثالث الهجري، اشتهر بالطب والكيمياء وترجمت كتبه إلى اللاتينة واليونانية والإنجليزية، ويسميه الإفرنج **Rases**، وفخر الدين الرازي صاحب مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير المتوفي سنة ٦٠٦هـ.وهي الآن أطلال دراسة على مسافة خمسة كيلومترات من طهران، وتعرف باسم (مشهد عبد العظيم) واسمها القديم عند اليونان (اقروبوس).

(٦٩) البيروني: هو محمد بن أحمد أبو الريحان الخوارزمي كان عالمًا رياضيًا فلكيًا ولغويًا أديبًا، له في الرياضيات والنجوم اليد الطولي، سافر إلى الهند ودرس لغة أهلها وثقافتهم، وسجل دراسته في كتابه المشهور (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، وهو من أمهات الكتب التي يرجع إليها في علوم الهند، ومن مؤلفاته أيضًا الباقية عن القرون الخالية، وهو يدل على غزارة علمه وإلمامه الواسع بلغات الأمم وتاريخها وثقافتها. وأفاد البيروني من العربية، فقد طوع أساليبها وجعلها مرنة تشمل دقائق التفكير الهندي، وكتاباه مطبوعان. وللبيروني نظر

إحدى رسائله إن الرازي ولد في الري في غرة شعبان سنة ٣٥١هـ وتوفي بها في خمسة من شعبان سنة ٣١٣ هـ، وكان منذ صغره يميل إلى العلوم الأدبية ويقول الشعر ويتعلق بالموسيقى، كما كان يحسن الغناء والضرب على العود، واستمر فترة من شبابه مولعًا بالموسيقى، وكان حريصًا كأهل زمانه على تربية لحيته وشاربيه، فأمسك يومًا بلحيته وقال: "كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف".

وما لبث أن انصرف عن الغناء واشتغل بالطب والعلوم العقلية، وكان على استعداد قوي، فعكف على دراسة كتب الطب والفلسفة وقرأها قراءة باحث مدقق. ويذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء رواية لأبي سعيد زاهد العلماء، يتحدث فيها عن سبب تعلم الرازي الطب فيقول إنه عند دخوله مدينة السلام[٧٠] دخل (البيمارستان) العضدي ليشاهده، فاتفق أن ظهر الرجل برجل شيخ يعمل صيدلانيًا في البيمارستان، فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها في البدء، فأجابه بأن قال:

فلسفي، فهو يرى أن العلم اليقيني لا يحصل إلا من احساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقي، وعنده أن مطالب الحياة تجعلنا في حاجة إلى فلسفة عملية نميز بها العدو من الصديق، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، وسمي البيروني في لغة أهل خوارزم، فهم يسمون الغريب (بيروني)؛ لأنه لما طالت غيبته عن بلاده عدوه غريبًا عنها فلقبوه بهذا اللقب، وقال السمعاني في اللباب: سمي بذلك لأنه سكن بظاهر (خوارزم)، وهو خاص بالغرباء واسمه (بيرون)، فنسب إليه. وقيل لقب بالبيروني نسبة إلى بلدة بيرون من بلاد الهند كان قد عاش فيها طويلًا، ولفظ بكسر الباء وضم الراء وبعدها واو ساكنة ثم نون.

(٧٠) دار السلام: هي مدينة بغداد.

"إن أول ما عرف منها كان (حي العالم)، وبيان ذلك أن أفلولن سليل (إسقليبوس) كان بذراعه ورم يؤلمه ألمًا شديدًا، فمال يومًا إلى الخروج إلى شاطئ نهر، وعندئذ أمر غلمانه فحملوه إليه، وكان على شاطئ النهر ذلك النبات، فوضع ذراعيه عليه تبردًا به، فخف ألمه بذلك، فاستطال ووضع يده عليه، ثم أصبح من غد ففعل مثل ذلك فبرئ، فلما رأى الناس سرعة برئه، وعلموا أنه إنما كان بهذا الدواء، فسموه (حياة العالم)، وتداولته الألسن وخففته فسمي (حي العالم)، فلما سمع ذلك الرازي أعجب به، ثم دخل مرة أخرى هذا (البيمارستان) فرأى صبيًا مولودًا بوجهين ورأس واحد، فسأل الأطباء عن سبب ذلك، فأخبر به، فأعجبه ما سمع، ولم يزل يسأل عن شيء ويقال له وهو يعلق بقلبه، حتى تصدى لتعلم الصناعة ونبغ فيها، فأصبح يدعى (جالينوس العرب).

وفي رواية أخرى أن الرازي كان في جملة من اجتمعوا على بناء هذا البيمارستان العضدي، ويقال إن عضد الدولة استشاره في تعيين المكان الصالح لبنائه، وإن الرازي أمر بعض الغلمان بأن يعلقوا في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم، ثم اعتبر مكان الشقة التي لم تتغير ولم يسهك لحمها بسرعة بأنه حي، وأشار ببناء (البيمارستان) في هذا الموضع.

ثم ما لبث الرازي أن أصبح شديد الحب لعلم الطب والرحلة في طلبه، ويتحدث عن ذلك فيقول: "فأما محبتي للعلم وحرصي عليه واجتهادي فيه فمعلوم عند من صحبني وشاهد ذلك مني، إني لم أزل منذ حداثتي وإلى وقتي هذا مكبًا عليه حتى إني متى اتفق لي كتاب لم

أقرأه أو رجل لم ألقهلم ألتفت إلى شغل البتة–ولو كان في ذلك على عظيم ضرر –دون أن آتي الكتابوأعرف ما عند الرجل، وإنه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويذ في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة، وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار، حتى ضعف بصري وحدث على فسح في عضل يدييمنعاني في وقتي هذا القراءة والكتابة، وأنا على حالي لا أدعهما بمقدار جهدي، فأستعين دائمًا بمن يقرأ ويكتب لي".

وفي هذه العبارات ترجمة دقيقة للجهود العظيمة والطاقات الكبيرة التي كان ينفقها الرازي في تحصيل العلم، والإلمام بأكبر مقدار منه، فإذا أقعدت به السبل؛ لأن آلات البدن التي تعينه على تحصيله قد تعطلت، فإن اليأس لا يتسرب إلى نفسه الكبيرة، ولا يزال مستمرًا في الطب بمختلف السبل، ومن أساتذته الذين قرأ عليهم بعض كتب الطب علي أبو الحسن الطبري، كان يهوديًا ثم أسلم وله كتاب مشهور في الطب يسمى (فردوس الحكمة)، ثم قرأ كتب الفلسفة علي البلخي[٧١].

---

(٧١) البلخي: هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، جغرافي عربي ولد في (شامسنيان) من أعمال بلخ، واعتنق بادئ الأمر مذهب الإمامية، ودرس الفلسفة هو والكندي، وعاش في رعاية أبي علي الجيهاني وزير السامانيين، ولكن الوحشة دبت بينهما بعد ذلك، فدعي لزيارة (بخارى)، ولكنه لم يأنس من نفسه الجرأة على عبور نهر (جيجون)، وتوفي البلخي في ١٩ من ذي القعدة سنة ٣٢٢هـ، وأورد صاحب الفهرست بيانًا بأسماء ٤٣ مصنفًا له، ولكنها فقدت كلها في عهد متقدم، أما (حاجي خليفة) صاحب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) فلم يعرف له إلا ستة كتب ومنها صورة الأقاليم، وقد ذكره المقدسي، وكتاب البدء والتاريخ ويقال

واهتم الرازي بمدارسة الطب فقرأ جميع الكتب من يونانية وهندية وفارسية وبدأ يسلك أول الأمر مسلك قدامى الأطباء في ممارسة هذه الصنعة، ولكنه ما لبث أن انفرد بطريقته الخاصة في مزاولة الطب، يقول (سيديو) في كتابه تاريخ العرب العام: "لا أحد يعدل الرازي وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما الطبية على مدارسنا زمانًا طويلًا. ويقول سارطون: "إن الرازي من أعظم أطباء القرون الوسطى".

وما كاد ينتهي من دور التحصيل والدراسة حتى رحل عن الري قاصدًا بغداد، وكانت سنه تبلغ الثلاثين، ثم أقام بدار السلام، ومنذ ذلك الحين بدأت شهرته تملأ الآفاق شرقًا وغربًا، يقول صاحب الفهرست: "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من أهل الري، أوحد دهره وفريد عصره، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء سيما الطب، وكان ينتقل في البلدان، وبينه وبين المنصور بن إسماعيل صداقة، وله ألف كتاب (المنصوري). وأما ابن أبي أصيبعة فيسميه في كتاب طبقات الأطباء (جالينوس العرب).

وأفاد الرازي من مزاولته لفني الموسيقى والغناءفائدة كبرى، فقد روي أنه كان يتردد على صديق له يشتغل صيدليًا بمستشفى مدينة الري التي هي مسقط رأسه، وكان من عادته حينما يجتمع بصديقه هذا أن يعاوده الحنين إلى الموسيقى، فكان يعزف عنده بعض الوقت داخل المستشفى بقصد التسلية والطرب، ولشد ما كانت دهشته حين رأى

إنه نسب إليه الخطأ، ويقول ابن النديم: إنه كان يطوف بالبلاد ويجول في الأرض، وإنه كان يحسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة، ويقال إن الرازي ادعى كتبه في ذلك.

المرضى وهم يعانون آلامًا قاسية، يتركون أسرتهم ويلتفون حوله، يستمعون في مرح وسرور إلى أنغامه الساحرة، وقد لاحظ الرازي أن بعض هؤلاء المرضى مصابون بأمراض تسبب آلامًا مبرحة، وبالرغم من ذلك فقد نسوا هذه الآلام وشملهم الهدوء والسكون والسرور عندما سمعوا الألحان الشجية والنغمات المطربة، فأدرك بإحساسه الدقيق المرهف أن الموسيقى لا بد أن يكون لها أثر في تخفيف الآلام وفي شفاء بعض الأمراض، ولكنه لم يقتنع بهذه النتيجة من أول مرة، وأخذ يدرس بدقة تأثير الموسيقى في شفاء الأمراض، حتى انتهى بعد التجارب الكثيرة إلى رأي حاسم، وهو أن نغمات الموسيقى الجميلة لها تأثير قوي في شفاء بعض الأمراض.

ومنذ ذلك الحين أصبح يعتمد عليها بوصفها أسلوبًا من أساليب العلاج الطبيعي، وصارت الموسيقى لونًا من ألوان العلاج التي يؤمن بها الطب الحديث في عصرنا، وقد وصل الرازي وهو يعالج المرضى بنغمات الموسيقى الساحرة وألحانها العذبة أن بعضهم لم يتم شفاؤه إلا بعمليات جراحية، فبدأ يدرس علوم الجراحة وتشريح الأجسام واستعان بأستاذة الطبري، وأثناء دراسته للطب الجراحي اتضح له أن قدامى الأطباء قد بنوا آراءهم على نظريات خاطئة، ومن العجيب أنه كشف عن كثير من هذه الآراء في كتب (جالينوس)، بالرغم مما له من شهرة عظيمة، وبالرغم من انتشار كتبه التي كانت تعد من أعظم المراجع في علوم الطب، وكان الشك لا يمكن أن يتسرب إليها.

ومن المعروف عن الرازي أنه لم يكن يسلم بآراء غيره إلا بعد أن يمتحن هذه الآراء ويختبرها، ويضعها موضع التجربة ثم يحكم عليها، ولهذا السبب خطّأ كثيرًا من الآراء، ولما عين مديرًا (للبيمارستان العضدي) تجاوزت شهرته البلاد القاصية والدانية، فكان المرضى يأتون إليه من الهند والسند والصين[٧٢]وبلاد الإفرنج[٧٣] يلتمسون عنده من مرضهم؛ لما ترامى إليهم من أخباره التي تتحدث عن دقته في دراسة المرضى وأحوالهم، وسير المرض والعلاقة بين الحالة النفسية والمرض، كذلك عرف بأمانته العلمية، فعندما وضع كتابه عن الحصبة والجدري لم ينسَ أن ينصف في هذا الكتاب الطبيب اليوناني (جالينوس)، فقال: "لو زعم أحد الأطباء أن جالينوس العظيم لم ينوه في كتاباته عن الجدري، فإن ذلك إما أن يرجع إلى أن الطبيب لم يقرأ كتابات جالينوس إطلاقًا، وإما أنه قرأها قراءة سطحية.

---

(٧٢) السند: اسم يطلقه العرب على ثلاثة أقاليم يفصلها عن الهند نهر كبير يدعى نهر مكران أو مهران، وهي بلاد (زابولستان) أفغانستان الآن، وقد فتحها محمد بن القاسم الثقفي في خلافة الوليد بن عبد الملك، ثم بلاد طوران ومكران وهما بلوخستان (الآن)، وفتحها الحكم بن علي الثعلبي في خلافة عمر بن الخطاب، ومن مدن السند المشهورة: غزنة وكابول وقندهار.

(٧٣) الإفرنج أو الفرنجة: أطلق الكاتب الروماني (أميانوس) في سنة ٥٣٨م هذا الاسم على القبائل الجرمانية التي كانت تتكلم لهجات متشابهة، وتخضع في أنظمتها لعادات متشابهة، وكانت كل قبيلة منها مستقلة سياسيًا، وفي أوائل القرن الخامس انقسمت هذه القبائل= =خمس فرق، واستطاعت إحدى هذه الفرق أن تقيم في بلاد الغال ملكًا عظيمًا، وسمت فرنسا، وفي الحروب الصليبية سمى العرب والشرقيون الأوروبيين الذين زحفوا على البلاد المقدسة (الفرنجة) تعريبًا للفظ بغير تمييز.

وفي هذه العبارة دليل على ما اتصف به الطبيب العربي الكبير من حب الإنصاف والتقدير لمن سبقه من الأطباء، وهذا الروح العلمي السامي المتميز بالإنصاف والاعتراف بالفضل لكل من أسهم في خدمة العلم بنصيب، يختلف تمامًا عما اتصف به بعض علماء أوروبا من الذين دأبوا على إنكار فضل العرب على العلوم الطبية وغيرها من العلوم، التي بنيت عليها الحضارة الإنسانية. ونحن نشير إلى بعضهم فقط؛ لأن هناك عددًا كبيرًا من المنصفين الذين اعترفوا بفضل العرب العظيم على التراث الإنساني الخالد.

فهذه جامعة (برنستون) بالولايات المتحدة الأمريكية تقدم دليلًا ساطعًا على تقديرها الممزوج بالاحترام لطبيب العرب العظيم (أبو بكر الرازي)، معترفة بما له وبما للحضارة الإسلامية بصفة عامة من فضل كبير على الثقافة الإنسانية؛ لذلك خصصت جانبًا فخمًا من أبنيتها الرائعة لتسجيل مآثر هذا الطبيب الخالد، وأنشأت إلى جانب ذلك معهدًا خاصًا لدراسة العلوم والمخطوطات العربية، ولا ريب أن كل ما في هذا العمل الجليل اعتراف قوي بأمجاد العرب الخالدة في النواحي الإنسانية.

٣- منزلته في الطب:

كان للرازي منزلة رفيعة في الطب، أطلق عليه (أبو الطب العربي) كما كان يدعى (جالينوس العرب)؛لأنه ابتكر في الطب أشياء لم يسبق إليها، من ذلك أنه استخدم الموسيقى لونًا من ألوان العلاج لبعض الأمراض، كذلك كان من أول الذين عرفوا أثر الضوء في حدقة العين، وأنه يساعد على اتساعها ليلًا وانكماشها نهارًا، وقد استغل هذا الكشف

فيما قام به من بحوث عصبية، وفي مداواة أمراض الحصبة. وكان صاحب الفضل على طب الأطفال؛ إذ جعله فرعًا من الطب قائمًا بذاته، وكتب فيه كتابة مستقلة.

وكان يسلك في علاج المرضى مسلكًا علميًا يشهد له بالنبوغ والعبقرية، فلم يكن يسمح لمرضاه بتناول العقاقير الطبيةإلا بعد قيامه بتجربتها على الحيوان، ومما يروى عنه أنه عندما أراد أن يقدم مركبات الزئبق كملين لبعض المرضى، وجرب الدواء الذي أعده على قرد، فلما أثبتت التجربة نجاح الدواء بدأ يعطيه للمرضى. وكان نبوغه في علوم الكيمياء من الأسباب التي عاونته على إعداد الأدويةبنفسه، فكان يعمل طبيبًا وصيدليًا في وقت واحد، ومن أجل ذلك نراه يفسر شفاء المريض بأنه نتيجة تفاعل كيميائي، يحدثه الدواء في جسم المريض.

وهو أول من استخدم مركبات الرصاص في صنع المراهم، وأول من توصل إلى استخدام الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات، في خياطة الجروح المفتوحة بعد انتهاء العمليات الجراحية، ويبين الرازي السر في ذلك فيقول: إن الخيوط المصنوعة من الأمعاء يمتصها الجسم فتصير جزءًا منه. وهو أول من قام بمعالجة الحمى بالماء البارد، فسبق بذلك أطباء العصر الحديث؛ إذ لا يزال الماء البارد إلى اليوم علاجًا نافعًا لبعض أنواع الحميات، وإلى ذلك كله كان من أوائل الأطباء الذين تنبهوا إلى العدوى الوراثية، وأول من وصفوا بدقة ووضوح أمراض الجدري والحصبة وميزوا بينها.

ويقول البروفيسور (بوشو) الفرنسي: "لقد وصف الرازي ضربًا من الجدري تظهر بثوره على سطح الجسم بيضاء متلاصقة، كأنها بقعة من الدهن، وقال إن آخرتها محزنة، وإني والحق يقال لم أجد أجود من وصفه لهذا ولا أصدق مما قال، وهو أول من كتب في أمراض الأطفال وفي واجبات الطبيب".

وقد نبغ الفحص الطبي نبوغًا منقطع النظير في زمانه، فكانفي الصف الأول من أطباء العرب بل من أطباء العالم في عصره الذين يمتازون بدقة الملاحظة السريرية، وهي التي تقوم على دراسة سير المرض وتتبع حالة المريض، وسجل المستشرق (مايروهوف) للرازي ما يقرب من ثلاث وثلاثين ملاحظة سريرية، وله –فضلًا عن ذلك– ابتكارات طبية أخرى تعد من أسس المعالجة الحديثة في الأمراض التناسلية والولادة وجراحة العيون. وقد أشرنا من قبل إلى براعته في تشخيص بعض الحميات وكانت قد أصابت أحد مرضاه، ويدعى عبد الله بن سوادة:

"أصيب عبد الله بن سودة بأنواع مختلفة من الحميات كانت تأتيه كل ستة أيام، ومرة تغيب يومًا وتأتي يومًا، ومرة تأتي كل يومين، ومرة كل أربعة أيام، ومرة كل أسبوع ويتقدمها شيء من الرعدة القليلة، وكان يبول مرات كثيرة، حكمت أنه لا يخلو إما أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعًا أي تأتي كل أربعة أيام، وإما أن يكون به خراج في كلاه، فلم يلبث إلا مديدة (أي وقتًا قليلًا) حتى بال قيحًا وصديدًا (مدة)، ثم أعلمته أنه لا تعاوده هذه الحميات، وكان كذلك، وإنما صرفني في أول

الأمر عن قولي بأن به خراجًا في كلاهأنه كان مصابًا بالحمى قبل ذلك، وكانت تأتيه في يوم وتغيب عنه يومًا، كما كان مصابًا بحميات أخر، فكان الظن بأن تلك الحميات المختلطة من انحرافات تريد أن تصير ربعًا موضع أقوى، ولم يشك إلى أن قطنه يكون شبه ثقل معلق منه إذا قام، وأغلفت أنا أيضًا أن أسأله عنه، وقد كانت كثرة البول تقوي ظني بالخراج في الكلى، إلا أنني كنت لا أعلم أن أباه أيضًا ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء، ولما بال المدة أكببت عليه بما يدر البول حتى صفا البول من المدة، ثم أسقيته الطين المختوم بعد ذلك والكندر، ودم الأخوين(٧٤) وتخلص من علته وشفي شفاءً تامًا سريعًا في نحو شهرين، وكان الخراج صغيرًا دلني عليه أنه لم يشكُ إليابتداء ثقلًا في قطنه، لكن بعد أن بال المدة قلت هل كنت تجد ذلك؟ قال نعم، فلو كان كبيرًا لقد كان يشكو إليذلك، أي يشكو إليه الألم. وإن المدة التي (ترشح) سريعًا تدل على صغر الخراج، فأما غيري من الأطباء فإنهم كانوا حتى بعد أن بال (المدة) أيضًا لا يعلمون حالتهم (البتة)".

ويدل هذا الوصف الدقيق على أن الرازي كان نابغة في الفحص الطبي، وتشخيص الأمراض وملاحظة سيرها في أجسام المرضى، وأنه كان يفحص العليل الذي يعرض عليه بكل دقة، وبالوسائل التي وصل إليها، والتي لا تقل في دقتها عما هو معروف اليوم، وفي هذا التشخيص إشارة لا تخلو من معنى دقيق، فقد أشار الرازي إلى أن الأمراض قد

(٧٤) الطين المختوم والكندر ودم الأخوين: أسماء لعقاقير طبية.

تورث، وهذا أمر مسلم به في الطب الحديث، ويتنبه الرازي إلى أثر العامل النفسي في صحة المريض، فيقول: "إن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس"؛ ولذلك كان يرى أن من الواجب على طبيب الجسم أن يكون أولًا طبيب للروح.

وقد جاء في كتبه: "على الطبيب أن يوهم مريضه الصحة ويرجيه بها وإن لم يثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس"، وقد كان ذلك مما حمله على وضع قانون للطب الروحاني الذي هو ضرب من التدبير للنفس. ويحتل العلاج النفسي اليوم منزلة كبيرة بجانب العلاج بالعقاقير الطبية، ومن أطباء العرب الذين برعوا في العلاج بطريق التحليل النفسي ابن سينا.

٤- مؤلفاته:

ترك الرازي مؤلفات كثيرة في الطب تمتاز بقيمتها العلمية الكبيرة، وهي تعد جزءًا عظيم الشأن من التراث العربي الخالد في الطب والكيمياء، وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ما يقرب من مئتي كتاب ورسالة منها. ومن هذه الكتب كتاب الشكوك على (جالينوس)، وكتاب في أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان، وكتاب الفالج، وكتاب هيئة العين، وكتاب هيئة القلب، وكتاب الاغتذاء، وكتاب خواص الأشياء، وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجها، وكتاب دفع مضار الأغذية، وكتاب ما يعرض في صناعة الطب.

ولكن الرازي اشتهر بمؤلف ذاع صيته، وانتهت إلينا منه أجزاء

مفرقة، وهو كتاب (الحاوي).ويقول ابن النديم: "ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب، وينقسم اثني عشر قسمًا، فالأول في علاج المرضى والأمراض، والثاني في حفظ الصحة، والثالث في الرئبة والجبر، والرابع في قوى الأغذية والأدوية وجميع ما يحتاج إليه من المواد في الطب، والخامس في الأدوية المركبة، والسادس في صنعة الطب، والسابع في صيدلية الطب والأدوية وألوانها وطعومها ورائحتها، والثامن في الأبدان، والتاسع في الأوزان والمكاييل، والعاشر في التشريح ومنافع الأعضاء، والحادي عشر في الأسباب الطبيعية من صناعة الطب، والثاني عشر في المدخل إلى صناعة الطب، وهو مقالتان: الأولى في الأسماء الطبية، والثانية في أوائل الطب". فالكتاب كما يبدو من أقسامه الكثيرة سجل دقيق حافل تناول فيه الحديث عن كثير من المعلومات الطبية المعروفة في عصره.

ويمكن أن يقال إن الرازي في هذا الكتاب اهتم بشيئين رئيسيين في صناعة الطب، فهو يتناول بالدرس موضوع علم الأدوية (الأقرباذين)، كما يتناول موضوع الملاحظات السريرية، وهي التي تتعلق بدراسة سير المرض ووصف العلاج الذي استعمل لكل حالة من حالات سير المرض، وتطور حالة المريض، وما أسفر عنه العلاج من نتائج، ويقال إن المنية عاجلته قبل أن يتمه.

وكان ابن العميد يتتبع آثار الرازي، فوصل إلى علمه أن هذا الكتاب في حوزة أخت الرازي فاشتراه منها بمبلغ كبير من المال، ثم اتصل بتلاميذ

الرازي في بغداد والري، وطلب منهم–حرصًا على حفظ آثار أستاذهم وصيانة لها من التفرق والضياع–أن يقوموا بترتيب كتاب الحاوي، وأن يضموا إليه ما نقص منه ومما سمعوه من أستاذهم، فاستجابوا إلى طلبه وقاموا بما عهد إليهم، وتقول بعض الروايات إن تلاميذ الرازي جمعوا بعد وفاته ملاحظاته الطبية، وأودعوها دائرة معارف طبية واسعة قسموها اثني عشر قسمًا، وأطلقوا عليها اسم كتاب (الحاوي).

وقد فاقت شهرة هذا الكتاب غيره من الكتب الطبية، ولقيمته العظيمة اختصره كثير من الأطباء، ومنهم علي بن داود في سنة ٥٣٠هـ وترجم إلى اللاتينية في سنة ١٤٨٦م، ثم طبع بعد ذلك بالبندقية في سنة ١٥٤٢م، ومن هذه الترجمة الأخيرة نسخة في مكتبة جامعة (كامبردج) وبعض نسخ في مكتبة جامعة (ليبك).ويقول الأستاذ (براون): "إنني متأكد نظرًا لما اتصل بي أنه لا يكاد يوجد نصف هذا الأثر العظيم"، ويشايعه في ذلك عدد من العلماء. وإذا صح هذا القول فمعنى هذا أن كتاب الحاوي لا يوجد كاملًا، وأنه لا بد أن تكون قد ضاعت منه أجزاء مهمة بسبب الإهمال من ناحية، ولما أصاب الدول الإسلامية من أعاصير حروب التتار، تلك الحرب التي كانت سببًا في إتلاف مجلدات لا حصر لها من التراث العربي الإسلامي من ناحية.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن التتار قد أخرجوا أكثر ما في خزائن بغداد من الكتب وألقوا بها في نهر دجلة كي تعبر فوقها جنودهم، ولا تزال أكثر مجلدات هذا الكتاب مبعثرة في مكتبات أوروبا، غير أنه في دار الكتب بالقاهرة نسخة مخطوطة تقع في أربعة أجزاء، وقد كانت ملكًا

للحاج إبراهيم (باشا) والي جدة. والشيء الذي يدعو إلى مزيد من الأسف أن هذا الأثر الطبي النفيس لم يجد من علماء العرب وأطبائهم اهتمامًا جديًا، بالقيام ببحث دقيق عنه، وتحقيق الأجزاء المبعثرة منه في مختلف المكتبات في الشرق والغرب، تمهيدًا لطبعه وإخراجه.

ومن المؤكد أن الأوروبيين كانوا يجلون هذا الكتاب في العصور الوسطي، ويعدونه أعظم مرجع في الطب، والدليل على ذلك تلك القصة الطريفة التي تقول إن جامعة باريس الطبية في القرن الرابع عشر وقع ببعض أبنيتها خلل، وأراد مجلس إدارة الجامعة أن يقوم بإصلاح هذه المباني، ولكن المال كان يعوزه، فاضطر أعضاء المجلس إلى طلب معونة مالية من أحد رجال المال المعروفين، ولما كانت طريقة الاقتراض تستدعي تقديم ضمان للمبلغ المطلوب تحير أعضاء مجلس ادارة الجامعة، إذ لم يكن عندهم ذلك الضمان إلا الكتب، وعندئذ اشترط صاحب المال كتاب (الحاوي) للرازي ضمانًا لماله، وغير شك أن هذه الرواية تترجم في وضوح عما كان لكتاب الحاوي من منزلة علمية عظيمة عند الأوروبيين، ومن أجل ذلك عده رجال المال في تلك العصور رصيدًا عظيم القدر تعادل قيمته مقدارًا كبيرًا من الذهب.

ويتحدث الرازي في المجلد الرابع من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة، تحت رقم ٧٦٧٦ طب، عن أمراض المثانة ومجاري البول، وأمراض النساء والولادة، بما يثبت حذقه ومهارته في تشخيص هذه الأمراض ووصف الدواء وأنواع العلاجات المفيدة التي تؤدي إلى البرء والشفاء.

فيقول في الصلابة الحادثة في الكلى: "إن حدث في الكلى ورم صلب مستحجر لم يحدث معه وجع، بل يحس العليل بأن شيئًا ثقيلًا معلقًا في كليته، ويقوم هذا الثقل في القطن ويتبعه ضعف الساق وخدر في الورك، فيكون البول مائيًا قليلًا، لأنه يكون صافيًا، ويحدث لذلك ترهل في البدن وفساد مزاج؛ لذلك يجب أن يعالج بالأدوية التي شأنها أن تلين الصلابات وتفشي الورم نحو الأدهان، وبالتدليك والتمريخ الرطبوالحقن الملينة، ثم يسقى المريض الأدوية المسكنة التي تدر البول إدرارًا سهلًا".

ويقول في القروح الحادثة في أجهزة البول: "إذا كان في هذه الأجهزة قروح، حدث بول المدة أيامًا كثيرة مع عسر البول، ويعرف أثر القرحة مما يبرز مع البول، فإن كانت القرحة فوق الكبد ونواحيهكان البول مضروبًا مع المدة، ولم يدم أيامًا كثيرة، وإن كان في البول قطع لحم فإنه من الكلى، وإن كان فيه قشور فإنه من المثانة، أو من مجاري البول إليها، والفصل بينهما أن التي من المثانة نتن ريح، وليس للتي من مجاري البول نتن. فإن احتبس البول فإنك تعرف ذلك من مكان الوجع وشدته، فإن كانت القرحة في الكلى يكون الوجع في القطن، والتي من مجاري البول يكون في الحالبين، والتي في المثانة يكون في العانة. وعسر البول يكون إذا كانت القرحة في المثانة، فأما إذا كانت في الكلى فإن البول يجري بسهولة.وإن كان الوجع شديدًا جدًا فالقرحة في المثانة، وإن كان متوسطًا ففي مجاري البول، وإن لم يكن وجع فهي في الكلى،

والثقل معه لازم له. وإن جرت المدة بلا بول فإن القروح قريبة جدًا".

ثم قال: "وقروح الكلى تبرأ بسهولة، فأما قروح المثانة فتعسر. وتعالج هذه القروح باستعمال الأدوية المنقية للمدة والوسخ الذي في القرحة، حتى إذا نقيت استعملت الأدوية القابضة، ومن الأدوية النافعة عمل مزيج معين من بزر (القتا) القثاء، وبذر البطيخ مع العسل، أو من ماء العسل المعمول ببذر الكرفس".

ويلاحظ أنه يبدأ يبدأ أولًا بوصف أعراض المرض والعلامات المميزة له في كل في حالة من حالاته، ثم يصف الدواء في ضوء الأعراض التي يحس بها المريض أو تظهر عليه، وهذه الخطوات شبيهة جدًا بما يجري عليه الطب الحديث في عصرنا. فالطبيب يفحص المريض للتعرف على نوع المرض، ثم يصف العلاج المناسب لمرضه. واعترافًا بفضل الرازي لا يفوتنا أن نشير إلى أنه كان أول من شخص أمراض المثانة في العصور الوسطى تشخيصًا دقيقًا، وأنه كان إلى جانب ذلك حجة في علم الولادة، ومن رأيه أن السبب في أمراض المثانة يرجع إلى اختلاط الدم بالبول، وكان من أول من استعمل الحقن في علاج الأمراض.

ومن كتبه التي نالت شهرة عظيمة كتابه (المنصوري)، ويتناول فيه وصفًا دقيقًا لتشريح أعضاء الجسم كلها، كما يضمنه بحوثًا على جانب كبير من الأهمية الطبية في بيان قوى الأغذية والأدوية ومواد الزينة والتقطير، وطائفة كبيرة من الإرشادات الصحية الطبية والعملية التي كشفت عنها تجاربه. والكتاب مؤلف من أقسام عشرة، وهو بالنسبة

لكتاب الحاوي يعد أكثر تنظيمًا وأحسن ترتيبًا وأكثر وضوحًا. وهذه الأقسام هي:

١- المقالة الأولى في المدخل إلى الطب، وفي شكل الاعضاء وخلقها.

٢- المقالة الثانية في تعرف مزاج الأبدان وهيئتها، والأخلاط الغالبة عليها، واستدلالات وجيزة جامعة من الفراسة.

٣- المقالة الثالثة في قوى الأغذية والأدوية.

٤- المقالة الرابعة في حفظ الصحة.

٥- المقالة الخامسة في الزينة.

٦- المقالة السادسة في تدبير المسافرين.

٧- المقالة السابعة، وتتناول جملًا وجوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح.

٨- المقالة الثامنة في السموم والهوام.

٩- المقالة التاسعة في الأمراض الحادثة من القرن إلى القدم.

١٠- المقالة العاشرة في الحميات، وما يتبع ذلك مما يحتاج إلى معرفته في تحديد علاجها.

وقد سماه (المنصوري) باسم المنصور بن أحمد الساماني، وترجمه إلى اللاتينية (جيرارد الكريموني)، كما طبع مرارًا في ميلانو والبندقية وليون وبادو؛ إذ كان مع قانون ابن سينا من أعظم المراجع التي يعتمد

عليها في تدريس الطب بالمدارس الطبية الأوروبية إلى القرن السابع عشر. وأما رسالته في الجدري والحصبة فتعد بحق وبلا منازع زينة الآداب الطبية العربية، وتتجلى في هذه الرسالة عبقرية الرازي بوصفه طبيبًا مختبرًا مدققًا مجردًا من الأوهام والاعتقادات الزائفة، كما يبدو في هذه الرسالة تليمذًا نبيهًا اقتفى خطوات أستاذه (أبقراط)، ولكنه فاقه وبزه في كثير من النواحي.

ويتحدث الرازي عن أسباب نشأة الجدري فيقول إنه ينشأ بسبب فوران الدم، ويشبه ذلك بفوران الخمر أثناء تخمره، وقد أثبت العلم الحديث أن كلًا من الخمر والمرض العفن ينشأ بسبب ميكروب خاص، وهذا التشبيه الدقيق يدل على أصالة في الرأي ودقة في الفهم والتجربة.

وكان كلام الرازي في نشأة مرض الجدري نقطة انطلاق للبحوث المستمرة التي أدت إلى كشف الميكروب فيما بعد، ولو أن الرازي عرف (المجهر) في زمانه لكان بلا شك صاحب الفضل الأول في كشف الميكروب، ولعرف (الميكروب) باسمه ونسب إليه، بدلًا من نسبته إلى (باستور).

ويتميز طبيبنا العربي الكبير بقدرته العجيبة على ملاحظة أعراض الأمراض ووصفها وصفًا دقيقًا.قال في وصف أعراض الجدري: "ويسبق ظهور الجدري حمى مستمرة تحدث، ووجع في الظهر وأكلان في الأنف، وقشعريرة أثناء النوم. والأعراض الهامة الدالة عليه هي: وجع الظهر مع حمى، وألم لاذع في الجسم واحتقان في الوجه وتقبضه أحيانًا،

وحمرة حادة في الخدين والعينيين، وشعور بضغط في الجسم ويزحف في اللحم، وألم في الحلق والصدر مصحوب بصعوبة في التنفس، وسعال وجفاف في الفم وغلط في الريق وبحة في الصوت، وصداع في الرأس وضغط في الدماغ، وهيجان وقلق وغثيان وقلة راحة، ولكن التهيج والقلق والغثيان أظهر في الحصبة منها في الجدري، في حين أن وجع الظهر أشد في الجدري منه في الحصبة".

ويقول الدكتور (سارطون): "إن رسالة الرازي في الحصبة والجدري تتناول أقدم وصف سريري للجدري، وهي إحدى روائع الطب الإسلامي".

وللرازي كتاب آخر في صفات (البيمارستان) وأحوال المرضى الذين يعالجون فيه، ويقول عبيد الله بن جبرائيل: إنه لما عمر عضد الدولة (البيمارستان) الجديد الذي على طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد، وكان الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع، وهم أربعة وعشرون طبيبًا، كان يجري لهم الرواتب الكبيرة، ومن جملتهم أبو الحسن علي بن إبراهيم، وأبو يعقوب الأهوازي، وأبو عيسى بقية، والقس الروحي وبنو حسنون، وكان مع هؤلاء الأفاضل الثقاة بعض المجبرين المشار إليهم ومنهم أبو السلط، وبعض الجراحين ومنهم أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح.

ويقال إن الرازي كان متوليًا العمل في (بيمارستان الري) ثم نقل إلى البيمارستان العضدي، فأظهر عطفه الشديد على المرضى، وكان يقضي

وقته كله في العمل على إراحتهم وبذل كل ما في طاقته من مهارة طبية في سبيل تطبيبهم وعلاجهم. ويقول محمد بن إسحق النديم في رواية لمحمد بن الحسن الوراق: قال لي رجل من أهل الري وكان شيخًا كبيرًا، سألته عن الرازي: "كان شيخًا كبير الرأس مسفطة(٧٥)، وكان يجلس في مجلسه دونه التلاميذ، ودونهم تلاميذ ودونهم تلاميذ آخرون، فيصف ما يجده لأول من يلقاه، فإن كان عندهم وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك.وكان الرازي كريمًا متفضلًا بارًا بالناس، حسن الرأفة بالفقراء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم، ولم يفارق القراءة والنسخ، ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسج ما يسود أو يبيض، وكان في نظره رطوبة لكثرة أكله (الباقلاء)، وكف بصره في آخر عمره".

ويفهم من هذه الرواية أن الرازي كان حريصًا كل الحرص على الاتصال بتلاميذه، والاجتماع بهم والتحدث إليهم في شؤون صناعة الطب، وفي أثناء ذلك كان يمدهم بالمعلومات ويزودهم بالتجارب، وأنه فضلًا عن ذلك كان إنسانًا كريمًا نبيلًا، يتصدق على الفقراء ويشركهم في ماله وينفعهم بخبرته في الطب، فيطببهم بالمجان، وهو بذلك يضرب مثلًا عاليًا لكل من يريدون ممارسة هذه الصنعة ومن يمارسونها بالفعل، ويعدون أنفسهم لتخفيف آلام المرضى، وبخاصة هؤلاء الذين اشتهروا بالحذق والمهارة.كذلك كان الرازي قارئًا لا يمل القراءة، شديد العناية

---

(٧٥) مسفط الرأس: كبيرة، تشبيهًا بالسفط، والسفط: وعاء كالقفة أو الجوالق.

بتسجيل آرائه وتجاربه؛ إذ كان وقته موزعًا على إفادة تلاميذه، والعناية بالمرضى والقراءة والاطلاع والكتابة والبحث في غوامض صناعة الطب، والكشف عن الجديد في أصول المعالجات.

ومن كتبه أيضًا (منافع الأغذية)، وهو يعطينا فكرة واضحة عن اتجاه أطباء العرب في أساليب العلاج، فقد كان هؤلاء الأطباء لا يهتمون بعلاج المرضى فحسب، ولكنهم كانوا مع ذلك يبذلون عناية خاصة بتدبير الوسائل التي تساعد على حفظ الصحة، عملًا بالحكمة القائلة: "درهم وقاية خير من قنطار علاج".

ومما يروى في ذلك أن الخلفاء كانوا يستمعون إلى نصح أطبائهم، وينفذون في دقة ما يشيرون به عليهم، ويمنعونهم تناول بعض الأغذية، ويوضحون لهم ما تسببه من فساد لآلات البدن، وفي هذا دليل على أنهم مهروا في دراسة مختلف أنواع الأغذية من حيث نفعها ودفع مضارها. فقد درسوا خواص المأكولات والمشروبات، وبتتبع أحوال المرضى كانوا يعرفون ما يضرهم من الأغذية وما يناسبهم منها، وكانوا في الوقت نفسه ينصحون الأصحاء بالابتعاد عن تناول بعض المأكولات أو بالتخفيف منها؛لأنها تجلب للجسم المفاسد.

وكتاب الرازي مثال لذلك، ويتحدث عنه الدكتور الأب (ج) شحاته قنواني فيقول: إنه يتكون من تسعة عشر فصلًا، فيتحدث الرازي في الفصل الأول عن السبب في تأليف كتابه، وفي الفصل الثاني يتحدث عن منافع الحنطة (القمح)، والخبز الذي يؤخذ منها ومضاره، وما يتخذ

من الوسائل لدفع هذه المضار، ثم يتكلم عن أصناف الخبز، ويبين ما يناسب منها في حال من الأحوال وما لا يناسب، وفي الفصل الثالث يبين منافع الماء الذي يشرب، وأصناف الثلج والجمد والماء البارد والحار، وفي الفصل الرابع يتحدث عن منافع الشراب المسكر ومضاره، وفي الفصل الخامس يتكلم عن الأشربة غير المسكرة.

وفي الفصل السادس يتكلم عن اللحوم ومنافعها ومضارها، وفي الفصل السابع يتحدث عن القديد وهو اللحم المجفف بالملح، وفي الفصل الثامن يتحدث عن السمك ومنافعه ومضاره، وفي الفصل التاسع يتكلم عن أعضاء الحيوان واختلافها وطبائعها ومنافعها ومضارها، وفي الفصل العاشر يتكلم عن ألوان الطبيخ والبوارد ومنافعها، وفي الفصل الحادي عشر يتكلم عن الكوامخ والجبن العتيق والقنبيط والزيتون والمخللات ونحوها، وفي الفصل الثاني عشر يتحدث عن اللبن وما يتخذ منه، وما يجري مجراه، وفي الفصول الباقية يتكلم عن البيض والبقول التي تؤكل نيئة أو مطبوخة، والتوابل والأبازير التي تستعمل مع الطبيخ، ثم يتكلم عن الفواكه الرطبة واليابسة والحلواء وغيرها.

كذلك من كتب الرازي كتاب في الأمراض التي تصيب جسم الإنسان، وكيف تعالج مختلف الأدوية وأنواع الأغذية.وقد أحدث هذا الكتاب ثورة كبيرة في عالم الطب في العصور الوسطى، وكتاب آخر طريف في موضوعه، وهو كتاب (من لا يحضره الطبيب)، وقد وضعه ليؤدي به خدمة كبرى للفقراء الذين لا يستطيعون إحضار الطبيب

للفحص عن مرضهم والقيام بمعالجتهم؛ لذلك أطلق عليهم هذا الكتاب (كتاب طب الفقراء)، وفيه يشرح كيفية معالجة الموض في حال غياب الطبيب، والأدوية التي ينتفع بها في العلاج، وقد يسر بهذا العمل الجليل العلاج لكل إنسان، ولا شك أن هذا الصنيع يدل على الجانب الإنساني العظيم الذي عرف به هذا الطبيب العربي الكبير.

٥- بعض آرائه في الطب:

وللرازي آراء طبية عظيمة القيمة في هذه الصناعة، وهي مبعثرة في كتبه، غير أنها في جملتها تكون دستورًا طبيًا يعترف به الطب الحديث اليوم، وما يزال ينتفع بتطبيق الكثير مما تضمنه ذلك الدستور الطبي، ومما ورد فيه من آراءقوله: "إذا كان الطبيب عالمًا والمريض مطيعًا، فما أقل لبث العلة"، وغير شك أن هذا الرأي يترجم عن نظرية طبية ستظل صادقة إلى ما شاء الله. وقوله: "ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة، فليكن إمامك". وقوله: "على طالب الصناعة (يقصد صناعة الطل) أن يزور على الدوام البيمارستانات[٧٦]ودور العلاج، وأن يوجه انتباهًا لا يفتر إلى أحوال من فيها وظروفهم، وهو في صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء، وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم، ذاكرًا ما قرأه عن تلك التغيرات وعما تدل عليه من خير أو شر، فإن هو فعل ذلكبلغ مرتبة عالية في هذه الصناعة".

وقوله: "إذا استطعت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب".

---

(٧٦) البيمارستانات: المستشفيات.

وقوله: "الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج بما تصفه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر"، فقوله: "إن الحقيقة في الطب غاية لا تدرك"دليل إيمانه القوي بتطور صناعة الطب، وفي قوله: "ذاكرًا ما قرأه عن تلك التغيرات"حث على الاتصال بكتب الصناعة ومداومة الاطلاع، وبذلك يبلغ الطبيب منزلة عظيمة. ثم يقول: "إن العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأمراض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ". وقوله: "متى اجتمع جالينوس وأرسطوطاليس على معنى فذلك هو الصواب، ومتى اختلفا صعب على العقول صوابه جدًا".

وقوله: "من لم يعنِ بالأمور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية، وعدل إلى اللات الدنيوية، فاتهمه في علمه، ولا سيما في صناعة الطب". وقال: "الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار". وقال: "الناقهون من المرض إذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم، فيجب على الطبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطعام وصرفه إلى كيفية موافقتهم، ولا يمنعهم ما يشتهونالبتة". وقال: "الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايتهم وكثرت شهواتهم قتالون"وقال: "ينبغي للطبيب ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علله من الداخل ومن الخارج، ثم يقضي بالأقوى، وينبغي للمريض أن يقتصر على طبيب واحد ممن يوثق بهم، فخطؤه في جنب صوابه يسير جدًا، ومن تطبب عند كثير من الأطباء، يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم". وقال: متى كان اقتصار الطبيب على التجارب

دون القياس وقراءة الكتب خذل، وينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلًا على الدنيا كلية، ولا معرضًا عن الآخرةكلية فيكون بين الرغبة والرهبة.

ومما يدل على عبقريته الطبية إشارته إلى اختلاف خطوط عروض البلدان، وأثر ذلك في العلاج ومزاج الجسم، فقال: "بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات، وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعاداتوطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة، وما في الرابعة في الثانية". وقال: "إذا استطاع الحكيم أن يداوي بالأغذية دون الأدوية، فقد وافق السعادة".

تلك بعض أقواله في أصول صناعة الطب، وهي دالة بلا ريب على عقلية فذة في هذه الصناعة، فقد تناولت دستورًا طبيًا عمليًا، يستطيع أن ينتفع به كل من الطبيب والمريض في عصرنا. وحبذا لو اقتدت جامعاتنا الطبية العربية بجامعة (برنستون) الأمريكية، فعملت على إعداد أركان خاصة لدراسة الطب العربي، وإحياء ذكرى هؤلاء الأعلام من أطباء العرب.ونحن اليوم نؤمن إيمانًا عميقًا بالقومية العربية، ونعمل في إخلاص على أن تكون أسلوب حياة لنا وأسلوب تفكير وعمل، وغير شك أنه في مقدمة العوامل التي تحقق لنا هذه الأهداف الكبرى أن نبعث تراث هؤلاء العلماء، وأن نقرر فصولًا كثيرة من كتابي (الحاوي) للرازي و(القانون) لابن سينا؛ لكي تدرس في الجامعات العربية الطبية.

ولم يكن نبوغ الرازي مقصورًا على الطب وحده، فقد أضاف إليه نبوغه في الكيمياء وعلم الأدوية (الأقرباذين) والصلة قوية بين علوم الطب والكيمياء، واستطاع الرازي أن ينتفع في الطب بمعلوماته في الكيمياء، فكان أول من استعمل الملينات، واستخدم المركبات الكيماوية في الطب، كما مهر في التشريح بدرجة عظيمة، واستطاع بذلك أن يميز أعضاء الجسم بعضها من بعض، ومما يذكر أنه حينما فقد بصره في أيامه الأخيرة لم يرضَ بأن يقوم له أي طبيب بعملية قدح في عينيه إلا بعد امتحانه في عدد أغشية العين.

ويقول (هانزشيدر) في كتابه (روح الحضارة العربية)[٧٧]: "عرف المترجمون اللاتينيون الرازي باسم**Rhases**، ويعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين، وهو في الطب تلميذ (جالينوس)، ولكنه في الوقت نفسه ذو اتجاه تجريبي دقيق، فقد كان يعني –مستعينًا بمركزه مديرًا لبيمارستان بغداد– بالملاحظات (الإكلينيكية)، ويصف تجارب صيدلية دواء للمرضى، ولكنه يحاول في الوقت نفسه أن يعالج الأمراض بوصفات صحية وقائية ونظم للتغذية.

ذلك طبيب من أطباء العرب يعترف بفضله الغربيون، وقد كانوا أحرص على إنكار فضله منهم إلى الاعتراف بهذا الفضل لولا عظمة الطبيب، ولولا بقية من الأمانة العلمية، فهل بعد ذلك يمكن أن يتسرب الشك إلينا فنفقد الثقة بأنفسنا؟

---

(٧٧) نقله عن الألمانية، وعلق عليه عبد الرحمن بدوي ص١١٥ طبع دار الملايين.

وهذا ماضي العرب المجيد وهؤلاء أعلام تراثنا، لم يقدرهم من يهمهم أن يطمسوا معالم ماضينا المشرق، لقد آن لشبابنا أن يسقط، وأن يقف على تلك الآثار الخالدة التي تدعو إلى الإعجاب الشديد بما وصل إليه آباؤنا وأجدادنا العرب في عصورهم الزاهرة من علوم ومعارف، قامت على أساسها هذه المدنية الحاضرة، التي هي وليدة عصر الذرة وغزو الفضاء. ولو أن أحداث التاريخ لم تقف بالعرب بعد سقوط بغداد، ولو أن الانقسام والخلاف والحروب المحلية لم تعصف بالأمة العربية الموحدة الكبرى، لكان من الحتم أن يكون العرب اليوم هم الذين مارسوا تحطيم الذرة، وهم الذين عرفوا أسرارها وقاموا بغزو الفضاء، وابتكار الأقمار الصناعية، ومن يدري؟ فلعلهم كانوا يفعلون ذلك كما يشهد بهذا ماضيهم العلميمن أجل خير الإنسانية وخدمة السلام في العالم كله.

٦- حكايات وطرائف:

حفلت حياة الرازي في عالم الطب بكثير من الحوادث والطرائف والحكايات الغريبة التي تدل على تمهره في صناعة الطب وما تفرد به في مداواة المرضى من تصرفات حكيم خبير بعلل الأجسام، ووصف بعض الأدوية التي لم تخطر ببال أحد من الأطباء، وقد وقعت له أثناء معالجة المرضى بعض الحكايات المثيرة، أشار إلى بعضها كتاب (الحاوي).ومن هذه الحكايات[٧٨] ما رواه القاضي أبو علي الحسن بن علي بن أبي جهم التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة، وقد نقل روايته عن محمد بن علي

(٧٨) ارجع إلى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج١.

بن الخلال أحد أمناء القضاة، وتقول هذه الرواية إن غلامًا من بغداد قدم الري وهو ينفث الدم، وقد أصيب بذلك وهو في طريقه إلى الري، فاستدعى له الطبيب أبو بكر الرازي المشهور بالحذق، وصاحب الكتب المصنفة في الطب، وحينما رأى الغلام سأله عما حدث له، ومتى كان ذلك واستخدم مجسته وقام بالفحص الدقيق للغلام، فلم يقم له دليل على سل أو قرحة، ولم يعرف العلة، فطلب من أهل الغلام أن يعطوه فرصة لكي يفكر في الأمر، وعندئذ خشي الغلام على حياته، وبدأ اليأس الشديد يدب إلى نفسه؛ لأن الطبيب الحاذق قد جهل علته، غيرأن الرازي كان يعمل فكره ويراجع كتبه، وبعد ذلك بدت له فكرة فأسرع إلى المريض ليسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره الغلام بأنه شرب من بعض مستنقعات في جهة كذا، ومن الصهاريج(٧٩) المعدة للمسافرين.

وعندئذ وصل الرازي بحدة خاطره وجودة ذكائه إلى أن علقة من العلقات التي تعيش في الماء وتأكل من الطحالب قد نفذت إلى معدته مع الماء الذي شربه، وأن ذلك النفث الذي يشكو منه المريض لا بد أن يكون من فعلها، ثم قال للمريض: سأحضر غدًا لمعالجتك ولن أنصرف حتى تبرأ ان شاء الله، ولكن بشرط أن تأمر الخدم بأن يطيعوني فيك بما آمرهم به، فقال المريض: نعم.

وانصرف الرازي فملأ إناءين كبيرين من الطحلب الأخضر وأحضرهما معه في الموعد، ثم اطلع عليهما وقال له: إنني أريد أن تبلع

---

(٧٩) الصهاريج(جمع صهريج بكير الصاد): حوض يجتمع فيه الماء.

جميع ما في هذين الإناءين، فبلغ المريض شيئًا يسيرًا منهما، ثم وقف فقال له: ابلع، فقال: لا أستطيع، فقال للخدم خذوه فأنيموه على قفاه، ففعلوا به ذلك، وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه، وأقبل الرازي يدس الطحلب في حدقه ويكبسه كبسًا شديدًا، ويطالبه ببلعه شاء أم أبى ويتهدده بالضرب، إلى أن بلع كارهًا كل ما في أحد الإناءين، وكان الغلام يستغيث فلا ينفعه مع الرازي شيء.إلى أن قال الغلام: إن ما بلعته سأقذفه الآن بالرغم مني، فرد على ذلك الرازي بأن زاد فيما يكبسه في حلقه، ولكن الرغبة في القيء كانت قد تغلبت على الغلام فقذف كل ما في معدته، وكان الرازي يتأمل بدقة ما يخرجه منها، فوجد فيه علقة من العلقات التي تعيش في المياه الآسنة، وأما سبب خروجها فيرجع إلى أنها حين أحست وجود الطحلب في معدة المريض اندفعت إليه بطبعها، وتركت موضعها ثم التفت حول الطحلبة، وحينما قذف الغلام ما في معدته من الطحلب خرجت معه، ولم يلبث الغلام بعد ذلك حتى نهض معافى وقد زال كل ما به، وينقل القاضي التنوخي رواية أخرى(٨٠) منسوبة إلى أبي بكر بن قارن الرازي الطبيب، وكان تلميذًا لأبي بكر بن محمد بن زكريا الرازي، وقد سمع ابن قارن هذه الرواية من أستاذه التي تقول إنه مر ببلدة (نيسابور بيقام) أثناء سفره إلى خراسان، وكان قد ذهب إليها لعلاج أميرها من علة صعبة أصابته، وتقع هذه البلدة في منتصف الطريق بين نيسابور والرس، وقد استقبله رئيس هذه البلدة وأنوله داره وقام بخدمته

---

(٨٠) راجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الجزء الأول.

على أحسن وجه، ثم طلب صاحب الدار من الرازي أن يقف على حال ابن له به استسقاء، فأجاب الرازي طلبه، وعندئذ قام به إلى دار أخرى كان قد أفردها للمريض وحده، وأقام على خدمته امرأة عجوزًا، وعندما رأي المريض وبحث حالته لم يطمع في شفائه ولكنه لم يظهر شيئًا من ذلك أمام المريض، بل مناه بالشفاء القريب، غير أنه عندما انفرد بأبيه صارحه بحال ابنه، وقال له مكنه من شهواته ولا تمنع عنه شيئًا، فإنه لا يعيش.

ثم استأنف سيره إلى خراسان وأمضى بها قرابة سنة كاملة، وعند عودته مر بهذه البلدة مرة ثانية، فخرج صاحب الدار لاستقباله، ثم حياه بسرور وطلب منه أن يحل به ضيفًا، فاستحيا منه الرازي؛ لأنه لم يشك في وفاة ولده، وكيف ينزل بداره وقد سبق أن أيأسه في ابنه، ونزل الرازي ضيفًا على الرجل على كره منه، كما كره أن يسأله عن ابنه خوفًا من أن يجدد حزنه عليه، إذ كان يعتقد أنه مات بلا ريب. وذات يوم سأل الرجل الرازي فقال له: أتعرف هذا الفتى؟ وأومأ إلى شاب حسن الوجه والصحة كثير الدم والقوة، وكان قائمًا مع الغلمان بخدمة الرازي، فقال: لا أعرفه. فقال الرجل: هذا ولدي الذي آيستني منه بعد أن عرضته عليك، وأنت بدارنا أثناء توجهك إلى خراسان. فتحير الرازي وعجب كل العجب، ثم أخذ يسأل الرجل عن أسباب شفائه، فقال الرجل: إنك بعد أن سافرت وكنت قد ألقيت اليأس في قلبي، وأنا أعلم أنك أوحد الطب في زمانك، لم أشك أبدًا في المصير الذي قدر لولدي، وقد شعر ابني بما في

نفسي، فقال لي: إنني أعلم أن هذا الطبيب العظيم قد أخبرك بأنني لن أبرأ من مرضي، ثم طلب مني أن أمنع عنه رؤية الغلمان الذين هم من سنه ويتمتعون بصحتهم فإن ذلك يؤلمه، وقد يسبب له حمى تعجل بوفاته، فنفذت له رغبته واحترمت إرادته، وأفردت له فلانة (الداية) لتقوم بخدمته، بحيث يكون بعيدًا عن كل ممن لا يحب أن يراهم. وكانت (الداية) تحمل إليه كل يوم طعامه، وكنا نقدم إليه كل ما يشاء.

واتفق في يوم من الأيام أن بعثنا بإناء به طعام مطهو للداية لكي تأكل منه، فتركت الإناء بالقرب من ولدي وبحيث يقع نظره عليه، وذهبت لبعض شأنها، وعندما عادت وجدت ابني قد أكل أكثر ما في الإناء، ولم يترك فيه إلا شيئًا يسيرًا، وحينما وقع نظر الداية عليه رأته متغير اللون، فسألته عما حصل، فقال لها لا تقربي ما في الإناء وجذبه إليه، وكان قد شاهد ثعبانًا كبيرًا خرج من موضعه فعثر بالإناء فأطل فيه وأكل منه شيئًا، ثم قذف فيه فتغير لونه، وحكى لها هذه القصة. ثم قال لها: أنت تعلمين أنني ميت ولا أود أن يلحقني ألم شديد، فإذا أكلت من هذا الطعام لاقيت نهايتي من غير عذاب. ثم أكل من هذه الطعام المسموم بعض كفايته، وأرادت العجوز أن تمنعه أو تأخذ منه الإناء فلم تستطع ثم أقبلت إلي مسرعة وقصت علي القصة وهي في غاية من الاضطراب والرفع، فهاجت نفسيوألم بي غم شديد، وذهبت إلى ابني من فوري، فوجدته نائمًا مستغرقًا في نومه، فقلت لا توقظه حتى ننظر ما يكون من أمره، ثم انتبه آخر النهار وقد عرق عرقًا شديدًا ثم طلب أن يستحم، فذهبنا به إلى المستحم، وبعدئذ أصابه إسهال شديد استمر ليلته

وغداة هذه الليلة، وقد عمل أثناء ذلك مئة مجلس فازداد يأسنا منه، إذ استمر ذلك أيامًا، ولكنه لم يلبث أن طلب فراريج ودجاجًا، فأكل منها كفايته، ولم تزل قوته تعود إليه شيئًا فشيئًا. وقد كان بطنه قد التصق بصدره من شدة الإسهال، وعندئذ قوي أملنا في عافيته، ومنعناه التخليط في الطعام حتى ازدادت قوته، إلى أن صار كما تراه الآن.

فأبدى الرازي مرة أخرى عجبه الشديد، ثم قال: لقد ذكر الأوائل أن المصاب بالاستسقاء إذا أكل من لحم حية عتيقة مزمنة عاشت مئين من السنوات برئ من مرضه، ولو كنت قلت لك هذا لسخرت مني، ثم من أين يتحقق لك عمر هذه الحية إذا وجدتها؟! ومن أجل ذلك سكت عن وصف هذا الدواء، والآن لقد تحقق ما كان يدور في نفسي مما يدل على صدق الأوائل.

٧- الرازي بين الطب والكيمياء:

العلاقة قوية بين علوم الطب والكيمياء، وقد أدرك العرب هذه العلاقة فجمع أشهر أطبائهم بين الطب والكيمياء، وقد توسع العرب في مناهج التخصص في العلوم العالية، إذ كانوا يرون أن هذه العلوم يغذي بعضها بعضًا، ولكي ينبغ الطبيب أو الحكيم الفيلسوف لا بد أن يجمع في نبوغه بين أكثر من علم واحد. وعلى هذا النحو رأينا أعلام التراث العربي يجمعون بين الطب والفلسفة والكيمياء وغيرها من العلوم، وكان الرازي واحدًا من أولئك الأعلام، فدرس الكيمياء في استيعاب وفهم، وأحاط بكثير من دقائقها.

ويقول الأستاذ (كويلريونج): "وعند بعض الباحثين أن الرازي فاق جابرًا في تعرفه الدقيق للمواد، وفي أوصافه الواضحة للعمليات والأجهزة الكيميائية، وهو لم يرتضِ تقسيم المواد إلى أجسام ونفوس وأرواح، ولكنه أصر على ما لا يزال مستعملًا حتى الآن من التصنيف إلى حيوان ونبات ومعدن، وقد كانت أعماله معروفة للغرب اللاتيني، وكان (بيكون)[٨١] يقتبس منها. والأستاذ كويلريونج من أساتذة جامعة (برنستون) الأمريكية، التي أفردت جناحًا خاصًا لدراسة آثار الرازي وتخليد ذكرى هذا الطبيب العبقري والكيميائي العظيم، الذي يعده كثير من العلماء (مؤسس الكيمياء الحديثة)، ولا يمكن أن يتسرب إلى النفوس أي ظل من الشك في الحكم على أعمال الرازي.

---

(٨١) بيكون أو باكون: هو روجر باكون الفيلسوف الإنجليزي الفرنسسكاني، ولد في سنة ١٢١٤م في (ايلشستر) وتوفي في سنة ١٢٩٢م، بدأ تعليمه في أكسفورد وأتم تحصيله في باريس، درس اللغات أولًا ثم الرياضيات عملًا بالمنهج الغربي. ثم عكف على دراسة الكيمياء والطبيعيات، وقد نسبت إليه عدة آراء وابتكارات علمية، غير أن المحققين من العلماء المنصفين قد أوضحوا أنه نقل هذه الآراء عن العرب ونسبها إلى نفسه، ويتفق (سيديو) العالم الفرنسي في كتابه (تاريخ العرب) مع (جوستاف لوبون) صاحب كتاب (حضارة العرب)، على أن كثيرًا من الآراء والاكتشافات المنسوبة لعلماء الإفرنج تبين وجودها بعد ذلك في كتب العرب، وأن الإفرنج أخذوها عنهم ونسبوها لأنفسهم أو نسبت إليهم، ومن ذلك أن باكون تكلم عن اختراع (بارود المدافع) وتركيبه الكيميائي، ولكنه اتضح أن كلامه مأخوذ من كتب العرب، ويؤكد المستشرق الفرنسي (رينو) أن الصينيين لم يستعملوا إلا ملح البارود في القذائف النارية، أما الذين توصلوا إلى معرفة (دقيق البارود) الذي ما زال يستعمل إلى اليوم في قذف الأجسام الثقيلة فهم العرب. ولباكون مؤلفات قيمة، منها مرآة الكيمياء وأعمال الطبيعة والفن وبطلان السحر، والتدبير في تأجيل هرم الشيخوخة وفي المحافظة على حواسنا، والكتاب الأخير ألفه وهو في السجن للبابا (نيقولا) الرابع؛ ليبين له فوائد مؤلفاته وأنها لا تدعو إلى الكفر، وهو صاحب مذهب تجريبي في البحث وأستاذ المنطق الاستقرائي.

وقد اتفق أكثر العلماء على أنه كان يسلك في تجاربه مسلكًا علميًا خالصًا، وقد أشرنا إلى أن عبقرية الرازي لم تظهر في الطب والكيمياء فحسب بل كان إلى جانب ذلك فيلسوفًا، له آراؤه الفلسفية؛ لذلك نراه يجعل للعقل شأنًا كبيرًا في حياة الإنسان، فهو القوة العظيمة التي امتاز بها الإنسان، وبها فضله الله على الحيوان. وبالعقل المفكر استطاع الإنسان أن يعمل على تسخير قوى الطبيعة، فيما يعود عليه بالخير العميم، ومن أجل ذلك نادى الرازي بضرورة الرجوع إلى العقل في كل أمر من الأمور، وأوصى بأن ينزه العقل عن النزول إلى مستوى الشهوات وأهواء النفوس.

وكما ألف الرازي في الطب كتبًا أشرنا إلى بعضها، كذلك ألف في الكيمياء، ومن كتبه المشهورة في الكيمياءكتاب (سر الأسرار)، ويتضمن هذا الكتاب شرحًا مفصلًا لمنهج الرازي في البحث والتجربة، وهو يقوم على أسس علمية دقيقة ماتزال متبعة إلى يومنا هذا، فهو يبدأ بوصف المواد التي يشتغل بها، ثم يتحدث عن وصف الآلات والأدوات التي يستعملها، ثم ينتقل إلى وصف الطريقة التي يسير عليها في تحضير (الخميرة)، والمقصود من الخميرة المركب الذي يعده لتحويل المعادن من نوع إلى نوع آخر، وهذا الأسلوب في البحث الكيميائي شبيه بما يتبع اليوم في المختبرات الحديثة.

وفضلًا عن ذلك نراه يبدي اهتمامًا كبيرًا بشرح الأجهزة المعقدة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية، ومما يجب أن ننوه عنه أن الرازي

طبق معلوماته الدقيقة في الكيمياء على الطب تطبيقًا يدل على عبقريته، وهو لا يفتأ يطبق هذا القانون في كل حالة من الحالات: "شفاء المريض يحدث بسبب تفاعل كيميائي يحدثه الدواء في جسم المريض".

ويقسم الرازي المواد إلى أربعة أقسام أساسية وهي: المواد المعدنية، والمواد النباتية، والمواد الحيوانية، والمواد المشتقة، ثم يقسم المواد المعدنية إلى ست طوائف بسبب اختلاف خواصها، وهذا التقسيم يختلف عما كان عليه تقسيم علماء الكيمياء في عصره، وهو في الوقت نفسه يدل على إلمام الرازي بخواص المواد وطرق تفاعلاتها. واستحضر بعض الحوامض بطرق لاتزال مستعملة إلى اليوم، ومن هذه الحوامض: حامض الكبريتيك (وكان يسميهزيت الزاجأو الزاج الأخضر)، وعنه عرفه العلماء من بعده وكانوا يسمونه (حجر الفلاسفة)، كذلك استنبط الكحول بطريقة تقطير المواد النشوية والسكرية المتخمرة، وكان لوصوله إلى استنباط (الكحول) أثر كبير في إعداد الأدوية في عصره، فقد كانت الصيدليات في ذلك الزمان تعتمد عليه في تجهيز الأدوية، كما كان يستعمله في أنواع من العلاجات أثناء قيامه بتدريس الطب في مدارس بغداد.

ونبغ الرازي في عمل حساب الكثافات النوعية للسوائل، واستعان على ذلك بابتكار ميزان خاص سماه الميزان الطبيعي، ويتحدث المرحومجورج زيدانفي كتابه تاريخ التمدن الإسلامي عن الحوامض التي وصل العرب إلى معرفتها، فيقول: "إن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (حامض النيتريك ٩)، وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء

الذهب (حامض النيتريك والهيدروكلوريك)، وعرفوا كذلك البوتاسا والأمونيا، وكلوريد الأمونيوم، وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني (كلوريد الزئبق)، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق)، وملح الطرطير، وملح البارود والزاج الأخضر كبريتات الحديدوز.

ويقول ابن الأثير[٨٢]: "إن العرب استعملوا في معركة الزنج[٨٣] سنة ٢٦٩هـ بعض الأدوية إذا طلي بها الخشب امتنع احتراقه".

واكتشف العرب الحامض الأزوتي، وهو الذي يستهلك منه العالم اليوم كميات كبيرة في الصناعات المختلفة، كذلك عرف العرب صناعة الزجاج، وتفننوا فيها، وكذلك صناعة الورق. ولا يخفى ما لصناعة الورق من أثر في تقدم العلوم والمعارف وازدهار المدنيات ورقي الحضارات، والمعروف أن علوم الكيمياء دخلت أوروبا وهي تحمل أسماء عربية

---

(٨٢) ابن الأثير: هو عز الدين بن الأثير الجزري، خاتمة مؤرخي العصر العباسي أرخ في كتابه الكامل الخليقة من مبدئها إلى سنة ٦٢٨هـ، ورتب فيه الحوادث بحسب السنين، فيذكر السنة ثم يستعرض ما وقع فيها من أحداث هامة، فجرى على طريقة الطبري من قبله؛ لذلك قيل إنه اختصر كتاب الطبري وزاد عليه إلى عصره، ومن كتبه (أسد الغابة) ترجم فيه لأكثر من سبعة آلاف صحابي، وتوفي في سنة ٦٣٠هـ.

(٨٣) الزنج أو الزنج: قوم من السودان وأحدهم زنجي، ويقال إن رجلًا فارسيًا ظهر في البحرين سنة ٢٤٩هـ، وادعى أنه من نسل علي وكان إباجيًا في مذهبه فانضم إليه عدد كبير من الناس، ثم دعا العبيد والأرقاء للدخول في دعوته، ومناهم الخروج على سادتهم ووعدهم بالحرية والسيادة والتملك، ولما قوي شأنه رفع راية العصيان وعاث في الأرض فسادًا، وقد دامت الحرب بين الزنوج والدولة العباسية زهاء عشر سنوات، حتى تمكنت من القضاء على ثورتهم في سنة (٢٧٠هـ) وفي زمن الموفق.

كالأنبيق، والإكسير، والكحول والقصدير والتنور، والزرنيخ والدانق والخميرة. وانتفع العرب بالكيمياء في الطب وفي كثير من الصناعات بخاصة صناعة الأدوية.

وكان الرازي كما أشرنا من قبل في مقدمة أطباء العرب الذين استخدموا الكيمياء في صناعة العقاقير الطبية، مما يدل على أن البحوث الطبية عند العرب كانت مرتبطة بالبحوث الكيميائية، واستخدم العرب الكيمياء في تنقية المعادن وتركيب الروائح العطرية ودبغ الجلود، وصبغ الأقمشة وصنع الفولاذ. ويمكن الجزم بأن العرب أنشؤوا مدرسة كيميائية، كان لها أكبر الفضل في تقدم الكيمياء الحديثة وإقامتها على الملاحظة والتجربة والاستنباط، وقد توصل الأوروبيون في ضوء البحوث العربية في الكيمياء والمعدنيات إلى اكتشاف البارود الذي استخدموه أسوأ استخدام، فقد اعتمدوا عليه في العدوان في قذائف الحصار وتدمير الحصون، كما استخدموا الذرة في ارتكاب أبشع الجرائم ضد الإنسانية، ومن مؤلفات الرازي في الكيمياء كتابه (الرد على الكندي في إدخال صناعة الكيمياء في الممتنع) وكتاب (الحجر الصفر)، وكتاب (محنة الذهب والفضة)، و(الميزان الطبيعي)، وقد ترجم أكثر هذه الكتب إلى اللاتينية.

ابن سينا

هو الطبيب الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سينا **Avecena**، عاش في عصر اتسع فيه نفوذ أمراء الديلم، وأخذ خطرهم يستفحل شيئًا فشيئًا حتى أصبحوا يهددون كيان العباسيين، ثم انتهزوا فرصة ضعف الخلافة في أيام الخليفة المكتفي، فانقضوا على بغداد واحتلوها في سنة ٣٣٤هـ، والديلم طوائف وثنية كانت تسكن أول أمرها الأراضي الواقعة في الجنوب الغربي من بحر الخزر، وكانت تعتبر جزءًا من بلاد فارس، ولم يلبث الإسلام أن دخل بلادهم، فأسلم عدد كبير منهم، ثم أخذ أمراء هذه البلاد يشتد ساعدهم في عهد مرداويغ بن زيار الجبلي الذي استولى على همذان، وامتد ملكه إلى حدود العراق.

وكان من قواده المخلصين ثلاثة من أعيان الديلم، وهم الحسن وعلي وأحمد أبناء (بويه)، وكان (بويه) رجلًا متوسط الحال وكنيته أبو شجاع، واستطاع أبناؤه الثلاثة أن يلعبوا دورًا كبيرًا في بناء الدولة البويهية، وكانت سياسة البويهيين تقوم على أساس إزالة الخلافة العباسية وإحياء الدولة الساسانية الفارسية، ولما تم لآل بويه الاستيلاء على بغداد بدؤوا ينفذون سياستهم، فأخذوا يطبعون على مسكوكاتهم كلمة (شاهنشاه) وهو لقب ملوك إيران قبل الإسلام.

ويلاحظ أنه لم يكن للدولة البويهية سلطان مركزي، إذ لم يكن الحكم فيها لملك واحد تخضع له جميع البلاد، فقد اقتسم أعضاء أسرة بويه

السلطان فيما بينهم. وأخذ النفوذ السياسي ينتقل بين هؤلاء الأعضاء، ومن العجيب أن هذا النظام في الحكم لم يؤدِ إلى ضعف بني بويه، بل ساعد على نمو الحياة في المدن وازدياد الحضارة والتقدم العلمي، فقد كان كل أمير منهم يحرص على أن يجمع في قصره عددًا كبيرًا من العلماء، الذين كانوا يجدون كثيرًا من العطف والرعاية والتشجيع؛ لأن هؤلاء الأمراء كانوا يبالغون في الحرص على ازدهار الحضارة في مدينتهم.

وقد بينا من قبل أن الدولة البويهية ذات ميول فارسية؛ لذلك أخذت مراكز الحضارة تنتقل من بغداد والبصرة إلى الري وأصفهان[٨٤] وشيراز[٨٥]، واهتم البويهيون بإنشاءالمكتبات الكبيرة، وتشجيع العلوم الوضعية، ومما يروى أنه كان بشيراز مرصد فلكي كبير، أقيم على أحدث الأساليب العلمية، ومن التقاليد التي ابتدعها البويهيون، وكانت من أكبر العوامل في تقدم العلوم في عصرهم، أن أحد وزراء البويهيين أنشأ في بغداد مجلسًا علميًا يشبه إلى حد كبير المجامع العلمية في عصرنا، وكان يجتمع فيه في اليوم الأول علماء الفقه، وفي اليوم الثاني الأدباء، وفي اليوم الثالث علماء الكلام، وفي اليوم الرابع الفلاسفة.

---

(٨٤) أصفهان أو أصبهان: مدينة قديمة ببلاد الجبال كانت تسمى **Aspanada**، دخلها الإسكندر المقدوني وأسلمها للسلب والنهب، وهي وطن أبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة **٣٥٦**هـ، وهو صاحب الأغاني، وكانت قاعدة ركن الدولة ابن بويه، الذي استوزر ابن العميد الكاتب المشهور.

(٨٥) شيراز: مدينة في الجنوب من فارس بناها محمد بن القسم بن أبي عقيل، وكانت قاعدة عماد الدولة بن بويه، وفيها سيبويه إمام نحاة البصرة.

في هذه الأيام التي توافرت فيها بواعث التشجيع العلمي عاش ابن سينا، فقد ولد في إحدى قرى بخارى (٣٧٠هـ)، ومنذ بدأ ينضج عقله وتظهر بوادر عبقريته بدأت أيضًا فترة ازدهار الدولة البويهية، ولقد لقي ابن سينا في تشجيع أمرائها ما ساعده على النبوغ، ولم تكد تمر أيام حتى أخذ الأمراء يعتمدون عليه في خدمتهم، فقام بذلك في همذان[٨٦] وأصفهان، ثم أخذ ينتقل بين الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الخرز وغيرها من البلدان المجاورة، وكان نبوغه في الطب سبب اتصاله ببني بويه، كذلك اتصل بالأمير نوح بن منصور الساماني، وظل يضرب في الأرض إلى أن وافته منيته.

١- حياته:

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا الحكيم المشهور، كان أبوه من أهل بلخ[٨٧] وانتقل إلى بخارى[٨٨]، وهي يومئذ حافلة بالعلماء في زمن نوح بن منصور الساماني

---

(٨٦) همزان: مدينة ببلاد الجبال من فارس واسمها عند الأشوريين (هجماتانا) وعند اليونان (اكباتان) **Ecbatan**، وكانت قاعدة مملكة ميديا القديمة **medie**، وبها توفي الرئيس علي بن سينا سنة ٤٢٨هـ، وهي وطن أبي الفضل بديع الزمان صاحب الرسائل والمقامات المتوفى سنة ٣٩٨هـ في مدينة هراة، كما هي وطن طائفة كبيرة من أهل العلم والفضل.

(٨٧) بلخ: مدينة بين جوزجان وطخارستان، فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وفيها نشأ أبو زيد البلخي صاحب كتاب صور الأقاليم، وهو من أقدم كتب الجغرافيا عند العرب.

(٨٨) بخاري: من بلاد ما وراء النهر فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٩٠هـ، وكانت قاعدة الدولة السامانية التي ظهرت فيما وراء النهر سنة ٨٧٤هـ، وأول أمرائها نصر بن أحمد بن

من ملوك الدولة السامانية، وهي دولة فارسية نشأت بعد انقسام الدلة العباسية إلى عدة دويلات، وكان أبوه من العمال الكفاة، وتولى العمل بقرية من ضياع بخارى يقال لها (خرميثن)، وقيل إن الرئيس ابن سينا ولد بها. وأما أمه فتدعى (ستاره) وهي من قرية (أفشنة) بالقرب من (خرميثن).ويقول ابن أبي أصيبعة في طبقاته أنه ولد في أفشنة، ويؤيده القفكي[٨٩]، أما ابن خلكان فقد روى أنه ولد بخرميثن.

ويعطينا هذا الخلاف في تحديد مكان ولادة الشيخ الرئيس أن مؤرخي العرب كانوا يهتمون بالتحقيق التاريخي، وإن كانوا قد قصروا في نواحٍ أخرى، وقد يكون من الطريف أن ندع ابن سينا نفسه يتحدث عن نشأته بأسلوب العالم الفيلسوف المتأدب فيقول: "إن أبي كان رجلًا من أهل بلخ، وانتقل إلى بخارىأيام نوح بن منصور الساماني، واشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء إقامته بقرية (خرميثن) من ضياع بخاري، وهي من أمهات القرى، وبقربها قرية يقال لها (أفشنة)، وتزوج أبي منها بوالدتي، وقطن بها وسكن، وولدت منها بها ثم ولد أخي، وانتقلنا إلى بخارى، وأحضر لي معلم القرآن، ومعلم الأدب، حتى كان يقضي مني العجب.

سامان، وهي وطن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين، وصاحب الجامع الصحيح، وبالقرب منها قرية (خرميثن).

(٨٩) القفطي: هو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف، وزير حلب بمصر في مدينة فقط من بلاد الصعيد، وبعد أن تفقه في العلم أقام في بيت المقدس، ثم تولى القضاء بحلب أيام الملك الظاهر، وسماه القاضي الأكرم أو الوزير الأكرم، وله كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، وهو مطبوع بمصر، وتوفي سنة ٦٤٦هـ.

وكان أبي من (الإسماعيلية)[٩٠]، وقد سمعت فيه ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه. وكذلك أخي، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي، وابتدؤوا يدعونني إليه ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلاسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ أبي يوجهني إلى رجل يتبع النقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلي[٩١]وكان يدعى التفلسف، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه، وأتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين.

وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على

---

(٩٠) الإسماعيلية: فرقة من الشيعة سميت بهذا الاسم؛ لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق الإمام السادس، وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر لابنه إسماعيل، وكان جعفر قد عين ابنه إسماعيل خلفًا له، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني (موسى) لأنه لقي إسماعيل ثملًا، ولكن الإسماعيلية لم يسلموا بنزع الإمامة من إسماعيل، لانهم كانوا يرون أن الإمام معصوم وأن شرب الخمر لا يفسد عصمته، وأنه يجوز لله أن يأمر بشيء ثم ينسخه. على نقيض ما قرر جعفر، وتوفي إسماعيل بالمدينة سنة ١٤٣هـ أي قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام، ودفن بمقبرة بقيع الفرقد، وانتشرت الإسماعيلية في فارس والشام والهند وغيرها، ومن معتقداتهم أنهم ينكرون صفات الله ويقولون إنه فوق متناول العقل وإن العقل عاجز عن إدراك كنهه.

(٩١) أبو عبد الله الناتلي: نسبة إلى ناتلة، وهي مدينة بطبرستان، نسب إليها فضلًا عن أبي عبد الله الناتلي قوم آخرون من أهل العلم، منهم: أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عمر الحلبي الناتلي، المتوفى سنة ٥١٧هـ.

الوجه الذي جرت عادة القوم به، ثم ابتدأت بكتاب (إيساغوجي)[٩٢] على الناتلي، ولما ذكر لي حد الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو؟ أخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع مثله، وتعجب مني العجب وحذر والدي من شغلي بغير العلم. وكانت أي مسألة قالها لي أتصورها خيرًا منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه، أما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح، حتى أحكمت علم المنطق. وكذلك كتاب إقليدس[٩٣] فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره، ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لي الناتلي: "تولَّ قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها علي لأبين لك الصواب من الخطأ".

---

(٩٢) إيساغوجي: هو اقتباس من كتاب المدخل إلى مقولات أرسطو الذي ألفه فرفوريوس الصوري، يقول صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: إن ابن المقفع هو الذي نقل هذا الكتاب من اليونانية مباشرة، في حين يذكر ابن النديم في الفهرست أن أيوب ابن القاسم هو الذي نقله إلى العربية عن ترجمة سريانية، ويتناول إيساغوجي من مسائل المنطق، والحد والتعريف والقضايا أو الحكم والتضاد والتناقض، والقياس والجدل، والخطابة والشعر والسفسطة.

(٩٣) إقليدس: **Eucid**، فيلسوف يوناني رياضي، قيل إنه ولد في الإسكندرية وتوطن في بلاد الإغريق قبل الميلاد بثلاثمئة سنة، ثم جاء إلى الإسكندرية وافتتح مدرسة لتعليم الرياضيات، فصارت أشهر مدرسة في مصر، وأشهر كتبه كتابه المعروف بأصول (إقليدس)، منه قسم في الهندسة ما زال يعتمد عليه في مدارس إنجلترا، واشتغل العرب بهذا الكتاب وشرحوه، وممن شرحه (نصر الدين الطوسي) وإقليدس: لفظ يوناني مركب من (إقلي) بمعنى المفتاح و(دس) بمعنى المقدار أو الهندسة، فمعناه مفتاح الهندسة وهو غير إقليدس الميغاري الذي كان سفسطائيًا.

وما كان الرجل يقوم بالكتاب، وأخذت أحل ذلك الكتاب، فكم من مشكل ما عرفه إلى وقت عرضته عليه وفهمته إياه! ثم فارقني الناتلي متوجهًا إلى (كركانج). واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح، من الطبيعي والإلهيات، وصارت أبواب العلم تتفتح علي، ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرؤون علي علم الطب، وتعهدت المرضى، فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة.

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة مانمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت في النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهورًا، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، ورتبتها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تتحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، فكلما كنت أتحير في مسألة –ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس– ترددت على الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح الله لي المنغلق وتيسر المتعسر.

وكنت أرجع بالليل إلى داري، وأضع السراج بين يدي، واشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب

قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى اتضح لي وجوه كثير من هذه المسائل في المنام، وبذلك استحكمت معي جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني، وكل ما علمته في ذلك الوقت كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم حتى أحكمت علم المنطق والرياضي والطبيعي، ثم عدلت إلى الإلهي.

وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس علي غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، ويئست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وفي يوم من الأيام حضرت في وقت العصر إلى الوراقين، وكان بيد (دلال) مجلد ينادي عليه فعرضه علي، فرددته رد المتبرم معتقدًا أنه لا فائدة في هذا العلم، فقال: اشتر مني هذا، فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريه فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي[٩٤] في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت في قراءته، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك

---

(٩٤) الفارابي: هو أبو نصر محمد بن محمود بن طرخان بن أوزلغ الفارابي (٨٧٠هـ/٩٦٠م)، ونسبته إلى فاراب التي تدخل في أرض خراسان وراء نهر سيحون، كان والده قائدًا من قواد الجيوس، وهو فارسي الأصل، ويقال إن الفارابي كان في أول حياته ناطورًا في بستان بمدينة دمشق، وفي أثناء الليل كان يقرأ كتب الحكمة على ضوء قنديل حارس البستان، وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أبا نصر كان أعظم فلاسفة الإسلام قبل ابن سينا، وأنه تركي النسب ولد في قرية دسيج، وهي محلة صغيرة في إقليم فاراب فيما وراء النهر. وتقول أكثر المصادر إن الفارابي يدعى المعلم الثاني؛ لأنه أعظم مفسر لكتب أرسطو وبخاصة كتبه المنطقية.

الكتاب بسبب أنه كان محفوظًا على ظهر القلب، وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكرًا لله تعالى.

وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور الساماني اتفق له مرض تحير الأطباء فيه، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة، فأجروا ذكري بين يديه وسألوه إحضاري، وشاركتهم في مداواته، فسألته يومًا الإذن لي في دخول دار كتبهم للمطالعة وقراءة ما فيها من كتب الطب فأذن لي، فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض، في بيت فيه كتب بالعربية والشعر وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد، فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضًا من بعد، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه، فما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري حتى فرغت من هذه العلوم كلها، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه معي اليوم أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي شيء بعده.

وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسين العروضي، فسألني أن أصف له كتابًا جامعًا في هذه العلوم، فصنفت له (المجموع) وسمته به، وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي، ولي إذ ذلك إحدى وعشرون سنة من عمري. وكان في جواري أيضًا رجل يقال له أبو بكر البرقي خوارزمي المولد، متوحد في الفقه والتفسير والزهد، مائل إلى هذه العلوم،

فسألني شرح الكتب له فصنفت له كتاب (الحاصل والمحصول) في قريب من عشرين مجلدًا، وصنفت له في الأخلاق كتابًا سميته كتاب (البر والإثم)، وهذا الكتابات لا يوجدان إلا عنده فلم يعرأحدًا نسخًا منهما.

ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال، وقدمت شيئًا من أعمال السلطان، ودعتني الضرورة إلى ترك بخارى والانتقال إلى (كركانج)، وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيرًا، وتقدمت إلى الأمير بها، وهو علي بن مأمون، وكنت على زي الفقهاء إذ ذلك، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى (نسا) ومنها إلى (باورد) ومنها إلى (طوس)[٩٥]ومنها إلى (سمنيقان)، ومنها إلى (جاجرم) رأس حد خراسان[٩٦]، ومنها إلى جرجان[٩٧].

---

[٩٥] طوس: عاصمة بلاد خرسان قديمًا وقد توفي هارون الرشيد، وولد أبو حامد الغزالي سنة ٥٥٠هـ، ونصير الدين الطوسي الفلكي الرياضي الفيلسوف، كما ولد فيها الفردوس الشاعر الفارسي المشهور، صاحب الشهنامه، وهي قصيدة تشتمل على تاريخ الفرس، قيل إنها تتألف من ٦٠ ألف بيت كإلياذة هومير اليوناني.

[٩٦] خراسان: إقليم من أكبر الأقاليم الفارسية، فتحه الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

[٩٧] جرجان: مدينة وإقليم عظيمان بين طبرستان وخراسان، وإقليم جرجان كان يدعى قديمًا إقليم هرقانية **Hyrcanie**، وهو إلى الجانب الشرقي من بحر الخرز، وكانت مدينة جرجان قاعدة الدولة الزيارية التي ظهرت بجرجان وطبرستان، وأول أمرائها مردوايخ ابن زيار سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، واستمرت كذلك إلى أن قوض عرشها المغول في القرن الثامن الميلادي.

وكان قصدي الأمير قابوس[٩٨]، فاتفق في أثناء ذلك أخذ قابوس وحبسه في بعض القلاع وموته هناك، ثم مضيت إلى (دهستان) ومرضت بها مرضًا صعبًا وعدت إلى جرجان، فاتصل بي أبو عبيد الجوزجاني، وأنشأت في حالي قصيدة منها بيتي القائل:

لما عظُمتُ فليس مصرٌ واسعي   لما غلا ثمني عَدِمتُ المشتري!

هذا حديث الشيخ الرئيس علي بن سينا عن قصة حياته، وقدر روى هذه القصة صديقه أبو عبيد الجوزجاني، ويقول الجوزجاني صاحب الشيخ الرئيس: إن هذا ما حكاه لي الشيخ من لفظه، وواضح من ذلك أن هذه العبارة من إنشاء ابن سيناء، وأن هذا أسلوبه في الحديث عن نفسه، ويلاحظ أن هذا الأسلوب يتحدث عن قصة حياته، وأنه يتميز بوضوح العبارة وسهولتها وبشيء من الجمال الفني. وقد كان بدهيًا أن ينزل أسلوبه عن هذا المستوى؛ لأنه فيلسوف وطبيب وعالم نفسي، ولكنه بالرغم من ذلك أبى إلا أن يكون أديبًا ممتازًا إلى جانب كونه طبيبًا مبتدعًا، وفيلسوفًا مبتكرًا، بدليل أنه كان يتصور مسائل العلم بطريقة أفضل من تصور أستاذه الناتلي لها، وأنه شرح له حد الجنس بما لم يسمع مثله، وأنه لم يقرأ من كتاب إقليدس عليه إلا خمسة أشكال أو ستة، ثم تولى بنفسه قراءة الكتاب كله.

---

(٩٨) قابوس: هو قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي من الملوك، وكان صاحب جرجان وطبرستان، وكان أخوه (بهستون) وأبوه (وشكمير) وعمه مردوايخ، ملوك الري وأصبهان وما يجاورهما، وكان قابوس فاصلًا أديبًا مترسلًا، وشاعرًا طريفًا، وله رسائل بأيدي الناس يتداولونها، وكانت بينه وبين الصاحب بن عباد مكاتبة، وتوفي سنة ٤٠٣هـ.

ويستوقفنا من هذه القصة ما ذكره ابن سينا عن نفسه حينما كانت مسائل العلم تثقل عليه، فتصعب دقائقها وتبعد عن ذهنه، فلا يجد الطريق معبدًا سهلًا للوصول اليها، وعندئذ كان يلجأ إلى الله تعالى مبدع كل شيء، الذي خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم، فكان يصلي إليه خاشعًا متبتلًا، ثم يسأله (جل ذكره) أن يعينه على فهم ما استغلق عليه، فما يكاد يفرغ من صلاته ودعائه في المسجدحتى يعود إلى داره، وهنالك يستأنف القراءة، فإذا العويص المبهم قد انفتح قفله، فوضحت له المعاني، ووعاها في سهولة وفهم دقيق.

وكذلك ما ذكره من أن علم مما وراء الطبيعة كان صعبًا عليه وأنه قد عجز عن فهم قضاياه، ثم يدفعه اليأس إلى زيارة سوق الوراقين عصر يوم، فيعرض عليه دلال الكتب (هو المنادي ببيع الكتب) كتابًا ليبتاعه، ولكنه يرده في شيء من العنف لما كان يشعر به من ضيق وهم؛ بسبب عدم فهمه لكتاب ما بعد الطبيعة، وهو من كتب أرسطو الفلسفية، ولكن الدلال يعود فيغريه بالشراء فيميل ابن سينا مدفوعًا بطبعه إلى حب الكتب ثم يشتري الكتاب، وإذا هو كتاب شرح الفارابي لما وراء الطبيعة، فيغمره الفرح الشديد إذ لم يكن يتوقع أن يحصل على هذا الكتاب، ثم يقرؤه كله فتتضح له جميع المسائل التي استعصت عليه ويفهمها فهمًا سريعًا.

كذلك نجد في هذه القصة ما يجب أن يحتذيه شبابنا، ويتخذوا منه باعثًا لهم على الجد في طلب العلم، فابن سينا كان يصل ليله بنهاره

باحثًا وقارئًا، ومسجلًا لما انكشف له من عويص المسائل العلمية، ومؤلفًا حينما يشعر بالتعب كان يفرغ قليلًا، كي يتناول قدحًا من الشراب حتى يستعيد نشاطه ويسترد قوته، ثم يستأنف القراءة والبحث والتدوين والتأليف، فهل لشبابنا المتطلع إلى المجد والقوة أن يتخذوا من حياة هذا الفيلسوف منهجًا وأسلوبًا لهم في القراءة والاطلاع والبحث؟ وهل من شبابنا من يريد أن يكون كابن سينا في جده ومثابرته وكفاحه في سبيل فهم قضايا العلم؟ وهل لشبابا أن يتجهوا إلى الله تعالى يستلهمون منه العون ويسألونه التوفيق كما كان يصنع ابن سينا؟ فلاريب أن المجد المتصل والصبر على متاعب تحصيل العلم، والإخلاص لله والاستعانة به، من أسباب التفوق العلمي والنبوغ والعبقرية.

ثم يتحدث أبو عبيد الجوزجاني عن بعض ما عرفه من أحوال الرئيس ابن سينا، وقد كان ملازمًا له فيقول:

لما كان الشيخ الرئيس ابن سينا بجرجان كان بها رجل يقال له (أبو محمد الشيرازي) يحب العلم، فاشترى للشيخ دارًا بجواره وأنزله بها، وكنت أختلف إليه في كل يوم أقرأ المجسطي وأستملي المنطق، فأملى علي المختصر الأوسط في المنطق، وصنف لأبي محمد الشيرازي كتاب (المبدأ والمعاد)، وكتاب (الأرصاد الكلية)، وصنف كتبًا كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطي وكثيرًا من الرسائل، ثم صنف في أرض الجبل بقية كتبه.

وأبو عبيد الجوزجاني راوية ثقة يتحدث عن أستاذه في أمانة وصدق،

فيذكر لنا فهرست كتبه، وسنأتي على بيان لها حينما نتحدث عن مؤلفات ابن سينا في فصل خاص، ويهمنا هنا أن نستعرض بعض القصص التي لابست تأليفه لبعض الكتب، وقد رواها الجوزجاني، فيقول: حينما انتقل الشيخ الرئيس إلى الري، واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة، وقد عرف في الري بسبب كتب قد وصلت تتضمن تعريف قدره، وكان مجد الدولة مريضًا بالسوداء، فاشتغل الرئيس بمداواته، وصنف إذ ذلك كتاب المعاد، وأقام بالري مدة إلى أن قصد شمس الدولة أبا طاهر ابن فخر الدولة بن بويه الديلمي، صاحب همدان وعراق العجم، ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى الخروج إلى (قزوين)[٩٩] ومنها إلى همدان، ولكنه عاد فتوثقت صلته بشمس الدولة؛ إذ كان يعالجه من مرض (القولنج) الذي أصابه حتى شفاه الله، فأعطاه شمس الدولة كثيرًا من المنح والهدايا.

ثم خرج الأمير في حرب واصطحب معه ابن سينا، ولم يوفق الأمير في حربه فتوجه إلى همدان، وقلد الشيخ الرئيس رياسة الوزراء فقبلها، وكان الشيخ متشددًا فتألب عليه العسكر، وسألوا الأمير قتله، ولكنه اكتفى بنفيه. ولكن شمس الدولة عاوده القولنج فأرسل في طلب الشيخ حتى حضر مجلسه، وعندئذ اعتذر الأمير بكل الاعتذار، فاشتغل بمعالجته، وأقام عنده محترمًا مبجلًا، وأعيدت إليه الوزارة ثانيًا، ويقول

---

(٩٩) قزوين: من بلاد الجبال، ومن أعظم المدن هناك، وهي وطن الإمام ابن ماجه، وهو من أئمة رجال الحديث، وصاحب كتاب (السنن)، والعلامة زكريا بن محمد القزويني صاحب كتاب (عجائب المخلوقات) في الفلك والجغرافيا والطبيعيات، وهو من أمهات الكتب العربية، وتوفي سنة ٦٨٢هـ.

الجوزجاني: وقد طلبت منه شرح كتب أرسطو فذكر أنه لا رفاغ له إلى ذلك في هذا الوقت.

ثم يعرض ابن سينا على صديقه أن يصنف له كتابًا يورد فيه ما صح عنده من آراء أرسطو، من غير أن يتعرض إلى مناقشة آراء المخالفين والرد عليهم، ويقول الجوزجاني: وقد رضيت به، فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه كتاب الشفاء، وكان قد صنف الكتاب الأول من القانون، وكان يجتمع كل ليلة في دار الشيخ الرئيس طلبة العلم، وكنت أقرأ من الشفاء مرة، وكان يقرأ غيري من القانون مرة، فاذا فرغنا من ذلك حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم، وهيئ مجلس للشراب للتجديد والتنشيط. وكانت مدارسة العلم بالليل لعدم الفراغ بالنهار؛ إذ كان الشيخ الرئيس مشغولًا بخدمة الأمير.

واستمر الحال على ذلك زمنًا حتى توجه الأمير إلى جهة (طارم) لمحاربة أميرها، فعاوده القولنج وهو على مقربة من (طارم) واشتد به، وشعر في الوقت نفسه بأمراض أخرى أصيب بها بسبب سوء تدبيره، وعدم تنفيذ وصايا الشيخ له، فخاف العسكر أن يموت فرجعوا به طالبين همدان، فمات في الطريق وعندئذ بويع ابن شمس الدولة، وطلب من الرئيس أن يتولى الوزارة فأبى، وكان قد كاتب علاء الدولة سرًا، يطلب خدمته والانضمام إلى جواره.

وينبغي أن نلاحظ أنه قد سبقت الإشارة إلى أن أسرة بني بويه قد اقتسمت فيما بينها السلطان، فكان في كل مدينة تقريبًا أمير بويهي؛ وإذًا

فلا نعجب إذا قلنا إن الشيخ الرئيس كان في خدمة مجد الدولة ووالدته، ثم كان في خدمة شمس الدولة، ثم كان في خدمة علاء الدولة. فهؤلاء جميعًا من أعضاء أسرة واحدة هي أسرة بني بويه، والذي لاشك فيه أنهم كانوا يتنافسون عليه؛ طلبًا لعلمه وانتفاعًا برأيه ومنشوراته.

ثم يحدثنا الجوزجاني فيقول: إن الشيخ قبل أن يذهب إلى علاء الدولة بعد أن كاتبه سرًا توارى ببين أحد أصدقائه وهو (أبو غالب العطار)، ثم طالبت الشيخ بإتمام كتاب الشفاء فاستحضر أبا غالب، وطلب منه الكاغد والمحبرة فأحضرهما، وكتب الشيخ في قريب من عشرين جزءًا على الثمن بخطه رؤوس المسائل، وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه، بل من حفظه وعن ظهر قلبه، ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء وأخذ الكاغد، فكان ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها.

وكان يكتب في كل يوم خمسين ورقة، حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات، ماخلا كتابي الحيوان والنبات ثم بدأ يكتب المنطق، وما كاد يفرغ من جزء منه حتى اتهمه تاج الدولة بن شمس الدولة بمكاتبته علاء الدولة وحث في طلبه، فدل عليه بعض أعدائه فقبض عليه رجال تاج الدولة، واعتقلوه في قلعة يقال لها (خردجان) وبقي بها أربعة أشهر، ثم قصد علاء الدولة (همدان) وهزم تاج الدولة واعتقله في القلعة التي كان بها الشيخ الرئيس، وأعيد الشيخ إلى همدان، ونزل في دار العلوي، واشتغل بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء.

وكان قد صنف أثناء اعتقاله بالقلعة كتاب الهدايا ورسالة (حي بن يقظان) وكتاب القولنج، ولما رجع إلى همدان صنف كتاب الأدوية القلبية، ثم عنّ للشيخ التوجه إلى أصفهان، فخرج متنكرًا وكنت معه، ويصاحبنا أخوه وغلامان له، وكنا جميعًا في زي الصوفية، إلى أن وصلنا إلى (طبران) على باب أصفهان، بعد أن قاسينا الشدائد في الطريق، فوجدنا في استقبالنا أصدقاء الشيخ وندماء الأمير علاء الدولة وخواصه، وقد حملوا إلى الشيخ الثياب والمراكب الخاصة، وأنزل في محلة يقال لها (كونكنبد) في دار عبد الله بن بابي، وفيها من الآلات والفرش ما يحتاج إليه.

ثم حضر الشيخ مجلس علاء الدولة، فلقي في مجلسه الإكرام والاعتزاز الذي يستحقه مثله، ثم رسم الأمير علاء الدولة ليالي الجمعات مجلس النظر بين يديه، بحضرة جميع العلماء على اختلاف طبقاتهم، والشيخ من جملتهم، فما كاد يطاق في شيء من العلوم. ومعنى عبارة (الجوزجاني) أن الشيخ الرئيس كان يملأ مجلس علاء الدولة بعلمه الفياض، وأنه كان يفوق جميع العلماء، وما كان واحد منهم يستطيع أن يأتي بشيء لا يعرفه ابن سينا، بل إنهم كانوا يتعلمون منه، وكان يصعب عليهم أن يفهموا كثيرًا من المسائل التي يقررها؛ لأنه لم يسبق لهم أن عرفوها.

ثم يقول أبو عبيد الجوزجاني: واشتغل في أصفهان بإتمام كتاب الشفاء، وأورد في آخر المجسطي في علم الهيئة أشياء لم يسبق إليها،

وكذلك أورد في كتاب إقليدس شبهات، وفي الأرثماطيقي خواص حسنة، وفي الموسيقى مسائل عجز عنها الأولون.

ثم صار الشيخ بعد ذلك من رجال حاشية علاء الدين المقدمين، وقد جرى في مجلس علاء الدولة ذكر الخلل الحاصل في التقاويم المعمول بها بحسب الأرصاد القديمة، وقام الشيخ بإصلاح هذا الخلل. وكان من عادة الشيخ الرئيس إذا وقع بيده كتاب أن يتجه بتفكيره إلى المواضع الصعبة والمسائل المشكلة؛ لكي يرى رأي المؤلف فيها، وفي ضوء هذا كان يتبين مرتبته في العلم ودرجته في الفهم.

وكان الشيخ جالسًا ذات يوم في مجلس الأمير علاء الدولة، وكان يحضر هذا المجلس أبو منصور الثعالبي[١٠٠]، فجرى الحديث حول مسألة في اللغة، وتكلم الشيخ عنها بما يتيسر له من معرفة اللغة، فالتفت إليه أبو منصور، وقال له: إنك فيلسوف وحكيم، ولكنك لم تقرأ في كتب اللغة بالقدر الذي يرضي كلامك فيه. فاستنكف الشيخ من هذا الكلام وعز عليه أن يستمع لومًا يوجه إليه؛ لأنه لم يكن حجة في اللغة لدرجة قلما تتفق لغيره، ثم أنشأ ثلاث قصائد وحشد فيها طائفة من الألفاظ الغريبة في اللغة، وكتب ثلاثة كتب، جعل الأول على طريقة ابن

(١٠٠) الثعالبي: هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، من أوفر كتاب القرن الخامس الهجري إنتاجًا، ولد في سنة ٣٥٠هـ في نيسابور **Nichapour** حاضرة خراسان، وتوفي سنة ٤٢٩هـ، وله مصنفات كثيرة في الأدب واللغة، أهمها يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

العميد[١٠١] والثاني على طريقة الصابي[١٠٢] والثالث على طريقة الصاحب[١٠٣]، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدتها ثم تقدم بها إلى الأمير، وأوعز إليه أن يختبر بها الشيخ أبا منصور، فيقول له: إنا قد عثرنا على هذه المجلدة في الصحراء أثناء الصيد، ثم يدفعها إليه لكي يرى رأيه فيها، ففعل ذلك الأمير، وحين نظر فيها أبو منصور أشكل عليه كثيرًا مما ورد فيها. فقال لهالشيخ الرئيس: إن ما تجهله من هذا الكتاب تراه مذكورًا في موضع كذا من كتب اللغة، وذكر له كثيرًا من الكتب المعروفة في اللغة، وكان الشيخ قد حفظ تلك الألفاظ منها، وعندئذ فطن أبو

---

(١٠١) ابن العميد: هو الوزير النابغة والكاتب الشاعر الفيلسوف، أبو الفضل محمد بن الحسين والعميد لقب أبيه، وهو فارسي الأصل ولد بمدينة (قم) بفارس، ودرس علوم الدين واللغة والفلك والفلسفة، وكان أبوه معروفًا بالعلم والتدبير، فاتصل ببني بويه، وعاونهم على تأسيس دولتهم، وورث ابن العميد صفات أبيه، فصار وزيرًا لركن الدولة ابن بويه، وكان واسع الاطلاع غزير المعارف، قصده أبو الطيب ومدحه بشيراز، وابتدع ابن العميد طريقة في الكتابة عرفت باسمه، وتوفي سنة ٣٦٠هـ.

(١٠٢) الصابي: هو أبو إسحق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون، مترسل بليغ شاعر وعالم بالهندسة، ولكن صناعة الكتابة والبلاغة والشعر غلبت عليه، ولد عام ٣٢٠هـ على وجه التقريب وتوفي سنة ٣٨٠هـ، وله ديوان شعر وكتاب رسائل، وله كتاب (التاجي) في دولة بني بويه وأخبار الديلم.

(١٠٣) الصاحب بن عباد: هو كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد وزير آل بوية وكاتبهم، وأحد المذيعين للسجع والجناس، ولد سنة ٣٢٦هـ بطالقان قزوين، وكان أبوه من خيرة كتاب بني بويه ووزرائهم، أخذ عن أبيه ثم اتصل بابن العميد، وتنقل في خدمة ملوك بني بويه، وكان له مجلس أدبي يعد من أزهى بيئات النقد في القرن الرابع الهجري، وسلك مسلك ابن العميد في طريقته= =الفنية غير أنه أولع بالسجع والجناس، ومن مصنفاته المحيط في اللغة ويقع في سبعة مجلدات، وله رسالة في إظهار مساوئ المتنبي، وتوفي سنة ٣٨٥هـ.

منصور إلى أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ، فتنصل واعتذر إليه.

وتدل هذه القصة على أن عبقرية ابن سينا لم تكن مقصورة على الطب والفلسفة بل كانت في اللغة أيضًا، وكانت دراسة سنوات ثلاث كافية لإحاطته بالكثير من كتب اللغة وإكسابه القدرة على صوغ الرسائل المختلفة التي تمثل المذاهب الأدبية في النثر في عصره، ومن العجيب حقًّا أن ينبغ ابن سينا في اللغة، وأن يكون الصاحب وابن العميد والصابي في هذه المدة القليلة، ولم يكن معروفًا بأنه من ذوي الميول الأدبية الخالصة، بل لقد يصل بنا العجب درجة كبيرة إذا علمنا أن صاحب الميول العلمية لا يمكن أن يتحول فيصير من ذوي الميول الأدبية، وأن يبلغ في النواحي الأدبية والعلمية معًا درجة النبوغ والعبقرية.

ويقول الجوزجاني: إن الشيخ الرئيس ألف كتابًا في اللغة سماه (لسان العرب)، ولم يؤلف مثله في العربية، ومن الأسف أنه بقي في مسودته فلم يتمكن الشيخ من تبييضه؛ إذ أدركته الوفاه، ولم يهتد أحد إلى ترتيب هذا الكتاب إلى الآن.

وظل الشيخ الرئيس يخدم علاء الدولة لما لقيه عنده من حسن التكريم، فبقي معززًا مكرمًا، غير أنه كان قوي المزاج تغلب عليه الرغبة في النساء، فكان ذلك مما أنهك جسده وأضعف بدنه، هذا إلى أنه كان كثير الرحلة والنشاط والعمل، وحينما كان بأصبهان مرض بالقولنج وهو مرض معوي، يؤدي إلى احتباس الثقل والريح بالجسم، ولما اشتد عليه وطأة المرض حقن نفسه ثماني مرات في يوم واحد، ويقال إن ذلك كان

سببًا في إصابته بقرحة في أمعائه. وقد ازداد عليه واستشرى المرض في بدنه بسبب كثرة تنقله مع علاء الدولة بين همذان وأصبهان، وأخيرًا وصل إلى همذان، وقد ضعفت صحته كثيرًا فأهمل التداوي، وقال عن نفسه: إن المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره، فما بي حاجة إلى المعالجة.ويقال إنه اغتسل وتاب وتصدق بماله على الفقراء ورد المظالم على من عرفه، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام، ومازال كذلك حتى وافته منيته بهمذان في يوم الجمعة ومن شهر رمضان سنة ٤٢٨هـ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره، وقيل إن قبره تحت السور من جانب القبلة بهمذان، وقيل إنه نقل إلى أصفهان على باب (كونكنبد).

٢- صلته بعلماء عصره:

وقد اتصل أبو علي بكثير من علماء عصره منهم ابن مسكويه[١٠٤] وأبو الريحان البيروني، وأبو القاسم الكرماني وغيرهم، ولم يكن هذا

---

(١٠٤) ابن مسكويه: هو أبو علي الخازن أحمد بن محمد الملقب بمسكويه، كان مجوسيًا ثم أسلم، وجمع بين علوم الأدب والكيمياء والفلسفة، واشتغل بطلب الذهب بالطبخ، فلم يحصل على طائل، ثم ندم وخدم ابن العميد، وتولى له مكتبته، كما قيل أنه كان أثيرًا عند السلطان عضد الدولة، وكان طبيبًا لغويًا مؤرخًا، ويذكر القفطي أنه وضع كتابًا في الطب، وله في التاريخ كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم، وقد وصل فيه إلى سنة ٣٧٢هـ، وكتاب آداب العرب والفرس وهو مخطوط في ليدن، وقد خلف مذهبًا فلسفيًا في الأخلاق لا يزال له شأن في الشرق إلى يومنا هذا، وهو مزيج من آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومن أحكام الشريعة الإسلامية، وله في ذلك كتاب تهذيب الأخلاق وهو مطبوع متداول، وتوفي سنة ٤٢١هـ، ومسكويه تركيب أعجمي كسيبويه ومعناه رائحة المسك.

الاتصال مبنيًا على أساس الأخذ عنهم والانتفاع بما عندهم من علم، بل كان هؤلاء العلماء يفيدون من علمه ويكسبون من خبرته وتجاربه، وقد تتلمذ في صدر حياته على أبي عبد الله الناتلي.وقد أشرنا من قبل إلى رأيه في أستاذه ودرجته في العلم، وهو مع ذلك لا ينكر فضله عليه، فقد مهد أمامه الطريق إلى أبواب المعرفة، وأثار فيه الرغبة في الاستزادة من العلم، وحث أباه على أن يوفر لابنه الاشتغال بالعلم ولا يصرفه عنه إلى غيره، لما توسمه فيه من علامات النبوغ والعبقرية.

ويعترف الشيخ الرئيس بفضل الفارابي عليه، وقد بينا من قبل أنه قد بلغ به اليأس كل مبلغ بسبب عدم فهمه لعلم ما وراء الطبيعة، وقد قرأ كتب هذا العلم، واستعاد قراءتها مرات كثيرة، وماتزال مسائل هذا العلم غير واضحة في ذهنه، إلى أن عثر على كتاب لأبي نصر الفارابي في شرح قضايا هذا العلم، فعكف على قراءته، ومنذ ذلك اليوم فهم علم ما وراء الطبيعة، وقد عزا هذا الفضل إلى كتاب الفارابي، ولشدة فرحه بتحقيق ما كان يسعى في طلبه، ويلح كل الإلحاح في فهمه، أخذ يتصدق على الفقراء شكرًا لله مما يدل أوضح دلالة على تقدير أبي علي للعلم، ورغبته الملحة في تحصيل العويص من مسائله، وتوضيح المشكل من قضاياه.

وقد كان لأبي علي طريقة فريدة في تحصيل العلم نقلها صديقه أبو عبيد الجوزجاني، وأشرنا إليها من قبل، فإذا أشكل عليه تفسير مسألة علمية واستعصى عليه فهمها، لجأ إلى الصلاة والدعاء فصلى لله وسأله أن ييسر له شوارد العلم والمعرفة، وأن يفتح له أبوابها المغلقة، وبهذه

الطريقة كانت تتفتح أمامه وجوه المشكلات المعقدة، وتبدو أمامه واضحة، ويدل هذا التصرف من جانب الشيخ الرئيس على إيمانه العميق بالله تعالى، وأنه قادر وحده على تذليل الصعب أمام عقل الإنسان.

٣- رأي علماء العرب والإفرنج فيه:

كان أبو علي بن سينا فيلسوف الشرق العظيم؛ لذلك أنصفه المتقدمون والمتأخرون من علماء الإفرنج والعرب، فاعترفوا بأنه من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع والمواهب النادرة والعبقرية الفذة. اشتغل بالطب والفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق، وقد ترك في كل ذلك تراثًا خالدًا ساعد على رقي الإنسانية وتقدم الحضارة العلمية، ويلقبه بعض كتاب الفرنجة (أرسطو الإسلام وأبقراطه). غير أن الاستاذ (دي بور) صاحب كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام يحمل على ابن سينا في غير حق، فيدعي بأنه رجل من المشتغلين بأمور الحياة الدنيوية، والمقبلين على متاعها، فما له ولمشقة العناية بفلسفة أرسطو؟

وهو بهذا الادعاء يحاول أن يخطئ مؤرخي الفلسفة الإسلامية الذين يقررون أن ابن سينا أعلى كعبًا من الفارابي في تقرير مذهب أرسطو وشرحه. واعتمد (دي بور) في دعواه على الرواية التي تقول إن ابن سينا استعصى عليه فهم كتاب أرسطو فيما وراء الطبيعة بعد أن قرأه أربعين مرة، وإنه يئس من فهمه، فلما أتيح له الاطلاع على كتاب الفارابي في شرح أغراض أرسطو فيما وراء الطبيعة، اتضحت له المسائل العويصة التي عز عليه فهمها وعجز عن تصورها، اتخذ (دي بور) من ذلك حجة

على أن الفارابي كان أكثر فهمًا لفلسفة أرسطو من ابن سينا، وأنه كانت له صفات الفلاسفة بدليل انقطاعه للفلسفة، أما ابن سينا فلم يكن منقطعًا لها.

ولكن (دي بور) مع ذلك يرجع يشيد بابن سينا ويعترف بفضله، فيقول إنه عرف كيف يجمع مادة بحثه التي اقتبسها من كل صوب جمعًا تتجلى فيه المهارة، كما عرف كيف يعرض بحوثه في صورة سهلة الفهم، وإن لم يسلم في هذا من تدقيق متكلف أحيانًا، وكان يستثمر كل دقيقة من حياته استثمارًا تامًا، ففي أثناء النهار كان يوجه همه إلى العناية بشؤون الدولة، أو يشتغل بالتدريس، وكان يخصص بعض ليله للاستمتاع بمحافل الصداقة والأنس واجتناء اللذات.ومع ذلك فكم شهدته الليالي عاكفًا على التأليف، قلمه بيده وقدح الشراب إلى جانبه، ويفهم من هذا أن ابن سينا لم ينقطع للفلسفة كما كان شأن فلاسفة اليونان، وكما كان شأن الفارابي الذي وقفحياته على التأمل الفلسفي.

وربما كانلـ(دي بور) عذره، فهو مؤرخ في كتابه لفلاسفة المسلمين، وقد كانت شهرة ابن سينا باعتباره طبيبًا تفوق كثيرًا شهرته باعتباره فيلسوفًا، وفضلًا عن ذلك فقد كان مترجمًا صادق التعبير عن روح عصره، كما كان متصلًا بالحياة العامة، ولذلك لم يضيع وقته كله في قراءة شراح أرسطو، ومما رفع من شأنه أنه كان يمزج علم اليونان بالحكمة الشرقية، وقد نقل عنه أنه كان يقول: "لقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا".

وقد أحصى العلامة الألماني (وستنفلد) من مؤلفات ابن سينا مئة وخمسة من الكتب في علوم الطب والفلسفة والدين والفلك واللغة والأدب والموسيقى والهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها. والكثير من هذه المؤلفات نقل إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية، ومنها كتاب القانون في الطب، وكتاب قلب الإنسان، وكتاب الأرجوزة في الطب، وكتاب الشراب، وكتاب مختصر الحيوان، وكتاب الحجر الفلسفي، وكتاب السماء والعالم، وكتاب النفس، وكتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب الطبيعيات والكيمياء والمنطق والحدود والتعريفات والفلسفة الأولى، وكتاب المبدأ والمعاد، والأوساط الكلية والمختصر الأوسط في المنطق، وكتاب القولنج والأدوية القلبية، وكتاب القضاء والقدر، والأجرام السماوية ومختصر في النبض ومختصر إقليدس، وأقسام الحكمة، ورسائل إخوانية وسلطانية.

وقد أحصى الأب جورج شحاته قنواتي لابن سينا مئتين وستة وسبعين كتاب ورسالة، وأودعها كتابًا ضخمًا له شبيهًا بدائرة معارف خاصة، تتحدث عن آثار ابن سينا وتراثه العظيم.يقال إن الشيخ الرئيس كان يكتب كل يوم خمسين ورقة من تصنيفه، ولقد أضاف الشيخ الرئيس كثيرًا إلى ثروة البشر العلمية على الرغم مما كان يحيط به من ظروف، فقد عاش في عصر كثرت فيه الفتن والاضطرابات، واشتغل بالوزارة حينًا، كما كان كثير التنقل نتيجة لأحداث عصره، ومع ذلك استطاع أن يضع مؤلفات كثيرة تمثل موسوعات ضخمة حوت كثيرًا من دقائق العلم

والطب والحكمة والفلسفة، وكل ما ابتكره الأقدمون، وتمتاز هذه المؤلفات بمادتها الغزيرة وبعقلية ابن سينا الجبارة وتفكره واستنباطه وتجاربه، كما تتسم بطابع الدقة والعمق في البحث والترتيب، مما لا تجده في أكثر مؤلفات القدماء من علماء اليونان أو العرب؛ ولذلك يقول الشهرستاني(١٠٥): إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة، ونظره إلى الحقائق أعوص.

لقد كان لمؤلفات ابن سينا أثر كبير في نهضة أوروبا العلمية، فامتدت بسببها آفاق النظر لدى الغربيين، وأصبح للفكر العربي التأثير البعيد في بلاد الفرنجة، وكانت فلسفة ابن سينا تمثل هذا الفكر، فكانت تدرس في أكثر الجامعات الأوروبية، وما زال جانب منها إلى اليوم يدرس بالجامعات الكاثوليكية، ومن مؤلفاته التي نالت شهرة عظيمة القانون في الطب والشفاء في الحكمة.

٤- كتاب القانون:

وكتاب القانون هو أعظم مؤلفات ابن سينا وأنفسها، اشتهر كثيرًا في ميدان الطب، واشتغل به علماء أوروبا وأطباؤها زمانًا طويلًا، كما كان موضع الدراسة والبحث والمرجع الأول في الطب في الجامعات الأوروبية

(١٠٥) (الشهرستاني): هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم المتكلم على مذهب الأشعري، كان إمامًا مبرزًا في الفقه والكلام، تفقه على أحمد الخوافي وأبي نصر القشيري وغيرهما، وألف كتبًا منها (الملل والنحل)، وكان كثير المحفوظ حسن المجاورة كثير الوعظ، ودخل بغداد سنة ٥١٠هـ، وكانت له بها منزلة كبيرة، وتوفي بشهرستان سنة ٤٥٨هـ، وشهرستان كلمة أعجمية مركبة من شهر بمعنى مدينة و(استان) بمعنى ناحية، فمعناها مدينة الناحية.

حتى نهاية القرن السابع عشر للميلاد. جمع ابن سينا في هذا الكتاب كل ما عرف عن طب الأمم السالفة، وأضاف إليه كثيرًا مما ابتكره من أنواع العلاج ووسائل الفحص الطبي وتشخيص الأمراض، وأحدث ما عرف إلى ذلك الوقت من علم التشريح، وقد نسخ بما أورده فيه أكثر ما أشارت إليه الكتب الطبية السابقة؛ ولذلك نوه عنه الطبيب الإيطالي المؤرخ (كاستليون) في كتابه تاريخ الطب المطبوع في سنة ١٩٣١م فقال: إن تميز هذا الكتاب عن كل ما سواه من كتب الطب في العصور الوسطراجع إلى دقة ابن سينا في الشرح والتحليل بطريقة تهذيبية تعليمية بارعة، وإلى إتقان تبويبه وتقسيمه، وترتيب الموضوعات الطبية التي عالجها، بحيث كفى الأطباء مؤونة البحث في ذلك العصر فيما عداه.

ويقول العلامة براون (**Browne**) في كتابه الطب العربي عن قانون ابن سينا: إن طابعه الموسوعي وتنسيقه الدقيق وتصميمه الفلسفي، بل لعل أسلوبه العنيف في الجزم أيضًا، مضافًا إلى شهرة المؤلف في غير الطب من ميادين الفكر= كل هذا أعطى القانون مكانة فريدة في الأدب الطبي في العالم، وقد استطاع عمليًا أن ينسخ مؤلفات الرازي وعلي ابن العباس[١٠٦] بالرغم من قيمتها المعترف بها.

---

(١٠٦) علي بن العباس: هو علي بن العباس المجوسي، توفي سنة ٣٨٤هـ/١٩٦٤م، وله كتب طبية مختلفة ومن أشهرها (الكتاب الملكي)، أو كتاب الكامل في الصناعة الطبية، جعله عشرين مقالة، ومن أهم هذه المقالات التي تتحدث عن الحمية، أي تدبير الجسم بالأغذية، والتي

ويقول السير (وليم أوسلر) في القانون: "إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمان". ويشتمل القانون على مالا يقل عن مليون كلمة، وقد قسمت أبوابه على حسب أدق التصانيف العلمية؛ ولذلك كان أول كتاب منظم على الأصول الحديثة في الأدب الطبي، وقد قسم فيه الأمراض لأول مرة في تاريخ الطب إلى رأسية وصدرية وباطنية وعصبية ونسائية وتناسلية، وهو يشرح كل قسم شرحًا دقيقًا، ويفصل الكلام عن كل مرض تفصيلًا وافيًا، متحدثًا عن نشأته وأسبابه وأعراضه ومداواته ونتائجه، ونترك الآن للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا الفرصة لكي يحدثنا عن كتابه بأسلوبه، فيقول في مقدمته ما يأتي:

الحمد لله حمدًا يستحقه بعلو شأنه وسبوغ إحسانه، والصلاة على نبيه المصطفى محمد وآله وأصحابه الطاهرين وبعد، فقد التمس مني بعض خلص إخواني، ومن يلزمني إسعافه فيما يسمح به وسعيأن أصنف في الطب كتابًا، مشتملًا على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالًا يجمع إلى الشرح والاختصار، وإلى إيفاء الأكثر حقه من البيان والإيجاز، فأسعفته بذلك.ورأيت أولًا ان أتكلم عن الأمور العامة الكلية في قسمي الطب، أعني القسم النظري والقسم العملي، ثم بعد ذلك أتكلم عن كليات أحكام قوى الأدوية المفردة ثم في جزئياتها، ثم بعد ذلك عن الأمراض الواقعة بالأعضاء عضوًا عضوًا.

تتحدث عن الأقرباذين (المواد التي تدخل في تركيب الأدوية)، وهو من المؤلفات الطبية العربية التي نقلها الصليبيون.

فأبتدئ أولًا بتشريح ذلك العضو، ابتدأت في أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها، وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلي أيضًا، فإذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية، ودللت أولًا في أكثرها على الحكم الكلي في حده وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت إلى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلي للمعالجة، ثم نزلت إلى المعالجات الجزئية بدواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة في الجداول والأصباغ التي أرى اشتمالها عليه؛ كي تقف أيها المتعلم عليه إذا وصلت إليه، ولا أكرر إلا قليلًا منه، وما كان من الأدوية المركبة إنما الأحرى به أن يكون في الأقرباذين.

ثم يقول: ورأيت أن أفرغ من هذا الكتاب إلى كتاب أيضًا في الأمور الجزئية، مختص بذكر الأمراض، التي إذا وقعت لم تختص بعضو بعينه، ونورد هنالك أيضًا الكلام عن الزينة، وأن أسلك في هذا الكتاب أيضًا مسلكي في الكتاب الجزئي الذي قبله. فإذا انتهينا بتوفيق الله من الفراغ من هذا الكتابأتيت بعده بكتاب (الأقرباذين)، وهذا الكتاب (يقصد كتاب القانون) لا يسع من يدعي هذه الصناعة ويتكسب بها إلا أن يعترف بأنه جله معلوم ومحفوظ عنده، فإنه يشتمل على أقل مالابد منه للطبيب.وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط، وإن أخر الله في الأجل وساعد القدر، انتصبت لذلك انتصابًا ثانيًا.

ثم يقسم ابن سينا كتابه إلى خمسة كتب:

الكتاب الأول في الأمور الكلية في علم الطب.

الكتاب الثاني في الأدوية المفردة.

الكتاب الثالث في الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الإنسان عضوًا عضوًا، أي بكل عضو على حدة من الرأس إلى القدم.

الكتاب الرابع في الأمراض الجزئية التي إذا وقعت لم تختص بعضو من الحميات.

الكتاب الخامس في تركيب الأدوية، وهو الأقرباذين.

وأما الكتاب الأول فيتناول أربعة فنون:

الفن الأول في حد الطب وموضوعاته في الأمور الطبيعية.

والفن الثاني في تصنيف الأمراض والأسباب والأعراض الكلية.

والفن الثالث في حفظ الصحة.

والفن الرابع في تصنيفوجوه المعالجات بحسب الأمراض الكلية.

ثم يقسم الفن الأول إلى ستة تعاليم:

الأول في موضوعات الطب، والثاني في الإسكان، والثالث في المزاجات، والرابع في الأخلاط، والخامس في الأعضاء، والسادس في الأرواح والقوى أو الأفعال.

وأما التعليم الأول فهو فصلان: فالأول في حد الطب، والثاني في

موضوعات الطب والتعليم، الثاني فصل واحد وهو الإسكان والتعليم، الثالث ثلاثة فصول: الفصل الأول في تعليم المزاج، والثاني في أمزجة الأعضاء، والثالث في أمزجة الأسنان، والتعليم الرابع فصلان: الأول في مائية الخلط وأقسامه، والفصل الثاني في كيفية تولد الأخلاط، والتعليم الخامس فصل واحد وخمس جمل: فالفصل في مائية العضو وأقسامه، والجملة الأولى في العظام، وهي ثلاثون فصلًا:

الفصل الأول قول كلي في العظام والمفاصل، والثاني في تشريح القحف، والثالث في تشريح مادون القحف إلى الرأس، والرابع في تشريح عظام الفكين والأنف، والخامس في تشريح الأسنان، والسادس في منفعة الصلب، والسابع في الفقرات، والثامن في منفعة العنق وتشريح عظامه، والتاسع في تشريح فقار الصدر ومنافعها، والعاشر في تشريح فقرات القطن، والحادي عشر في تشريح العجز، والثاني عشر في تشريح العصعص، والثالث عشر كلام كالخاتمة في منفعة الصلب، والرابع عشر في تشريح الأضلاع، والخامس عشر في تشريح القص، والسادس عشر في تشريح الترقوة، والسابع عشر في تشريح الكتف، والثامن عشر في تشريح العضد، والتاسع عشر في تشريح الساعد، والعشرون في تشريح المرفق، والحادي والعشرون في تشريح الرسغ، والثاني والعشرون في تشريح مشط الكف، والثالث والعشرون في تشريح الأصابع، والرابع والعشرون في منفعة الظفر، والخامس والعشرون في تشريح الركبة والثلاثون في تشريح القدم.

ويلاحظ أن الشيخ الرئيس متاثر في في تبويب كتابه وعرض ما

اشتمل عليه من حقائق الطب بدراسته الفلسفية المنطقية، فهو يقسم كتابه أولًا إلى خمسة كتب، ويقسم كل كتاب من الكتب الخمسة إلى فنون، ويقسم الفنون إلى تعاليم، والتعاليم إلى فصول وجمل. وقد راعى في هذا التقسيم أنه يحقق الدقة في حصر مسائل الطب.

واهتم ابن سينا في مقدمة كتاب القانون برسم دستوره الطبي في تأليف كتابه، ويتلخص هذا الدستور في الخطوط العريضة التي هي الأمور الكلية في علم الطب والأدوية المفردة، والأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الإنسان عضوًا عضوًا والأمراض الجزئية الأخرى، وتركيب الأدوية (الأقرباذين).ويبدأ مقدمته بحمد الله والصلاة على نبيه، ويشرح السبب الذي حمله على تأليف الكتاب، ويحاول أن يبين أنه يتناول أمرًا معروفة وأنه إذا امتد به الأجل فإنهسيتناول الموضوع بطريقة أشمل.

والواقع أن الشيخ الرئيس كان سيتناول الموضوع بطريقة أعم وأشمل، والواقع أن الشيخ الرئيس كان متواضعًا إلى حد بعيد، بدليل أن كثيرًا من علماء العرب قد اعترفوا بما لكتاب القانون من قيمة علمية كبرى في ميدان الطب، وبأنه قد تناول أدق المسائل في هذه الناحية. كذلك رسم ابن سينا لنا طريقته الفريدة في التأليف الطبي، فهو يبدأ أولًا بالحديث عن تشريح العضو، ثم يعقب على ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحة العضو، ثم ينتقل إلى الكلام عن كليات أمراض العضو وأسبابها، وطرق الاستدلال عليها وأساليب معالجتها، ويختم كتابه ببحوث إضافية في علم الأدوية (الأقرباذين).

ومن الطريف أن نورد بعض الأمثلة للتقسيمات السابقة، وهي توضع رأيه فيما يعرض له من مشكلات الطب وقضاياه. ومن هذه الأمثلة:

(أ) ما يقوله في تعريف الطب:

يقول الشيخ الرئيس في صفحة ٥ من الجزء الأول من القانون:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

الفصل الأول من الفن الأول من الكتاب الأول في حد الطب، أقول: إن الطب علم يعرف منه أحوال صحة بدن الإنسان من وجهة ما يصح ويزول عنها؛ لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زايلة، والطب ينقسم إلى نظري وعملي. ثم يبدأ في الرد على من قالوا إن الطب نظري فقط، فيقول: وأنتم قد جعلتم الطب كله نظرًا، إذ قلتم إنه علم. وهو يجيب عن هذا الاعتراض بقوله: إن من الصناعات ما هو نظري وعملي، ومن الفلسفة ما هو نظري وعملي، ويقال إن من الطب ما هو نظري وعملي. ثم يفسر لنا معنى النظري فيقول: ونعني بالنظري ما يكون التعليم فيه يفيد الاعتقاد فقط، من غير أن يتعرض لبيان كيفية عمل، مثل ما يقال في الطب إن أصناف الحميات ثلاثة وإن الأمزجة تسعة.

ويفسر القسم العملي من الطب بمثال يورده فيقول: إن الأورام الحارة يجب أن يقرب إليها في الابتداء ما يردع ويبرد ويكثف، ثم بعد ذلك تمزح الرادعات بالمزجيات، ثم بعد الانتهاء إلى الانحطاط (يقصد هبوط الورم) يقتصر على المزجيات المحللة، فهذا مما يفيد رأيًا وبيان

كيفية عمل، فإذا علمت هذين القسمين فقد حصل لك علم نظري وعلم عملي وإن لم تعمل قط. ويفهم من كلام ابن سينا في تفسير القسم العملي من الطب بأنه العلم بكيفية العمل.

(ب) ما يقوله في تشريح الأضلاع:

الأضلاع وقاية لما تحيط به من آلات التنفس وآلات الغذاء، ولم تجعل عظمًا واحدًا لئلا تثقل، وليسهل الانبساط إذا زادت الحاجة على ما في الطبع، أو امتلأت الاحشاء من الغذاء والنفخ فأحتيج إلى مكان أوسع للهواء المجتذب، وليتخللها عضل الصدر المعينة على أفعال التنفس وما يتصل به، ولما كان الصدر يحيط بالرئة والقلب وما معهما من الأعضاء، وجب أن يحتاط في وقايتها أشد الاحتياط، فإن تأثير الآفات العارضة لها أعظم، ومع ذلك فإن تحصينها من جميع الجهات لا يضيق عليها ولا يضرها، فخلقت الأضلاع السبعة العليا مشتملة على ما فيها، ملتقية عند القص محيطة بالعضو الرئيسي من جميع الجوانب.

وأما ما يلي آلات الغذاء فخلقت كالمخرزة من الخلف حيث لا تدركه حراسة البصر، ولم تتصل من قدام بل درجت يسيرًا يسيرًا في الانقطاع، فكان أعلاها أقرب مسافة ما بين أطرافها البارزة، وأسفلها أبعد مسافة؛ وذلك لتجمع إلى وقاية أعضاء الغذاء من الكبد والطحال وغير ذلك؛ توسيعًا لمكان المعدة فلا تنضغط عند امتلائها من الأغذية والنفخ. فالأضلاع السبعة العليا تسمى أضلاع الصدر، وبها من كل جانب سبعة، والوسطان منها أكبر وأطول والأطراف أقصر، فإن هذا الشكل أحوط في

الاشتمال من الجهات على المشتمل عليه. وهذه الأضلاع تميل أولًا على إحدى بداياتها إلى أسفل، ثم تكر كالمتراجعة إلى فوق فتتصل بالقص على ما نصفه بعد؛ حتى يكون اشتمالها أوسع مكانًا. وتدخل من كل واحد منها زائدتان في نقرتين غائرتين في كل جناح على الفقرات، فيحدث مفصل مضاعف، وكذلك السبعة العليا مع عظام القص، ويبدو من هذا الوصف أن ابن سينا كان على علم دقيق بتشريح جسم الإنسان وتركيب أعضائه.

(جـ) ما يقوله في مرض الدوار:

هو أن يتخيل لصاحبه أن الأشياء تدور عليه، وأن دماغه وبدنه يدور، فلا يملك أن يثبت بل يسقط. وكثيرًا ما يكره الأصوات ويعرض له من تلقاء نفسه مثل ما يعرض لمن دار على نفسه كثيرًا بسرعة، فلا يملك أن يثبت قائمًا أو قاعدًا أو أن يفتح بصره، وذلك لما يعرض للروح الذي في بطون دماغه وفي أوردته وشرايينه من تلقاء نفسه وما يعرض له عندما يدور دورانًا متصلًا، والفرق بين الصرع(١٠٧) والدوار أن الدوار قد يثبت مدة والصرع يكون بغتة، فيسقط صاحبه ساكنًا ويفيق. وأما السداد: فهو أن يكون الإنسان إذا قام أظلمت عيناه وتهيأ للسقوط، والشديد منه يشبه الصرع، إلا أنه لا يكون معه تشنج كما يكون للصرع.

---

(١٠٧) الصرع: علة تمنع الأعضاء النفسية من أفعالها منعًا غير تام، وسببه سدة تعرض في بعض بطون الدماغ وفي مجاري الأعصاب المحركة للأعضاء، فتتشنج فيخر الإنسان ساقطًا ويلتوى ويضطرب، ويفقد العقل (الإفصاح).

ثم يتحدث عن أسباب الدوار فيقول: وهذا الدوار قد يقع بالإنسان بسبب أنه دار على نفسه، فدارت الأرواح والبخار فيه كما تدار الفنجانة المشتملة على ماء مدة، وتسكن فيبقى ما فيها دائرًا مدة، فإذا دار الروح تخيل للإنسان أن الأشياء تدور، إلى أن يقول: وقد يكون هذا الدوار من النظر أيضًا إلى الأشياء التي تدور، حتى ترسخ تلك الهيئة المحسوسة في النفس. ولهذا قيل: إن الأفاعيل الحسية كلها متعقلة بآلات جسدانية منفعلة. ثم يقول: وقد يكون الدوار أيضًا من أسباب بدنية حاضرة في جوهر الدماغ، حاصلة من بخارات خالية في العروق التي فيه وفي العصب، وإما من أخلاط محتقنة فيه من كل جنس، فتبخر بأدنى حركة أو حرارة، فإذا تحركت تلك الأبخرةحركت بحركتها الروح النفساني، وإما بسبب كثرة بخارات قد احتقنت في الدماغ متصعدة إليه من مواضع أخرى، ثم مستقرة فيه ثانية عن مرض حار متقدم أو مرض بارد، فيكون رياحًا نافخة تحركها القوة المنضجة والمحللة، وقد يكون لا لحركة بخارات في الدماغ، ولكن لسوء مزاج مختلف بغتة، يلزم منه هيجان حركة مضطربة في الروح، وقد يكون من محرك للروح من خارج مثل ضارب للرأس أو كاسر للقحف، حتى يضغط الدماغ والروح الساكن، فتتبعه حركات مختلفة دايرة متموجة، كما يحدث في الماء من وقوع ثقل عليه، أو وقوع ضرب عنيف على متنه فيستدير موجه.

ثم يتحدث ابن سينا عن العلامات المميزة للدوار، ويعقب على ذلك بوصف العلاج لكل حالة من حالات الدوار فيقول: فأما الكائن عن

دوران الإنسان حول نفسه أو من نظره إلى الدورات، أو من نظره إلى مكان عالٍ، فيعالج بالسكون والقرار والنوم، ويتناول القوابض الحامضة، ويكسر لقمًا فيها ويتناولها، وأما الكائن عن دم وأخلاط مختلفة في البدن فيعالج بالفصد من القفا، ثم من العرق الساكن الذي خلف الأذن، فإنه أفضل علاج لجميع أصناف الدوار المادي.

(د) ما يقوله في الخفقان وأسبابه:

الخفقان حركة اختلاجية تعرض للقلب، وسببه كلما يؤذي القلب مما يكون في نفسه أو في غلافه، أو ما يتصل به من الأعضاء المجاورة له المشاركة إياه. وقد يكون من مادة خليطة وقد يكون ناشئًا عن مزاج ساذج، وقد يكون عن ورم، وقد يكون عن سبب غريب، ومن علاماته النبض المخالف المجاوز للحد في الاختلاج. ومن العلاج: إذا كان من أسباب مادية ينتفع بالاستفراغات، وأما الدموي فبالفصد وباخراج الدوم البالغ وتعديل الغذاء بالكم والكيف، وإن كانت له نوبات أو فصل يعتري فيه مثل الربيع، فمن الواجب أن يتقدم قبل النوبة بفصد وتلطيف غذاء وتناول ما يقوي القلب. وأما الكائن بسبب خلط بلغمي، فيجب أن يستفرغ بأدوية يبلغ تأثيرها في القلب.

ومن الطريف أن نعرض بعض ما يذكره من الأدوية التي تستعمل في طرد الهوام، يقول: فلطرد البراغيث إذا رش البيت بنقيع الحنظل تماوتت البراغيث وتهاربت، وكذلك طبيخ الخرنوب، وطبيخ العليق. قالوا: وإذا جعل دم التيس في حفرة في البيت اجتمعت البراغيث عنده، ثم تقتل كذلك

تجتمع على خشبة مطلية بشحم القنفذ، وتهرب من ريح الكبريت.

هذه الأمثلة التي اقتطفناها من كتاب القانون توضح لنا إلى درجة كبيرة مواهب ابن سينا في تصنيفه وترتيبه للمعلومات الطبية، وقد حرص على إبرازها في قالب منطقي وفي نسق مرتب، فنراه يبدأ أولًا بتعريف المرض ويفرق بينه وبين غيره عند وجود التشابه بينهما في الأعراض، فمثلًا يتكلم عن الفرق بين الدوار والصرع، ثم يتحدث عن الأسباب حديث طبيب عبقري مجرب، فسيقتصي كل الأسباب ثم يأتي بعد ذلك بوصف العلاج، فيصف لكل حالة من حالات المرض ما يناسبها من علاج، وذلك في دقة وسهولة.

والطب الحديث لا يغض من شأن هذه الآراء، بدليل ما قام به المرحوم الدكتور محمد خليل عبد الخالق من بحث أشرنا إليه من قبل، ويسرنا ما سمعناه من أن كليات الطب العربية تدرس لطلابها فصولًا من كتاب القانون. ونتمنى أن يعكف أطباؤنا في العصر الحاضر على دارسة آراء ابن سينا وغيره من أطباء العرب دراسة موضوعية دقيقة؛ حتى تتضح في ضوء هذه الدراسات الصلات القوية بين الطب العربي القديم والطب الحديث.

وفي هذه الأمثلة برهان عملي على مقدار ما وصل إليه أطباء العرب من مهارة في علم تشريح الأجسام، من حيث تشريح كل عضو من أعضاء الجسم تشريحًا دقيقًا وبيان فوائده ووظائفه.

٥- القيمة العلمية لكتاب القانون:

ونجد في هذا الكتاب النفيس آثارًا من الطب الهندي، فابن سينا

ينقل بعض آراء أطباء الهند، فيشرحها ثم يعلق عليها وينقدها، فيحدثنا مثلًا عن وصف الهنود لبعضأنواع القلق وأشكاله وخصائص كل نوع، ويقول: إنهم كانوا يرونأأكل اللبن مع الحوامض أو مع السمكيورث أمراضًا منها الجذام، ثم يبين بطلان ذلك. وكان من بين ما تناوله (القانون) ما نعرفه اليوم بعلم الصحة، فقد استعرض الشيخ الرئيس في كتابه كثيرًا من الإرشادات الصحية، فيقول في الاستحمام بالماء البارد: إنما يصلح ذلك لمن كان تدبيره من كل الوجوه مستقصٍ، وكانت سنه وقوته وسحنته وفصله موافقًا، ولم يكن به تخمة ولا قيء ولا إسهال ولا سهر ولا نوازل، ولا هو صبي ولا شيخ، وفي وقت يكون بدنه نشيطًا والحركات متواتية، وقد يستعمل ذلك بعد استعمال الماء الحار لتقوية البشرة وحصر الحرارة الغريزية، فإن أريد ذلك يجب أن يكون ذلك الماء غير شديد البرد بل معتدلًا.

وقد يستعمل بعد الرياضة، فيجب أن يكون الدلك قبله أشد من المعتاد، وأما تمريخ الدهن فيكون على العادة، وتكون الرياضة بعد ذلك الدلك والتمريخ معتدلة وأسرع من المعتاد، وقليلًا قليلًا ثم يشرع بعد الرياضة في الماء دفعة ليصيب أعضاؤه معًا، ثم يلبث فيه مقدار النشاط والاحتمال، وقبل أن تصيبه قشعريرة، ثم إذا خرج من ذلك بما نذكره، وزيد في غذائه ونقص من شرابه، ونظر في مدة عود لونه وحرارته إليه، إن كان سريعًا علم أن اللبث فيه كان معتدلًا، وإن كان بطيئًا علم أن اللبث فيه قد كان أزيد من الواجب، فيقدر في اليوم الثاني قدر ما يعلم من

ذلك. ومن أراد أن يستعمل ذلكفليتدرج فيه، وليبدأ أول مرة من أسخن يوم في الصيف وقت الهاجرة، ويتحرز ألا يكون فيه ريح ولا يستعمله عقيب القيء والاستفراغ والسهر، ولا على ضعف من البدن ولا معدة.

وقد ترجم كتاب القانون إلى اللاتينية ترجمة جيرار الكرماني في القرن الثاني عشر، وكان على رأس النقلة من اليونانية إلى العربية، وطبع هذا الكتاب في أوروبا أكثر من خمس عشرة طبعة باللغة اللاتينية في المدة التي بين ١٤٨٣م و١٥٠٠م. ويقال إن في المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين نفيسيتين لا يعادلهما ثمن: الأولى نسخة من كتاب القانون باللغة العربية طبعت في أواخر القن السادس عشر، أي في أوائل عهد الطباعة، وكانت لا تعار إلا على منضدة مخصوصة، والثانية نسخة عربية من كتاب جالينوس في الطب العام، وقد كتب في أول صفحة منها: هذا الكتاب ملك أبي علي بن الحسين بن سينا المتطبب، وهذه العبارة بخط الشيخ ابن سينا نفسه. وقد ظل القانون بفضل ما استحدثه ابن سينا فيه من نظريات مبتكرة وآراء جديدة وملاحظات قيمة، وما اشتمل عليه من تجارب وما كشف عنه من أمراض لم تكون معروفة– المرجع الأوفى الذي تعتمد عليه الجامعات والكليات الطبية الأوروبية، وظل القانون يدرس في هذه الجامعات، وبخاصة جامعة (مونبلييه) إلى أواخر القرن الثامن عشر.

٦- ابن سينا في قانونه:

أودع الشيخ الرئيس كتابه (القانون) كما تقدم في البحث كثيرًا من

أنواع العلاج ووصف الأمراض، وكان يفوق من سبقه من أطباء اليونان والرومان والفرس العرب بدقته في مناقشة الحالات المرضية، ومهارته العظيمة في تشخيص الأمراض (Sernologe) وبحث أسباب المرض، وكان الطب إلى أيامه يتناول ما ترجم من كتب أطباء اليونان، وما نقل عن أطباء مدرسة (جنديسابور)، وبعض المعارف الطبية السريانية الممتزجة ببقايا طب الكلدان[١٠٨] القدماء، وطب الهنود وتجارب العرب الطبية في العصر الجاهلي.

هذه المعارف كلها انصهرت وتفاعلت ثم تبلورت في كتاب الحاوي للرازي، وقد درس ابن سينا كل ذلك دراسة عالم محقق يعتمد على التجربة، ثم أضاف إلى معلومات السابقين ما وصل إليه باجتهاده وعقليته المبتدعة المبتكرة، ومن أشهر ابتكاراته الطبية: فحوصه الدقيقة ودراساته للدورة الدموية وتشريح القلب، مما لا مثيل له عند اليونان والرومان. وهو أول من

---

(١٠٨) الكلدان أو الكلدانيون: أمة سامية قديمة، عاشت في وادي دجلة والفرات، وهم البابليون، وكانت لهم دولتان مشهورتان بابل القديمة (٤٠٠٠ ق.م–١٣٠٠ ق.م) وبابل الحديثة (٦٠٦ ق.م–٥٣٨ ق.م)، واشتهر من ملوك الدولة القديمة (حمورابي)، الذي عرف بشريعته الوضعية المعروفة، ومن الدولة الحديثة (بختنصر)، وهو الذي قضى على دولة يهوذا الإسرائيلية، وحزب (أورشليم) سنة (٥٨٦ ق.م)، وكان للكلدان أو البابليين حضارة تضارع حضارة المصريين في القدم إن لم تكن أقدم منها. فاشتغلوا بعلوم الحيوان والنبات والجغرافيا والعلوم الرياضية، وتوصلوا إلى نظام للمقاييس والموازين أخذته عنهم الأمم القديمة، وقد نبغوا بصفة خاصة في علم الفلك، كذلك برعوا في وضع القوانين، ومن أشهرها قانون (حمورابي) الذي تناول الأحوال الشخصية والمعاملات والعقوبات بأسلوب يتفق مع الشرائع الحديثة، فالزواج عند البابليين لا يكون نافذًا إلا بعقد مكتوب وبرضاء الطرفين ومهر يؤديه الزوج.

وصف التهاب السحايا الأولي وصفًا دقيقًا صحيحًا، وفرق بينه وبين غيره من الأمراض المتشابهة، له كما شرح أمراض الجهاز الهضمي شرحًا وافيًا، يشهد له بالبراعة في ميدان الطب، وهو الذي قال بضرورة التمييز الدقيق بين الأمراض عند تشخيصها، فلا بد من التمييز بين تشخيص ذات الجنب، والتهاب (البلورا) الحقيقي، والالتهاب اليسير للعضلات، والتهاب نصف الدري (الحيزوم)، وخراج السطح الأعلى للكبد.

أما الأمراض العصبية فقد كان ابن سينا فيها طبيبًا مبرزًا في عصره، فقد وجه عنايته إلى الأشكال المختلفة للشلل والفالج النصفي وشلل الوجه (اللقوة)، واهتدى إلى التمييز بين نوعي (اللقوة) المركزي والموضعي، وشرح بإسهاب التشخيص التمييزي بينهما. وقد خالف القدماء الذين ينكرون وجود الأورام بالمخ والعظام فقال: إن المخ والعظام قد تكون مقرًا للأورام، والطب الحديث يعترف اليوم بذلك.

وكان يعالج تشوهات السلسلة الفقرية بالرد العنيف، وهي طريقة أعاد إدخالها في العلاج الجراح الفرنسي (كالو) سنة ١٨٩٧م، وكان لابن سينا طرق شائقة في وصف الأمراض العقلية وعلاجها، وله أكبر الفضل في ابتكار كثير من طرق العلاج النفسي، وكان جالينوس الطبيب اليوناني يقول: إن السكتة القلبية أو ضربة الدم أو النقطة يندر أن تكون سببًا (للبليثورا)، فخطأه في ذلك ابن سينا وقال بعكسه، فقد رأى استنادًا إلى مشاهداته وتجاربه أن البليثورا من أكثر الأسباب المهيئة لحدوث السكتة.

ومما وصل إليه ابن سينا ولم يسبقه إليه أحد من الأطباء أن

الحصبة أكثر ما تكون عدواها في الربيع والخريف، وأنها أكثر وقوعًا في هذين الفصلين، وهو أول من تنبه إلى أن الأطفال يصابون بها أكثر من البالغين، وقد درس الشيخ الرئيس أمراض الكبد، ووفق في طريقة فحصه ووصفه، كما وصف أعراض مرض اليرقان[١٠٩] وصفًا يتفق مع الأوصاف الحديثة، وشرح السكتة الدماغية الناتجة عن احتقان الدم مخالفًا بذلك التعاليم اليونانية. وعندما تكلم عن أمراض المعدة أخذ يصف بدقة أعراض ضيق (فتحة البواب) أو القرحة المعدية، وأفاض في شرح الإدمان على شرب الكحول، وأثر ذلك في الكبد، ثم علل الأسباب الفسيولوجية لتلافيف الأمعاء، وأفاض في الحديث عن استطالة عنق الرحم، وعن أورام الرحم وسقوطه وصلابته، وعن خطر سرطان عنق الرحم.

ووصف ابن سينا أعراض حصى المثانة وصفًا دقيقًا واضحًا، يقول الدكتور (خير الله) في كتابه الطب العربي: ويصعب علينا في هذا العصر أن نضيف شيئًا جديدًا إلى وصف ابن سينا لأعراض حصى المثانة السريرية. وفي هذا إشارة إلى أن ما قاله جالينوس العرب هو ما يذهب إليه الطب الحديث في هذا العصر، وقد ميز بين حصاة المثانة وحصاة الكلية؛ ولذلك قال: إن البول في حصاة المثانة بياض ورسوب، ليس بأحمر بل بياض أو رمادية، وربما كان بولًا غليظًا زيتي الثقل، وأكثره يكون دقيقًا وخصوصًا في الابتداء، ويكون إيجاع حصاة المثانة كإيجاع

---

(١٠٩) اليرقان: هو أن تصفر عينا الإنسان ولونه؛ لامتلاء مرارته، واختلاط المرة السوداء بدمه.

حصاة الكلية؛ لأن المثانة مخلاة في فضاء إلا عند حبس الحصاة للبول، فإن وجعه يشتد عند وقوعها في المجرى، والخشونة في حصاة المثانة أكثر لأنها في فضاء يمكن أن يتركب عليها ما يخشنها، ولذلك هي أعظم لأن مكانها أوسع، وقد يتفق أن يكون في مثانة واحدة حصاتان أو أكثر من ذلك فتتساجع، ويكثر تفتيت الرملية، وقد يكون مع الرملية (نخالي) لانجراد سطحها عن الحصاة الخشنة، وربما بال قي آخره بلا إرادة، وكلما فرغ من بول اشتهى أن يبول في الحال، والمتقاضي لذلك هي الحصاة المستدفعة استدفاع البول المجتمع، وكثيرًا ما يبول الدم لخدش الحصاة، خصوصًا إذا كانت خشنة كبيرة، وكثيرة ما تحبس. فإذا استلقى المحصور، وأشيل وركاه وهز زالت الحصاة عن المجرى، وإذا غمز حينئذ في العانة انزلق البول، وهذا دليل قوي على الحصاة. والحصاة الصغيرة أحبس للبول من الكبيرة؛ لأنها تنشب في المجرى، وأما الكبيرة فقد تزول عن المجرى بسرعة، واعلم أن حصاة المثانة تكثر في البلاد الشمالية وخصوصًا في الصبيان[١١٠].

كما وصف طريقة علاج البواسير بالشق، وله في علم الديدان كشوف جديدة، فهو أول من وصف الدودة المعروفة باسم (الفرتيت)، وكان يعالج الكتف المخلوع بالضغط المباشر، وتجاربه وأوصافه في علم التشريح أتم وأكمل من أوصاف (جالينوس). وكان تشريحه (للقزحية) وإنسان العين والقناة الدمعية على درجة كبيرة من الدقة، وابن سينا أول

---

(١١٠) القانون لابن سينا.

من كشف (اندغام) عضلات العين، ولقد أدخل في علم العقاقير الطبية (الأقرباذين) عددًا من الأدوية النافعة والعقاقير الطبية المفيدة، التي لم تكن مستعمله من قبل.

ومن الأدلة الواضحة على اجتهاد ابن سينا ودقة ملاحظته في الطب، ابتكاره ما يشبه (كيس الثلج) في عصرنا، فقد صدع يومًا فتصور أن مادة تريد النزول إلى حجاب الرأس، وأنه لا مأمن من ورم يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثيرودقه ولفه في خرقة وتغطية رأسه بها، ففعل ذلك حتى قوي الموضع، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي.

ولقد كان لابن سينا الفضل العظيم في كشفين هامين في عالم الطب، فهو أول طبيب قام بحقن المريض تحت الجلد، وأول من استخدم التخدير لإجراء العمليات الجراحية، ولو لم يكن لابن سينا غير هذين الكشفين لكفاه ذلك فخرًا واعترافًا بفضله على الإنسانية. ولو وازنا بين ما كان يقوم به ابن سينا من أنواع العلاج وطرق الفحص عن المرض داخل البلاد العربية، وما كان يصنعه الأطباء خارج حدود تلك البلاد، لأدركنا الفرق العظيم بين الأمة العربية في ذلك العهد، وغيرها من الأمم المجاورة التي كانت تعيش على الخرافات والأوهام. فقد كان المريض في تلك البلاد التي يسودها الجهل والظلام يصلب على شجرة، ثم ينهال عليه الطبيب ومساعدوه بالضرب حتى يخرج الشيطان من جسمه، وهو المرض في زعمهم وتصورهم، وهذا دليل على الجهل المطبق الذي كان عليه أطباء الغرب في تلك العصور.

لا جرم أن ابن سينا الطبيب كان أوفر حظًا من الشهرة من ابن سينا الفيلسوف، وإن كان بعض الباحثين يذهبون إلى أن الفلسفة كانت ميدان انتصاره الخالد. فقد حلت كتبه الفلسفية محل كتب أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة، ويؤيد ذلك ابن خلدون بقوله: "وتجد الماهر منهم عاكفًا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة؛ لذلك نعرض لشيء من فلسفة ابن سينا الطبيب، ففي الحديث عن فلسفته محاولة للربط بين بحوثه الطبية والفلسفية، فكما أن ابن سينا قد عني عناية كبيرة بجسم الإنسان والعمل على حفظ بنائه واستعادة نشاطه؛ كي يتمتع الإنسان بصحة جيدة، تعاونه على النهوض بأعبائه في الحياة. كذلك نراه يولي نفس الإنسان الكثير من عنايته، فيتجه بفلسفته إليها، ويجعلها موضوع بحثه، وفي ذلك تفسير لمذهبه في الإنسان، فالإنسان مركب من جسد ونفس معًا. ويتناول كتاب الشفاء –وهو موسوعة فلسفية كبيرة– كثيرًا من آرائه في العلوم والفلسفة، ما عدا الطب الذي خصص له كتاب القانون، وقد تحدثنا عنه.

كتاب الشفاء:

هذا الكتاب موسوعة كبيرة في العلوم والفلسفة، وقد قسم ابن سينا العلوم فيه إلى ثلاثة أقسام:

١– العلوم التي ليس لها علاقة بالمادة، وهي علوم ما وراء الطبيعة.

٢– العلوم التي لها علاقة بالمادة، وهي الطبيعيات والمعادن والحيوان والنبات.

٣- العلوم الوسط، وهي التي تتصل تارة بما وراء الطبيعة، وتارة بالمادة وهي الرياضيات.

وقد وجه الشيخ الرئيس عنايته في هذا الكتاب إلى النفس فسماه الشفاء، وهو يقصد شفاء النفس، ولقد كان البحث في النفس ونشأتها وأحوالها وعجائبها وخوارقها محور فلسفة ابن سينا. ومن الذين عنوا بشرح هذا الكتاب أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب التيجاني صاحب (تحفة العروس ونزهة النفوس)، وقام باختصاره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسر وشاهي التبريزي[١١١] المتوفى سنة ٦٥٢هـ ويقع الكتاب في سبعة عشر مجلدًا، ويقال إن ابن سينا اختصره في كتابه (النجاة)، ولكن كتاب النجاة لم يكن مختصرًا بالمعنى الكامل لكتاب الشفاء، فقد عرض فيه لبعض المسائل التي عالجها في الشفاء، ولكنه أوردها على نظام يختلف عما هي عليه فيه، والباحث المتصفح لكتاب الشفاء يرى فيه عرضًا دقيقًا للآراء اليونانية مع التعليق عليها شرحًا ونقدًا، ويبدو أن ابن سينا قد ألف هذا الكتاب في وقت مبكر أثناء إقامته في بلاط جرجان والري وهمدان وأصبهان، وأتمه في سنة ٤١٨هـ.

أما كتاب النجاة وهو مختصر الشفاء تقريبًا فقد وضعه في العام نفسه، وهو في طريقه إلى الحرب مع علاء الدولة. ويعرف الشيخ الرئيس

---

(١١١) التبريزي: نسبة إلى تبريز، وتبريز من بلاد أذربيجان وهي الآن مدينة في إيران، فتحها نعيم ابن مقرن المزني في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي فيها ناصر الدين البيضاوي صاحب التفسير المشهور سنة ٦٨٥هـ، وإليها ينسب أبو بكر زكريا التبريزي إمام اللغة والأدب المتوفى سنة ٥٠٢هـ.

النفس معتمدًا على تعريف أرسطو فيقول: إن النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، وهي موجودة ولكن وجودها ليس وجودًا ماديًا. ويورد لذلك برهانًا يعرض له في كتاب الشفاء، ويسمى برهان الرجل الطائر، يقول فيه: إنه لو توهم أحدنا كأنه خلق دفعة وكاملًا، وخلق يهوى في الهواء، بحيث لا يصدمه أي شيء من الخارج، فإنه مع ذلك يثبت ذاته. ويؤيد ابن سينا بهذا البرهان وجود النفس وقيامها مستلة عن البدن.

وليس للنفس وجود ثابت على البدن، ولكنها حادثة مع حدوثه، غير أن هذا لا يمنع خلودها، أي بقاءها بعد فناء الإنسان بالموت، وكذلك يؤمن بتعدد النفوس، ثم يرتبها تصاعديًا، فيتحدث أولًا عن النفس النبانية، ثم الحيوانية ثم الناطقة. وتتميز النفس الحيوانية بما لها من قوة غضبية وقوة شهوانية، ولكن النفس الناطقة تسيطر عليها بما لها من خصائص وطبائع، وليس بينهما اتصال في الجوهر، وكما أن الأجسام المادية كلها تنشأ من امتزاج العناصر بفعل الكواكب، فكذلك الجسم الإنساني ينشأ على هذا النحو، ولكنه ينشأ من أحسن الأمزجة اعتدالًا.

رأي ابن سينا في النفس: وأما النفس فلا تنشأ من امتزاج العناصر، كما أنها ليست صورة لازمة للجسد ولكنها عارضة له، ولكل جسد نفس خاصة لا تصلح إلا له، وهي تفيض عليه من واهب الصور، وكل نفس في أول أمرها جوهر جزئي مستقل، ولا يزال هذا الاستقلال يتزايد مدة بقائها في الجسد.

ويؤمن بتطور الأخلاق فيقول: الأخلاق كلها مكتسبة لا فرق بين الجميل منها والقبيح؛ ولهذا كان من الممكن أن ينتقل الإنسان من خلق لآخر بتعود الأعمال التي تناسبه وتدعو إليه. ويشير ابن سينا في قوله هذا إلى ما للعادة من أثر في تكوين الأخلاق، وإلى أن الفرد يمكن رفع مستوى أخلاقه بتغيير الظروف وبالمعرفة والتعليم. والأخلاق عنده تابعة للأمزجة، والأمزجة ناشئة عن البدن.

يقول في الشفاء: فإن بعض الأمزجة يتبعه الاستعداد للغضب، وبعض الأمزجة يتبعه الاستعداد للشهوة، وبعض الأمزجة يتبعه الجبن والخوف. وإذا كانت الأخلاق تابعة للأمزجة وهي على النحو الذي وصفه بها فإنه في الإمكان تعديل الأمزجة وضبطها وتوجيهها نحو الفضيلة، ويتم ذلك بما تقوم به النفس الناطقة –وهي المنفصلة بجوهرها عن البدن– من السيطرة على الجسم والحد من شهواته.

ويحاول الشيخ الرئيس مزج الأدب بالفلسفة، فينشئ قصيدة تدعى (العينية)، وهي تتناول الكثير من آراءه في النفس، وللمرحوم الدكتور أحمد أمين رأي جديد في هذه القصيدة، فهو يرى أنها أشبه ما تكون بشعر ابن الشبل البغدادي صاحب القصيدة المشهورة:

بربِّـــكِ أيهـــا الفلـــكُ المـــدارُ أقصـدٌ ذا المسـيرٌ أم اضـطرارٌ؟

ويحتج لرأيه بأن أسلوب الشيخ الرئيس يتميز بغموض اللفظ واضطراب العبارة، وليست العينية كذلك، ففيها شيء من الرقة والعذوبة والجزالة. وقد فات المرحوم الأستاذ أحمد أمين أن ابن سينا تفرغ إلى

دراسة اللغة والأدب في فترة من حياته؛ وسبب ذلك أنه عرض في حديثه يومًا إلى بعض المسائل اللغوية أمام الشيخ أبي منصور فاعترض عليه بحجة أنه فيلسوف لا يحسن التحدث في اللغة والأدب، وأن ميدان اللغة ليس ميدانه، وقد أشرنا من قبل إلى هذه القصة. فكان ذلك مما حمل ابن سينا -وهو من نعرف ذكاءه وعبقريته- على الانكباب على دراسة أمهات كتب اللغة، فأحرز من الفقه بها وبأدبها قدرًا كبيرًا، واستطاع بفضل هذه القدرة العجيبة أن يكون له في ميدان الأدب بعض الإنتاج، ويؤيد ذلك ما روي أن الشيخ الرئيس كان يحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وأنه كان يروي الكثير من أشعار العرب، كما ينسبون إليه أنه قال الشعر بنوعيه، الشعر التعليمي وله فيه القصيدة المزدوجة في المنطق، والأرجوزة في الطب، والشعر الذي يعبر به عن خلجات نفسه.

وبعد هذا فنحن نستطيع أن نقول إن ابن سينا كان يملك ناصية الخيال والحقيقة في وقت واحد، ويتصرف في ألوان التعبير، ولا غرابة بعد ذلك في أن تكون العينية ثمرة من ثمرات قريحته المخصبة، ونفثة الصوفية، رمز بها إلى بعض آرائه في النفس، وشيء آخر لا بد أن نشير إليه، وهو أن ما تضمنته القصيدة من آراء فلسفية تترجم ترجمة صحيحة عن آراء هذا الفيلسوف العظيم، وهذا ما لم يكن معروفًا لابن الشبل البغدادي.

يقول الشيخ الرئيس والشاعر الفيلسوف ابن سينا:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ المَحَلِّ الأَرْفَعِ ... وَرْقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةِ نَاظِر ... وَهْيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرْقَعِ

وَصَلَتْ عَلَى كُرْهٍ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا ... كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهْيَ ذَاتُ تَفَجُّعِ

أَنِفَتْ وَمَا أَلِفَتْ فَلَمَّا وَاصَلَتْ ... أَنِسَتْ مُجَاوَرَةَ الخَرَابِ البَلْقَعِ

وَأَظُنُّهَا نَسِيَتْ عُهُودًا بِالحِمَى ... وَمَنَازِلاً بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ

حَتَّى إِذا اتَّصَلَتْ بِهَاءِ هُبُوطِهَا ... عَنْ مِيمِ مَرْكَزِهَا بِذَاتِ ٱلأَجْرَعِ

عَلِقَتْ بِهَا ثَاءُ الثَّقِيلِ فَأَصْبَحَتْ ... بَيْنَ المَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الخُضَّعِ

تَبْكِي إِذا ذَكَرَتْ عُهُودًا بِالْحِمَى ... بِمَدَامِعٍ تَهْمِي وَلَمَّا تُقْلِعِ

وَتَظَلُّ سَاجِعَةً عَلَى الدِّمْنِ الَّتِي ... دَرَسَتْ بِتِكْرَارِ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ

إِذْعَاقَهَا الشَّرَكُ الكَثِيفُ وَصَدَّهَا ... قَفَصٌ عَنِ الأَوْجِ الفَسِيحِ المُرْبِعِ

وَغَدَتْ مُفَارِقَةً لِكُلِّ مُخَلَّفٍ ... عَنْهَا حَلِيفِ التُّرْبِ غَيْرِ مُشَيِّعِ

سَجَعَتْ وَقَدْ كُشِفَ الغِطَاءُ فَأَبْصَرَتْ ... مَا لَيْسَ يُدْرَكُ بِالعُيُونِ الهُجَّعِ

وَغَدَتْ تُغَرِّدُ فَوْقَ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ ... وَالعِلْمُ يَرْفَعُ كُلَّ مَنْ لَمْ يُرْفَعِ

فَلأَيِّ شَيْءٍ أُهْبِطَتْ مِنْ شَامِخٍ ... عَالٍ إِلى قَعْرِ الحَضِيضِ الأَوْضَعِ

إِنْ كَانَ أَهْبَطَهَا الإِلَهُ لِحِكْمَةٍ ... طُوِيَتْ عَنِ الفَطِنِ اللَّبِيبِ الأَرْوَعِ

وَتَعُودَ عَالِمَةً بِكُلِّ حَقِيقَةٍ ... فِي العَالَمَيْنِ فَخَرْقُهَا لَمْ يُرْقَعِ

وَهْيَ الَّتِي قَطَعَ الزَّمَانُ طَرِيقَهَا ... حَتَّى لَقَدْ غربت بِعَيْنِ المَطْلَعِ

فَكَأَنَّهَا بَرْقٌ تَأَلَّقَ بِالحِمَى ... ثُمَّ انْطَوَى فَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْمَعِ

تحليل الأبيات:

إن النفس قد هبطت من عالم العقول المجردة الذي تفيض منه النفوس على الأبدان إلى الحضيض الأوضع وهو الجيد، والنفس حقيقة عقلية لا تدرك بالحس ولكنها تدرك بالعقل، وقد هبطت من عالمها مكرهة، وبعد أن اتصلت بالجسد وألفته عز عليها أن تفارقه، ولكنها حين هبطت إلى الجسم أول الأمر أعرضت عن الجسد احتقارًا له، غير أنها ما لبثت أن

ألفته، وعندئذ نسيت المكان الذي هبطت منه وهو العالم العلوي، وأقامت بالعالم السفلي واتصلت بالمادة الجسمانية وتوزعت بين أجزاء الجسد، بيد أنها حين تذكر ماضيها في عالم الروحانيات تأخذ في البكاء أسفًا وحسرة، والنفس حين تبكي هذا الماضي تبكي أيضًا على الجيد الفاني حينما تفارقه، مع أنها عندما حلت به استولت عليها الشهوات الحيوانية والرغبات الجسمانية، فحالت بينها وبين الاتصال الدائم بعالم العقول الذي هبطت منه، حتى إذا حان الرحيل بمغادرة الجسد وتركه، عادت إلى ما كانت عليه قبل الهبوط، وأدركت بعد مفارقة الجسد من الحقائق ما لا يدرك ويرى بالعين المجردة، والنفس حين يتم لها ذلك ترتاح كل الارتياح.

ثم يسأل عن الباعث على هبوط النفس من عالم العقول على الجسد، وهل كان ذلك لحكمة لا يدركها العقلاء، ولكنه يجيب عن هذا السؤال فيقرر أن هبوطًا كان أمرًا لازمًا، أوجبه الحاكم القاهر؛ لكي تدرك النفس ما لم تكن تدرك من عظمة الخالق العظيم لو ظلت في عالمها الأول. يقول الله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، ثم ترجع وهي عالمة بالأسرار الخفية في عالم الغيب والشهادة وقد كانت قبل ذلك تعلم عالم الغيب، والنفس في سيرتها هذه أشبه ببرق خاطف تألق حينًا ثم اختفى فكأنه لم يلمع.

التعليق

هذه الأبيات لا يقولها إلا عالم فيلسوف، فهي نموذج من نماذج الشعر الفلسفي، وتكثر فيها الكلمات التي لا تحمل رونق الشعر مثل

هاء الهبوط وثاء الثقيل وميم مركزها. أما الفكرة الفلسفية التي تعبر عنها، فهي أن النفس تتصل بالجسد كارهة، ثم تخرج منه كارهة؛ ولذلك يسأل ابن سينا: لم كان هذا الدخول والخروج؟ ثم يجيب بأن دخولها كان سببًا في علمها ما لم تكن تعلم من العالم الأرضي بعد العالم السماوي، ولكي تكون رأيًا صحيحًا عن معنى الكمال، ومع ذلك فإننا نرى الشيخ الرئيس لا يزال في حيرة من أمر هذه النفس؛ إذ لم يصل إلى شيء نهائي يطمئن إليه عقله، ولم يأت بعده إلى اليوم أحد من الفلاسفة استطاع أن يصحح هذه المعلومات عن النفس أو يخطئها؛ وذلك لأن حقيقة النفس أمر اختص الله بعلمه، يقول تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"، والروح هي النفس.

١- ابن سينا والتحليل النفسي:

اتخذ الشيخ الرئيس التحليل النفسي أسلوبًا جديدًا من أساليب العلاج الطبي، وقد مارسه ممارسة ناجحة أكسبته شهرة واسعة في عصره، وتدل أساليبه في ذلك على أنه كان على درجة كبيرة من الخبرة بعلم النفس.وقد بينا من قبل أن ابن سينا قد ربط بين فلسفته وطبه، فاستغل علم النفس –وهو جزء من الفلسفة– في التطبيب. ويذهب النفسيون في عصرنا إلى أن الغرض من التحليل النفسي هو الوصول إلى ما يتكون في العقل الباطن، ثم العمل على إخراج هذه المكونات إلى العقل الظاهر، والحكمة في ذلك تخفيف الضغط على النفس، وبذلك يمكن أن يتخلص المريض من أمراضه العقلية.

وقد استخدم التحليل النفسي في هذا العصر في الأغراض الطبية، مما يدل على أن ابن سينا قد سبق أطباء عصرنا إلى استخدام التحليل النفسي في الأغراض الطبية بعدة قرون، وهذا سبق يجب أن نسجله في زهو وفخر لعلماء العرب، الذين صنعوا حقًّا أصول هذه الحضارة التي ينعم بها العالم اليوم ويذهب (فرويد)[١١٢] إلى أن العقل الباطن يتكون من مجموعة من الرغبات الشخصية المكبوتة المودعة في أعماق النفس منذ الطفولة، ثم أرغمت على الانتقال من الناحية الشعورية إلى الناحية (اللاشعورية) فلم تجد لها مأوى إذ ذاك إلا في حظيرة العقل الباطن، أما السبب في هذا الانتقال فيرجع إلى أن هذه الرغبات المكبوتة، وتلك الذكريات لا تلائم الحياة الاجتماعية ولا تتفق مع المجتمع.

والتحليل النفسي بهذا المعنى الذي يشرحه (فرويد)لم يكن غريبًا على ابن سينا، فقد كان على علم به، إذ اتخذه طريقة من طرق العلاج، حتى اشتهر في عصره بقدرته العظيمة على معالجة المرضى بطريقة التحليل النفسي، وإليكم أمثلة عملية تلقي ضوءًا على نبوغه في العلاج النفسي:

---

(١١٢) فرويد: هو سيجموند فرويد، ولد في (فريبرج) بمورافيا في مايو سنة ١٨٥٦م، وكان والده يعقوب فرويد في الحادية والأربعين حينما تزوج بوالدة (سيجموند)، ولما بلغ الرابعة عشر انتقلت أسرته إلى فيينا، وهناك نظر سيجموند إلى والده، فوجده لا يصلح أن يكون أبًا وإنما هو في مقام الجد؛ وبسبب ذلك اتجه بحبه وعواطفه نحو والدته الشابة، فبدأت تتكون عنده عقدة وهي التي سماها فيما بعد عقدة (أوديب)، وما كاد يتم دراسته الطبية حتى بدأ يعكف على دراسته أعراض (الهستيريا)، ويجري تجاربه على ضحايا هذا المرض، وبذلك وصل إلى ابتكار أساليب العلاج القائم على التحليل النفسي.

(أ) أصيب في يوم ما رجل بمرض (المناخوليا)[١١٣] وقد استبد به المرض إلى درجة جعلته يعتقد أنه أصبح بقرة، ولذلك امتنع عن الطعام والشراب مع بني الإنسان؛ ونتيجة لذلك أخذ الرجل يقلد الأبقار فيخور مثلهم، ويذهب إلى الإقامة بحظائرهم ويتناول الأكل معهم. استمر الرجل على هذا النحو زمنًا حتى ضعفت قواه وهزل جسمه وشحب لونه، فعرضه ذووه على الأطباء، ولكنهم عجزوا عن علاجه، وكان ابن سينا آنئذ قد طار صيته في الآفاق، وعرف بتطبيب مرض العقول، فلما عرض عليه هذا الرجل وفحص حاله، قال له: ما بالك أيها الرجل؟ وما الذي حل بك؟

فقال المريض: ليس بي شيء إلا أنني أصبحت بقرة تخور، آكل ما تأكل وأفعل ما تفعل، فقال ابن سينا: إذا كنت حقًا كذلك وأنت بقرة بالفعل فإني سأذبحك. فقال المريض: افعل ما تشاء فإني بقرة. فأمر ابن سينا بتقييد المريض بحبل متين وإلقائه على الأرض وإحضار سكين حاد، ثم تقدم إلى المريض وأراد أن يهوي بالسكين على رقبته، ولكنه عندما قرب السكين من نحره قال: ما بال هذه البقرة هزيلة ضعيفة؟ إنها لا تصلح للذبح، فقال المريض: إنها تصلح للذبح فاذبح، فقالابن سينا: كلا لا تذبحها حتى تمتلئ شحمًا ولحمًا، قال المريض: وماذا أفعل حتى أصير كذلك؟ فقال ابن سينا: تأكل كثيرًا وتشرب كما يأكل الناس

(١١٣) المناخوليا أو الماليخوليا: مرض من الجنون، إذ تسيطر على الإنسان أفكار رديئة، ويغلبه الحزن والخوف، وربما صرخ وخلط في منامه.

ويشربون، فقال المريض: أوتذبحني بعد ذلك؟ فقال ابن سينا: نعم.

ثم أخذ الرجل على نفسه عهدًا وميثاقًا ليفعلن ذلك، وأخذ يأكل ويشرب كما يفعل الناس، فعادت إليه صحته وقوي جسمه، وبذلك ارتد إليه عقله وزايله المرض وشفي تمامًا، ثم زاره ابن سينا بعد ذلك فلما رآه سليم الجسم والعقل، قال له مداعبًا: مابال البقرة قد سمنت؟ قال: نعم وقد أصبحت عاقلة.

(ب) وروي أن مريضًا من الأمراء عرض عليه بعد أن أعيا الأطباء أمره، فلما رآه وتحدث إليه عن مرضه، تبين للشيخ الرئيس أن الأمير مريض بالحب، ولكن المريض لم يرضَ أن يبوح للطبيب باسم محبوبته، ولما عرف ابن سينا أن شفاء الأمير المريض متوقف على معرفة اسم من يحبها؛ كي يزيل ما بينه وبينها من وجدانات وعواطف كامنة في نفسه قد ارتبطت بتلك المحبوبة، صمم على معرفة اسمها ومن تكون هذه المحبوبة بأية طريقة. وعندئذ تجلت عبقرية ذلك الطبيب النفسي، فأمر باحضار أكبر رجال مدينة الأمير سنًا، وأخذ يناقشه إلى أن وصل إلى معرفة اسم الفتاة التي يحبها الأمير وكان يخفي اسمها، وفي أثناء هذه المحاورة مع الرجل المسن كان الشيخ الرئيس قابضًا على يد المريض عند رسغه متتبعًا نبضه، وكان نبض المريض يشتد كلما اقترب ابن سينا من التعرف على الفتاة، وحينما عرف الاسم ازداد نبض المريض بسرعة مفاجئة، وقد تبين بعد ذلك أن الفتاة التي كان الأمير يحبها هي ابنة عمه، وأخيرًا عمل أهله على أن تزف إليه، وبذلك شفي الأمير.

لا شك أن في هذين الحادثين دليلًا على معرفة ابن سينا بالتحليل النفسي، ولا غرابة في ذلك، فالشيخ الرئيس كان مولعًا بالفلسفة، وله رسالة خاصة في أحوال النفس، حققها وقدم لها الأستاذ أحمد فؤاد الأهواني، وتتناول ثلاث رسائل: رسالة في البحث عن القوى النفسانية، ورسالة في معرفة النفس الناطقة، ورسالة في الكلام عن النفس الناطقة، ونشرتها دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢م، وابن سينا صاحب العينية المشهورة التي أشرنا إليها من قبل.

٢- خاتمة:

يقول أبو عبيد الجوزجاني صاحب الشيخ الرئيس ومرافقه: إن الرئيس قد حصلت له تجارب كثيرة فيما باشره من معالجات عزم على تدوينها في كتاب القانون، ولكنها ضاعت. ويذكر من ذلك ما حدث للشيخ الرئيس نفسه من أنه قد صدع يومًا، وقد أشرنا من قبل إلى هذا الحادث في باب ابن سينا الطبيب، فقد ترتب عليه ابتكارهل(طاقية الثلج).كما يروى أن امرأة كانت مصابة بالسل بخوارزم عرضت عليه، بعد أن بلغ بها اليأس من الشفاء، فأمر بألا تتناول شيئًا من الأدوية سوى (الجلنجبين) السكري، وقد تناولت منه المريضة مع الأيام مئة منه، وشفيت شفاء تامًا.

وقد أوصى أحد أصدقائه، وهو أبو سعيد بن خير الصوفي، قال: "ليكن الله تعالى أول فكر لك وآخره وباطن كل اعتبار وظاهره، ولتكن عين نفسك مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه،

مسافرًا بعقلك في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربك الكبرى". وتنطق كلمات هذه الوصية بقوة إيمان الشيخ الرئيس بالله تعالى، وقد مر بنا أنه كان يلجأ إلى الصلاة إذا أشكل عليه فهم مسألة علمية.

لقد نفع ابن سينا الناس جميعًا بطبه، وملأ الدنيا علمًا؛ إذ ترك أكثر من مئتين وسبعين كتابًا ورسالة أثناء حياة قصيرة لم تزد على بضعة وخمسين عامًا، لم ينفقها كلها في خدمة العلم وحده، فقد كان إلى جانب اشتغاله بالعلم رجلًا تشغله الدنيا، فأخذ منها بأكبر نصيب، وشغل منصب الوزارة وتحمل في سبيل ذلك ما تحمله من عذاب السجن. وإننا لنقف حائرين مبهوتين أمام عبقرية الشيخ الرئيس التي أنتجت هذا العلم العظيم، في الوقت الذي كان مشغولًا فيه بشؤون السياسة والحكم. رحم الله المعلم الثالث.

(جـ) ابن رضوان المصري:

وهو أبو الحسن علي بن رضوان علي بن جعفر، ولد بالجيزة ولم تعلم سنة ولادته. وكان والده رقيق الحال، يشتغل فرانًا في أحد المخابز، مما يدل على أنه تربى ونشأ في بيئة فقيرة، وكان أسود اللون قبيح المنظر، وقد جر عليه سواده وقبح منظره بعض الآلام؛ إذ كانت بينه وبين ابن بطلان[١١٤] البغدادي محاورات ومساجلات، كانت تمس في بعض

---

(١١٤) ابن بطلان: هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن بطلان، طبيب نصراني بغدادي، كان من تلاميذ أبي الفرج عبد الله بن الطيب، كما لازم الحسن بن ثابت بن زهرون الحراني الطبيب وانتفع بعلمه، وكان معاصرًا لعلي بن رضوان الطبيب المصري واشتدت المنافسة بينهما، فأدى ذلك إلى مراسلات عجيبة وكتب بديعة كانت بينهما، فإذا ألف واحد

الأحيان النواحي الشخصية، ويبدو أن الطبيب البغدادي قد عرف ما عليه ابن رضوان من قبح المنظر، فاستغل ذلك فيما شب بينهما من جدل وحوار، وأراد الطبيب المصري في رسائله التي كان يبعث بها إلى بغداد أن يجعل قبح المنظر ورداءة الشكل شرطًا فيمن يمارس صناعة التطبيب، وكان يعتقد أنه بهذه الوسيلة قد يرضي عزته ويصون كرامته التي خدشها ابن بطلان. وقد تناولت المساجلات التي كانت بين الطبيبين المصري والبغدادي كثيرًا من صور الأدب الطبي، كما تناولت إلى جانب ذلك شيئًا من الإسفاف في القول؛ فقد كان طبيب بغداد يلقب زميله المصري بتمساح الجن.

وكان ابن رضوان منذ أول حياته التعليمية مولعًا بالدرس والقراءة والاطلاع على الكتب والمراجع العلمية، غير أن ميله إلى الطب كان قويًا، فعكف على دراسة كتبه، ثم مارسه عمليًا حتى نبغ فيه، وصار له فيه ذكر حسن وسمعة طيبة، إلى أن وصل أمره إلى الحاكم الفاطمي، فاستدعاه وأحاطه بعطفه وكرمه ثم جعله رئيسًا على المتطببين بمصر.

منهما كتابًا أو ابتدع في الطب جديدًا أسرع الآخر في الرد عليه وتسفيه رأيه، غيرأن ذلك لم يمنع ابن بطلان من السفر إلى مصر للاجتماع بزميله المصري في صناعة الطب، فخرج من بغداد سنة (٤٤٠هـ/١٤٠٩هـ) مارًا بالرصافة وحلب وأنطاكية واللاذقية حتى وصل إلى الفسطاط، والتقى الطبيبان لقاء حارًا وقامت بينهما المناظرات، وكان ابن بطلان أرق أدبًا وأعذب لفظًا، أما ابن رضوان فكان أطب منه وأكثر علمًا بكتب الحكمة، ولكن الصلة بينهما ما لبثت أن تحرجت، فاضطر ابن بطلان إلى مغادرة مصر قاصدًا القسطنطينية، حيث كان الطاعون متفشيًا عام ٤٤٦هـ، ومن أهم مؤلفاته كتاب تقويم الصحة الذي نشرت له ترجمة لاتينية عام ١٥١٣م.

ومنذ ذلك الحين بدأت أحواله تتحسن، فاتسع رزقه وكثر الخير عنده، واتخذ له دارًا مشهورة بجبهة قصر الشمع وكانت تعرف بدار ابن رضوان؛ لشهرة صاحبها وما كان يتمتع به من نعمة سابغة بسبب نبوغه وشهرته في التطبيب.

حديثه عن سيرته:

ومن أطرف ما ينسب إليه أنه حين تحدث عن سيرته بدأ يوضح أولًا كيف تعلم صناعة الطب، ثم ما أفاده من هذه الصناعة من الربح المادي الجزيل، وثانيًا ما ينبغي أن يكون عليه الطبيب الفاضل من صفات، وبعد أن يشير إلى أنه من الواجب على الإنسان أن يختار من الصناعات ما هو أليق به يقول: وكانت صناعةالطب تزاحم الفلسفة في طاعة الله (عز وجل)، وكانت دلالات النجوم في مونديي تدل على أن صناعتي الطب، وكان العيش عندي في الفضيلة ألذ عيش؛ لذلك أخذت في تعلم الطب وأنا ابن خمس عشرة سنة. والأجود أن أقص عليك أمري كله، ولدت في مصر.

ثم يذكر طالع ولادته ويستأنف حديثه فيقول: فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي للتعلم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى (يقصد القاهرة)، وأجهدت نفسي في التعلم، ولما بلغت أربع عشرة سنة أخذت في تعلم الطب والفلسفة، ولم يكن لي مال أنفق منه؛ فلذلك عرض لي في التعلم صعوبة ومشقة، وكنت مرة أتكسب بصناعة النجوم ومرة بصناعة الطب، وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل

وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، هو آخر السنة التاسعة والخمسين، وكسبت بما فضل عن نفقتي أملًا كافيًا في هذه المدينة.ثم يقول: وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعمل تذكرة لي وأغيرها في كل سنة، إلى أن قررتها على هذا التقرير الذي أستقبل به السنة الستين.

ويبدو من قوله أن ما يذكره في هذا الكلام عن سيرته قد نقله من مذكرات كان يدونها عن نفسه، وأنه كان يحدث فيها تغييرًا إلى أن أقر ما كتبه ورضي عنه حينما بلغ الستين من عمره.

ثم يستأنف قوله: فيتحدث عن مسلكه في حياته اليومية وما كان يقوم به من أنواع التصرفات، فيقول: من ذلك أنني أتصرف كل يوم في صناعتي بمقدار ما يغني من الرياضة التي تحفظ البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة، وأجتهد في حال تصرفي في التواضع والمداراة، وغياث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج، وأجعل قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الجميلة.

وواضح في هذه العبارات ما كان عليه ابن رضوان من دقة في تنظيم عمله ورياضته وغذائه، وما يجب عليه نحو الناس، وأنه كان يلذ له العمل على إغاثة الملهوف وإجابة دعوة المكروب لكشف ما به من غمة، وأنه كان يجد في هذا العمل الإنساني لذة وارتياحًا وسرورًا يملأ جوانحه؛ إذ كانت نفسه المفطورة على فعل الخير تنفعل بما يتولد عن هذا العمل من انفعالات سارة تؤنسها وتدخل عليها البهجة.

ثم يقول: ولابد أن يحصل مع ذلك كسب ما ينفق، فأنفق منه على صحة بدني وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير أو تصل إلى التقتير، بل تلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل في كل وقت. وأتفقد آلات منزلي، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته، وما يحتاج إلى بدل أبدلته، وأعد في منزلي ما يحتاج إليه من الثياب، فما فضل عن ذلك صرفته في وجوه الجميل والمنافع، مثل إعطاء الأهل والجيران والإخوان، وما يحتاج إليه من غلة أملاكي ادخرته لعمارتها ومرمتها، ولوقت الحاجة إلى مثله، وإذا هممت بتجديد أمر مثل تجارة أو بناء أو غير ذلك فرضته مطلوبًا وقمت بدراسته، فإن وجدته من الممكن الأكثر بادرت اليه، وإن وجدته من الممكن القليلطرحته.

وأتعرف ما يمكن تعريفه من الأمور المزمعة وآخذ له أهبته، وأجعل ثيابي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة، وألزم الصمت وكف اللسان عن معايب الناس، وأجتهد في ألا أتكلم إلا بما ينبغي، وأتوقى الأيمان، ومثالب الآراء، وأحذر العجب وحب الغلبة، وأطرح الهم والاغتنام، وإن دهمني أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جبن ولا تهور. ومن عاملته عاملته يدًا بيد، ولا أتسلف إلا إذا اضطرت لذلك، وإن طلب أحد مني سلفًا وهبت له ما أخذه ولم أرد منه عوضًا.

وما بقي من يومي بعد فراغي من رياضتي صرفته في عبادة الله سبحانه، بأن أتنزهبالنظر في ملكوت السموات والأرض وتمجيد

محكمهما، وأتدبر مقالة أرسطوطاليسفي التدبير، وآخذ نفسي بلزوم وصاياها بالغداة والعشي، وأتفقد في وقت خلوتي ما سلف في يومي من أفعالي وانفعالاتي، فما كان خيرًا أو جميلًا أو نافعًا سررت به، وما كان شرًا أو قبيحًا أو ضارًا اغتممت به، ووافقت نفسي بألا أعود إلى مثله.

ثم قال وأما الاشياء التي أتنزه فيها فلأني فرضت نزهتي ذكر الله (عز وجل)، وتمجيده بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وكان قد كتب القدماء والعارفون في ذلك كتبًا كثيرة، رأيت أن أقتصر منها على ما أذكره من ذلك، وهي خمسة كتب من كتب الأدب، وعشرة كتب من كتب الشرع، وكتب أبقراط وجالينوس في صناعة الطب وما جانسها، مثل كتاب الحشائش لـ(ديسقوريدس) وكتب (روفس)[١١٥] و(أريباسيوس) و(بولس) وكتاب الحاوي للرازي. ومن كتب الفلاحة والصيدلة أربعة كتب، ومن كتب التعاليم (المجسطي) ومداخله، وما انتفع به فيه، والمربعة لبطليموس[١١٦].

---

(١١٥) روفس: طبيب يوناني من مدينة أفسوسأو (أفسيس) **Eupfese**، وهي مدينة قديمة بالقرب من أزمير كانت عامرة أيام اليونان والرومان، وهي مدينة أصحاب الكهف، وكان روفس قبل جالينوس مقدمًا في صناعة الطب، وقد ألف كتبًا طبية يذكر منها ابن النديم: كتاب الأمراض التي تعرض في المفاصل، وكتاب الذبحة وهو مقالة، وكتاب في وصايا حفظ الصحة، وكتاب الصرع، وكتاب الترياق، وكتاب الحمى وغيرها.

(١١٦) بطليموس: **Ptolemee**، وهو كلوديوس بطليموس رياضي فلكي جغرافي يوناني مصري، يقال إنه ولد في مدينة بلوسيوم ونشأ في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد، وقلما يعرف شيء عن أخبار حياته، ونظامه الفلكي العظيم يحتوي على كل ما عرفه من المراقبات الفلكية، وأهم قسم من نظامه الفلكي الذي أودعه كتابه المشهور، وهو الذي يعرف عند اليونان باسم

ومن كتب العارفين كتب أفلاطون[١١٧] وأرسطوطاليس والإسكندر وثامطيوس والفارابي وما انتفع به فيها، وهو في هذه العبارات يوضح لنا منهجه الاقتصادي وأسلوبه في التدبير، وعنايته بترتيب أحواله المعيشية وما يتطلب ذلك من إعداد وتنظيم، فهو ينفق من ماله الخاص في هذه الناحية ما يوفر له حياة طيبة سعيدة، وما زاد عن ذلك ادخر بعضه وأنفق بعضه في وجوه الخير، فأعطى الأهل والجيران والإخوان. وقد يعرض له أن يقوم ببعض المشروعات، فإن تحققت الفائدة منها أقدم عليها، وإلا طرحها. ثم يشير إلى منهجه في معاملة الناس، فهو رجل يحب الصمت ويحذر الخوض في عيوب الناس، إلا أنه لا يحب السلف وإقراض الغير أو الاقتراض، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وعندما يقرض غيره مالًا يفضل أن يهبه له ولا يأخذ منه عوضًا. كذلك يشير إلى منهجه بعد الفراغ من أعماله، فهو يصرف ما يبقى من وقته في العبادة والتأمل والنظر فيما أبدعه فاطر السموات والأرض، كذلك لا يغيب عنه أن يحاسب نفسه كل يوم على ما قدمت يداه، ويجعل من باب العبادة وذكر الله تعالى

(السنتكس الرياضي) وعند العرب بالمجسطي، وهو يبحث في العلاقة بين السماء والأرض وتأثير الكواكب في الأرض، ورأيه في الشمس والقمر، ومن رأيه أن الأرض في وسط المسكونة، وظل كلامه مقبولًا إلى أيام (كوبرنيكوس)، وظل كتاب المجسطي فترة طويلة المرجع الوحيد لعلوم الفلك والجغرافيا، ولولا العرب لفقد ذلك الكتاب، فقد ترجموه في خلافة المأمون، وسموه المجسطي بعد أن صححوا كثيرًا من أغلاطه، وانتقده أبو محمد جابر بن الأفلح الأندلسي في كتاب له يسمى (إصلاح المجسطي).

(١١٧) (أفلاطون): طبيب يوناني، لا يعرف شيء عن تاريخ حياته، ويقول ابن النديم إنه صاحب كتاب الكي، وهو أحد الذين أخذ عنهم جالينوس.

وتمجيده الاطلاع على الكتب والقراءة؛ فإن في تحصيل العلم زيادة المعرفة بالله تعالى، ولا ريب في أن ابن رضوان يرسم بذلك منهجًا كاملًا للحياة الصحيحة، جدير بنا أن نتأمله وأن نحذو حذوه.

آراؤه في صناعة الطب:

أشرنا إلى المساجلات التي قامت بينه وبين ابن بطلان البغدادي، ولم يكن لابن رضوان بالرغم من نبوغه العظيم في صناعة الطب أستاذ معروف تلقى عنه أصول هذه الصناعة؛ ولهذا كان من رأيه أن تحصيل صناعة الطب من الكتب أوفق من تحصيلها من أفواه المعلمين، وقد أثار هذا الرأي محاورات عنيفة بينه وبين ابن بطلان، الذي انبرى يرد عليه مستندًا إلى كثير من الأدلة والبراهين التي تؤيد أن التعلم من أفواه المعلمين أفضل من التعلم من الصحف وحدها، ومن الأسباب التي ذكرها قوله: "إن وصول المعاني من النسيب إلى النسيب خلاف وصولها من غير النسيب إلى النسيب، والنسيب الناطق أفهم للتعليم بالنطق، وهو المعلم، وغير النسيب له جماد وهو الكتاب، وبعد الجماد من الناطق مطيل لطرق الفهم، وقرب الناطق من الناطق مقرب للفهم". فالفهم من النسيب (وهو المعلم) أقرب وأسهل في رأي ابن بطلان من غير النسيب (وهو الكتاب).

ويبدو من هذا أن بعض أطباء تلك العصور كانوا يشغلون كثيرًا من وقتهم بالجدل اللفظي، وقد كانوا يجدون في ذلك لذة كبرى، غير أن بعض الأشياء التي كان يدور حولها الجدل لا تستحق منهم الاحتفال

الكبير بها وتضييع أوقاتهم الثمينة في إقامة الحجج عليها بقصد تغلب بعضهم على بعض.

وإذا كان ابن رضوان قد ضيع بعض وقته في المحاورات العنيفة التي قامت بينه وبين ابن بطلان، فإننا مع ذلك نستطيع أن نستخرج من حياته أنه كان يهتم بشيئين: صناعة الطب التي كان يمارسها، وقد وصل فيها إلى درجة النبوغ والعبقرية والإخلاص في طاعة الله (سبحانه وتعالى)؛ إذ كان يجعل طاعة الله من أفضل الاشياء التي يقضي فيها الإنسان وقته بعد القيام بما تتطلبه ضروريات الحياة، ويقول في هذا: إذا كان للإنسان صناعة ترتاض بها أعضاؤه ويمدحه بها الناس، ويكسب بها كفايته في بعض يومه، فأفضل ما ينبغي له في باقي يومه، أن يصرفه في طاعة ربه.

وأفضل الطاعات النظر في الملكوت وتمجيد المالك سبحانه، ومن رزق ذلك فقد رزق خير الدنيا والآخرة، وطوبى له وحسن مآب. فابن رضوان يذهب إلى أن الطاعات درجات ومنازل وأن أفضلها في نظره التأمل في ملكوت الله سبحانه وتعالى وتنزيهه وتمجيده، فمن رزقه الله صناعة جيدة ووفقه في صرف ما بقي من يومه في عبادته والتفكير في خلقه فقد أوتي خير الدنيا والآخرة.

كذلك يبدي ابن رضوان اهتمامًا كبيرًا بتحديد الصفات التي ينبغي أن تتوافر في الطبيب، ويقول ابن أبي أصيبعة –ومن كلامه نقلته من خطه– قال: الطبيب على رأي أبقراط هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال:

الأولى: أن يكون تام الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الروية، عاقلًا، ذكورًا، خير الطبع.

الثانية: أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

الثالثة: أن يكون كتومًا لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمراضهم.

الرابعة: أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

الخامسة: أن يكون حريصًا على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسة: أن يكون سليم الخلق، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في متناول (العلية) الأغنياء، فضلًا عن أن يتعرض إلى شيء منها.

السابعة: أن يكون مأمونًا ثقة على الأرواح والأموال، فلا يصف دواء قتالًا ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

ثم قال: والمعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه هذه الخصال، بعد استكماله صناعة الطب، والمتعلم لها هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خير ونفس ذكية، وأن يكون حريصًا على التعلم ذكيًا، ذكورًا لما قد تعلمه.

فهو بعد أن حدد ما ينبغي أن يتصف به الطبيب أراد أن يحدد

الصفات التي يجب أن يتحلى بها طالب الطب حتى يكون تعلمه لهذه الصناعة محققًا الغاية الإنسانية منها.

ومن آرائه الطبية العامة قوله: البدن السليم من العيوبهو البدن الصحيح، الذي كل واحد من أعضائه باقٍ على فضيلته، أعني أن يفعل فعله الخاص على ما ينبغي. ثم يشرح الطريقة التي تعرف بها عيوب الجسم، وهو يعني بذلك الطريقة التي يسلكها الطبيب في الفحص عن جسم المريض (الفحص الإكلينكي). قال: وتعرف العيوب بأن ينظر إلى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة، وتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة، مثل أن ينادي من بعيد فيعتبر بذلك حال سمعه، وأن يعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة، ولسانه في جودة الكلام، وقوته بحمل الثقل (الأشياء الثقيلة) والإمساك بالشيء، والضبط والمشي ونحو ذلك بأن ننظر مشيه مقبلًا ومدبرًا، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين، قد نصب رجليه وصفهما، ويعتبر بذلك حال أحشائه، ويتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط، ويعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء وفهمه لها، وطاعته بأن يؤمر بأشياء، وأخلاقه بما يميل إليه، وعلى هذا المثال أجرِ الحال في تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق.

أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقنع فيه حتى تشاهده بالحس، وأما فيما يعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة، وأما فيما يعرف بمسألة فابحث عنه بالمسألة، حتى تعتبر كل واحد من العيوب،

فتعرف هل هو عيب حاضر أو كان، أو هو متوقع أو الحال حال صحة وسلامة؟

إن ابن رضوان يرسم بدقة خطة محكمة للفحص الطبي، الذي يؤدي إلى الكشف عن المرض ومعرفة نوعه وأسبابه، ومن العجيب أن تتناول هذه الخطة جميع الأحوال الظاهرة والباطنة التي تتعلق بالمريض، وغير شك أنه كان يتبع هذه الطريقة في معالجة المرضى، والشيء الذي يلفت النظر أن الطب في هذا العصر بالرغم من تقدمه العظيم لم يصل في فحصه (الإكلينيكي) إلى ما هو أفضل مما أوضحه ابن رضوان.

ومن المبادئ الطبية التي كان يدعو إليها قوله: إذا دعيت إلى مريض فأعطه مالا يضره إلى أن تعرف علته، فتعالجها عند ذلك. ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أي خلط حدث أولًا، ثم تعرف بعد ذلك في أي عضو هو، وعند ذلك تعالجه.

ويفهم من قول ابن رضوان: ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف من أي خلط حدث. أنه يشير إلى نظرية الأخلاط التي أخذها أطباء العرب عن اليونان، وفسروها وشرحوها شرحًا علميًا دقيقًا، وكان يعتمد عليها الأطباء اليونانيون والعرب في معرفة أسباب الأمراض وعلاجها. وتقوم هذه النظرية على أسس نعرض إلى شيء منها، فالجسم مركب من سبعة أمور طبيعية: العناصر والأخلاط والأمزجة والأعضاء والصفات والوظائف والأرواح، وأن سبب الأمراض ينشأ من عدم التجانس بين هذه الأخلاط كما تقول: إن صحة الجسم موقوفة على ستة أمور ليست بطبيعية وهي:

الهواء والطعام والشراب، والحركة والسكون، والنوم واليقظة، والانحباس والاستفراغ (الإفراز).ويشمل الاستفراغ البول والغائط والجماع، وهذه الأمور غير الطبيعية تعدل الأمزجة وتحفظ الصحة، وحينما تفسد هذه الأخلاط أو لا تتجانس في أعمالها ينبغي أن نعطي المريض مسهلًا أو نفصده أو نحميه أو نبرده، وتقول هذه النظرية: عندما يفقد التجانس أو التوازن بين الأخلاط والأعضاء والوظائف تصير الأمور خارجة على الطبيعة فتحدث الأمراض.هذه بعض الأسس التي تقوم عليها نظرية الأخلاط والتي كان يؤمن بها ابن رضوان.

الأحداث المشهورة في عصره:

ومن الأحداث المشهورة التي وقعت في عصره وكان لها تأثير في حياته ذلك الغلاء الفادح والبلاء الماحق الذي نزل بالناس، ومات بسببه عدد كبير من المصريين، فقد نقص النيل وقل الخير أو امتنع، وارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعًا فاحشًا، ثم أعقب ذلك وقوع وباء عظيم، أخذ يشتد ويعظم بسبب ما أصاب الناس من ويلات الغلاء، بدأ ذلك في سنة ٤٥هـ ثم وصل الوباء إلى ذروته من حيث الإبادة والإفناء في سنة ٤٤٧هـ، ويقال إن السلطان المستنصر بالله كفن من ماله الخاص ثمانين ألف نفس، وإنه فقد في هذا الوباء ثمنمئة قائد من قواد الجيش، كما ورث السلطان أموالًا لا تحصى آلت إليه بسبب موت أصحابها بالوباء.

وأصيب ابن رضوان من جراء هذا الوباء باختلاط في عقله؛ لأنه أثناء نوبة الغلاء الشديدة التي سبقت الوباء أخذته الشفقة على يتيمة

فقدت من يعولها، فأنزلها في داره وأحلها فيها محل بنيه وأولاده، وكان يبالغ في العطف عليها ثم أخذت هذه اليتيمة تكبر ويشتد عودها في كنف ورعاية هذا الطبيب الإنسان، ولما كانت موضع ثقة جميع من في البيت، عرفت كل ما فيه من أسرار وأشياء نفيسة ومدخرة. وكان ابن رضوان يحتفظ في منزله بعشرين ألف دينار، فوقفت اليتيمة على مكانها، وفي يوم من الأيام صفا لها الجو بالبيت فاحتملت هذه الثروة العظيمة ولاذت بالفرار، ولم يستطع ابن رضوان أن يعرف الطريق التي تبعتها هذه السارقة في حمل هذا المال الكثير وكيف تسنى لها أن تهرب به.والغريب في الأمر أنه لم يقف لها على أي أثر، وضاعت جميع الجهود التي بذلها في الاهتداء إليها هباء، فكان لهذا الحادث الذي لم يكن يتصور وقوعه من فتاة مسكينة أحسن إليها أثر أليم في نفسه، فأصيب باختلاط في عقله وتوفي في خلافة المستنصر بالله في سنة ٤٥٣ هـ.

مؤلفاته:

ومن مؤلفاته الطبية أنه قام بشرح كتب جالينوس، فشرح كتاب الصناعة الصغيرة، ثم كتاب النبض الصغير، وكتاب المزاج، وكتاب جالينوس، ومن رسائله وكتبه التي وضعها رسالة في الجذام، وكتاب تتبع مسائل حنين ويقع في مقالين، وكتاب النافع في كيفية تعلم صناعة الطب، وهو ثلاث مقالات: مقالة في أن جالينوس لم يغلط في أقاويله في اللبن على ما ظنه قوم، ومقالة في دفع المضار عن الأبدان بمصر، ومقالة في سيرته، وله مقالة خاصة في الشعير وما يعمل منه، وكان قد

ألفها لأبي زكريا يهودا بن سعادة الطبيب، ثم مقالة أخرى في مذهب أبقراط في تعليم الطب، وله أيضًا تفسير ناموس الطب لأبقراط، وتفسير وصية أبقراط المعروفة بترتيب الطب، وله كلام في الأدوية المسهلة، وكتاب في عمل الأشربة والمعالجين، ومقالة في إحصاء عدد الحميات وكتاب في حل شكوك الرازي على كتب جالينوس، ويقع في سبع مقالات، ومن هذه المقالات السبعة في حفظ الصحة، ومقالة في أدوار الحميات، ومقالة في التنفس الشديد (ضيق التنفس)، ومن كتبه أيضًا كتاب الأدوية المفردة على حروف المعجم ويقع في اثنتي عشرة مقالة، وكتاب في الرد على الرازي.

هذه طائفة من كتبه الطبية، وله غير ذلك مؤلفات كثيرة، وغير شك أن هذا الانتاج الفخم –مع تشعب نواحي المعرفة التي نبغ فيها ابن رضوان– يحمل الدليل القاطع على أن هذا الطبيب العالم والعبقري الفذ وإن كان لا يؤمن بفكرة التخصص إلا أنه أظهر تفوقًا على جانب كبير من العمق والإحاطة فيما تناوله من دراسة.

د- ابن النفيس الدمشقي

وهو أبو الحسن علاء الدين بن أبي الحزم الدمشقي الصالحي والمعروف بابنالنفيس، ولد ونشأ بدمشق ونال قسطًا وافرًا من التعليم في مدارسها، وبدأ نجمه يسطع في النصف الأول من القرن الثالث عشر حتى صار شيخ الأطباء في عصره، وتوفي بالقاهرة في سنة ٦٨٧هـ، وكانت سنه إذ ذاك تبلغ ثمانين عامًا، وإذا فتكون سنة ولادته على

التقريب ٦٠٧هـ. وهو وإن نشأ في دمشق إلا أنه قضى معظم حياته في القاهرة يمارس الطب فيها، وكان قد أسندت إليه وقتئذ رياسة المستشفى المنصوري بالقاهرة.

وقد نبغ في علوم كثيرة وألف كتبًا قيمة ورسائل نفسية في الطب وغيره من العلوم، ألف في المنطق وعلوم البيان والفلسفة وأصول الفقه، واللغة العربية والطب، وكان نبوغه في هذه الألوان المختلفة من الثقافات دليلًا على قدرته العلمية وطاقته الكبيرة في الاستيعاب والفهم، فكان أشبه بدائرة معارف عامة. ولكنه نبغ في الطب بصفة خاصة، وقد ظهرت فيه براعته إلى درجة تفوق الوصف؛ وسبب ذلك أنه كان عالمًا من طراز جديد، دقيق الملاحظة والتعليق، يعتمد على البحث العميق والتفكير السليم، إذ كان يرى أن العلم لا ينال إلا بالعقل الباحث الذي يعين على التفكير والفهم، كما لا ينال إلا بالاعتماد على التجربة والملاحظة والاستنباط، وكان يرفض التقليد الأعمى رفضًا باتًا؛ لذلك انفرد ابن النفيس عن جميع معارضيه لأنه كان عالمًا وطبيبًا مستقل الفكر، مولعًا بالنقد الذي يراد منه البناء وتصحيح المعارف وتكوين المعلومات الصحيحة.

ولقد كانت حياته العملية قائمة على تمحيص الآراء والموازنة بينها، واستنباط الأصح والأرجح منها، وكان إيمانه بهذا المنهج في البحث يحمله في أكثر الأحيان على مخالفة آراء كثير من الأطباء الذين سبقوه، بل كان في أكثر الأحيان ينبذ ما وصلوا إليه من نتائج. وكان السائد في

عصره أن آراء جالينوسأو أبقراط من المقدسات التي لا يمكن أن يتسرب إلى صحتها أي ظل من الشك، فبدأ ابن النفيس يبدد اعتقاد الناس فيها ويقيم بتفكيره العميق وولعه بالابتكار أسلوبًا جديدًا في المعالجات الطبية.

مؤلفاته الطبية وابتكاراته:

يعد ابن النفيس أول من اهتدى إلى كشف الدورة الدموية الصغرى، فقد كان جالينوس وابن سينا قبله يزعمان أن الدم يتولد في الكبد، ثم ينتقل منه إلى البطين الأيمن في القلب، ثم يسري الدم في العروق حتى يصل إلى مختلف أعضاء الجسم ليمدها بالغذاء والحياة، فهما يقولان إن بعض الدم يدخل في البطين الأيسر عن طريق مسام موجودة في الحجاب الحاجز، حيث يمتزج بالهواء الذي يأتي من الرئتين، ويطلقان على هذا المزيج (الروح الحيوي) الذي ينساب في الشرايين إلى مختلف أجزاء الجسم، ويؤيدان هذا ببعض الحقائقالمشاهدة، وهي عروق الموتى ترى عادة مملوءة بالدم، في حين أن الشرايين تكون خالية منه، والطب الحديث يهدم هذه الحقيقة المشاهدة مستندًا إلى أن النبضات الأخيرة للقلب تنضح بالدم من الشرايين، غير أن الأطباء في العصور الوسطى وفيما قبلها لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة، فلما اطلع ابن النفيس على آراء جالينوس وابن سينا في الدورة الدمويةلم تستقم مع منطقة تفكيره، فأخذ يجرب بقدر ما عنده من وسائل التجريب، ويلاحظ ويستنبط، حتى وصل إلى أن البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء، ثم ينتقل إلى البطين

الأيسر، وبذلك أثبت أن الدم ينقى في الرئتين وتلك هي الدورة الدموية الصغرى، وهذا الكشف العظيم الذي وصل إليه واستنبطه واضح في كلامه عن تشريح الرئة والقلب، فهو يقول في تشريح الرئة: وأما الرئة فإنها من أجزاء، أولها شعب القصبة، والثاني شعب الشريان الوريدي، والثالث شعب الوريد الشرياني، ومجمعها لحم رخو متخلخل.

أما حاجة الرئة إلى الوريد الشرياني؛ فلأنه ينقل إليها الدم الذي قد لطف وسخن في القلب، ليختلط ما يرشح من ذلك الدم في مسام فروع هذا العرق في خلل الرئة بالهواء الذي في خللها ويمتزج به، فيكون من الجملة ما يصلح لأن يكون روحًا، إذا حصل ذلك المجموع في التجويف الأيسر من تجويفي القلب، وذلك بإيصال الشريان الوريدي لذلك المجموع إلى هذا التجويف.وأما حاجة الرئة إلى الشريان الوريدي؛ فلأنه ينفذ فيه هذا الهواء المخالط لذلك الدم ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب من المجموع روحًا (والمقصود من الروح الدم النقي).

ويقول في القلب: إن فعل القلب كما بيناه أولًا تولد الروح الحيواني، وتوزيع الدم إلى الأعضاء لتحيا، فتوليده ذلك بأن يسخن الدم ويلطف، حتى إذا خالطه بما في الرئة من الهواء صلح ذلك المجموع لأن يصير روحًا حيوانيًا؛ فلذلك لا بد من أن يكون اغتذاء الروح التي في القلب، بأن يلطف الدم الذي في القلب ويرق قوامه جدًا، ثم بعد ذلك ينقل إلى الرئة ويخالط ما فيها من الهواء، وينطبخ فيها حتى يتعدل ويصلح لتغذية الروح، ثم بعد ذلك ينفذ إلى الروح الذي في القلب

ويختلط به ويغذوه، وهذا الموضع الذي هو القلب وفيه الروحلا بد أن يكون متسعًا، ليتسع بمقدار كفاية البدن كله من الروح؛ فلذلك لا بد من اشتمال القلب على تجويف يحوي الدم، وتجويف آخر يحوي الروح، فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء بالدم وهو الأيمن، والآخر مملوء بالروح وهو الأيسر، ولا منفذ بين هذين المنفذين البتة، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروحفيفسد جوجرها. والتشريح يكذب ما قالوه، والحاجز بينهما أشد كثافة من غيره، لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح. فقول من قال "إن ذلك الموضع كثير الخلل" باطل؛ لأن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطين الأيمن كما قررنا أولًا.

والذي يستخلص من ذلك كله أن الدم (الفاسد) يندفع من الجسم إلى البطين الأيمن فيسخن ويلطف، ثم ينتقل عن طريق الوريد الشرياني إلى الرئة لكي يرشح فيها، ثم ينتقل إلى التجويف الأيسر وقد أصبح روحًا (أي دمًا نقيًا)، ومنه يوزع على جميع أجزاء الجسم. ولقد كان لهذا الكشف الطبي قيمة عظيمة، فقد مهد الطريق أمام (وليم هارفي) الطبيب الإنجليزي المشهور، الذي استطاع في ضوء ما كشفه ابن النفيس في النصف الأول من القرن الثالث عشر، أن يكشف الدورة الدموية الكبرى، وكان ذلك في عام ١٦٢٨م، ويقول الدكتور يوسف شخت إن ابن النفيس كان الإمام الأول لهارفي الطبيب البريطاني.

ومن أشهر مؤلفاته الطبية كتاب الموجز، وهو ملحق لكتاب القانون

لابن سينا، ثم كتاب (شرح تشريح القانون)، وكان ابن سينا قد عني في كتاب القانون بعلم التشريح عناية فائقة، لكن ابن النفيس جريًا على طريقته في النقد ومنهجه في البحث، قد رأى فيما كتبه ابن سينا ما يحتاج إلى شرح وتفسير، وهو يوصي في مقدمته بدرس التشريح ويبين المصادر التي تعرف لرأي ليس له نسبه إلى صاحبه. وإذا شرح نظرية من النظريات لم تكن من اختراعه ذكر اسم صاحبها.

يقول في مقدمة كتابه تشريح القانون: إن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي علي بن عبد الله بن سينا في التشريح من جملة كتاب القانون، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث منه، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظومًا، وقد صدنا عن مباشرة التشريح واضع الشريعة وما في أخلاقنا من الرحمة؛ فلذلك رأينا أن نعتمد على تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر، وبخاصة الفاضلجالينوس؛ إذ كانت كتبه من أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن، لأنه اطلع على كثير من العضلات التي لم يسبق إلى مشاهدتها؛ فلذلك جعلنا اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله، إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ، أو إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها. وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه.

وواضح من كلام ابن النفيس أنه يعتمد على آراء ما قبله فيما صح وثبت منها، وفي غير ذلك يحكم النظر الدقيق والبحث الحر عن شيء يخالف آراءهم، دعا إليه وآمن به؛ لأن ذلك ما يتطلبه الأسلوب العلمي، ومنهج البحث السليم في الوصول إلى الحقائق، ويعني ابن النفيس في مؤلفه هذا برسم خطة تعين على فهم فن التشريح، ولما شرع يتحدث عن تشريح الشرايين والأوردة الصغرى، فسبق بذلك (سرفيتوس) بثلاثة قرون، وقد أشرنا إلى هذا الكشف فيما تقدم من الكلام عنه، ويوضح لنا ابن النفيس أن الدم ينقى في الرئتين فيقول وهو يصف التشريح في الشريان الوريدي: ولابد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء. ثم يقول: وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويفي القلب، وإذا لطف الدم في هذا التجويف فلابد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح، ولكن ليس بينهما منفذ فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر، كما ظنه جماعة. ثم يقول: فلابد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشريانيإلى الرئة لينبث في جرمها، ويخالط الهواء ويتصفى ألطف ما فيه، وينفذ إلى الشريان الوريدي، ليصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح، وما بقي منه أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها. والذي يلاحظ على أسلوب ابن رضوان أنه ينقصه الانسجام اللفظي والترابط بين الكلمات.

تلك صورة سريعة عن ابن النفيس الطبيب العربي الدمشقي، الذي ذاع صيته في النصف الأول من القرن الثالث عشر.

(هـ) أبو القاسم الزهراوي:

هو طبيب أندلسي مشهور من عباقرة الطب الجراحي في العصور الوسطى، عاش في الفترة من منتصف القرن العاشر الميلادي إلى أوائل القرن الحادي عشر، ولد بالزهراء (بالقرب من قرطبة)، ولم تعلم سنة ميلاده ولكنه توفي في سنة ١٠١٣م. ويروى أنه عرف أكثر من مئتي آلة ومبضع من آلات الجراحة الطبية، وقد وضع تصميمهما بنفسه، وشرح كيفية استعمالها شرحًا وافيًا، ولما ظهر نبوغه في الطب تولى التدريس بجامعة قرطبة، فابتدع أسلوبًا جديدًا في تناول المسائل الطبية وعرضها، كان له أثر كبير في تقدم العلوم الطبية؛ لذلك قصد جامعة قرطبة عدد كبير من الأساتذة وطلاب الطب الأوروبيين.

كان الأسلوب الذي ابتدعه في عرض نظريات الطب العويصة أسلوبًا أدبيًا جميلًا، فكان له أثر آخر في نفوس طلابه؛ إذ بعث فيهم بفصاحته في الشرح، وقدرته على استخدام اللغة الأدبية في تيسير القواعد العلمية=حب الأدب العربي، فأقبلوا على دراسته. وفضلًا عما كان له من شهرة في الجراحة، فقدكان علمًا في طب الأسنان.

مؤلفاته الطبية:

ألف كتبًا مفيدة في الطب، منها كتاب في أمراض النساء، وكتاب في استحضار الأدوية، وقد ترجم الأخير إلى اللاتينية، وطبع في البندقية سنة ٥٨٩م، ولكنه اشتهر بكتابه في الجراحة، الذي يدعى (التصريف لمن عجز عن التأليف)، والكتاب يتناول ثلاثين فصلًا، قسمه المؤلف

أقسامًا ثلاثة، فجعل الفصل الأول في الطب الداخلي، والثاني في الأقرباذين والكيمياء، والثالث في الجراحة، وقيمة هذا الكتاب الطبية تتجلى في أنه ظل المرجع الكبير الذي يرجع إليه الأطباء والجراحون في أوروبا إلى نهاية القرن السابع عشر.

وكان أطباء العرب منذ العصر الجاهلي يعولون على الكي، باعتباره علاجًا حاسمًا لكثير من الأدواء، وإن كان الطب الحديث ينظر إليه نظرة أخرى. ويلاحظ أن الزهراوي كان من المهتمين بالعلاج بالكي وقد أبدى هذا الاهتمام في كتاب التصريف، فتوسع في الاعتياد عليه، واستخدمه في فتح الجراحات، واستئصال الأورام السرطانية، وكان يفضله في أحيان كثيرة على استعمال المشرط، بالرغم من أنه كان من عباقرة الطب الجراحي. ويؤيد الدكتور خير الله في كتابه الطب العربي رأي الزهراوي في الانتفاع بالكي في فتح الخراجات، فيقول: "ونحن اليوم نعتقد بأن استعمال الكي خير الوسائل الجراحية لفتح الخراجات، ولقد نصح الزهراوي بضرورة حصول التصاقات بين الكبد والبريتون، قبل فتح خراج الكبد حتى لا يتسرب الصديد إلى البطن ويميت المريض، ويدعو الزهراوي إلى ضرورة إلمام الجراح بالتشريح، ومعرفة كل عضو في جسم الإنسان وتركيبه ووظيفته، إذ لا يتسنى للجراح أن يقوم بمهمته إلا إذا ألم إلمامًا دقيقًا بتشريح أجزاء الجسم جزءًا جزءًا.

تجاربه وابتكاراته في الطب:

أشرنا من قبل إلى أنه ابتكر من آلات الجراحة، وكان يعالج أمراضًا كثيرة بالكي، وقد ذكرنا أنه عالج أكثر من خمسين داء بالكي بالنار. ويروى أنه شاهد حالة نزيف في أسرة فعالجها بالكي، وكان أول من أعد إحصائية دقيقة لجميع أمراض النزيف الدموي، وأول من استعمل ربط الشرايين قبل أن يتنبه إلى ذلك غيره من الأطباء، وأول من اخترع طريقة استئصال الحصى المثانية في المرأة عن طريق المهبل، وكان أول طبيب عربي في العصور الوسطى نجح نجاحًا باهرًا في عملية شق القصبة الهوائية، كما قام بعمليت تفتيت الحصى في المثانة.

وتذكر بعض المراجع الفرنسية أن أبا القاسم الزهراوي كان أحد أركان الثالوث الطبي الذي يتألف من: أبقراط وجالينوس والزهراوي، ويقول البروفيسور (بوشو) أحد أساتذة الطب بجامعة باريس: إن الترجمة التي قام بها الدكتور (ليكلير) لجراحة أبي القاسم الزهراويأثبتت أن الجراح العربي قد جعل في حيز الممكنات اليومية عمليات جراحية عدة كانت مهملة، كما دلت على أنه استخرج اللحميات من الأنف واستعمل حجر جهنم وهو (نترات الفضة)، وأقدم في الكي على أشياء لم يجرؤ عليها أحد قبله، ويرى ألا تستعمل الكاويات إلا مع ذوي البنية الجافة الحارة، وفي رأيه أن المعادن كلها صالحة لأن يكوى بها إذا أحميت، ولكنه كان يفضل الحديد إذا ارتفعت حرارته فأصبح أحمر قانيًا، وينصح باستعمال الكي في القرحات السرطانية.

وبعد، فقد كان أبو القاسم الزهراوي علمًا من أعلام الطب في الأندلس في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلادي، فقد كان نابغة الطب الجراحي، كما برع في فنون الطب الأخرى، وقد استمر كتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) المرجع المعتمد في فنون الطب في جامعات وادي السين ومونبيلييه إلى أواخر القرن السابع عشر.

(و) أسرة زهر:

ونبغ عدد كبير من الأطباء من أسرة زهر، وهي أسرة مسلمة أندلسية، امتد تاريخها من القرن العاشر إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وهي من أصل عربي، هاجرت من بلاد العرب واستقرت أول الأمر في شاطبة(١١٨) في الجنوب الشرقي من الأندلس، ثم تفرق أبناؤها وأحفادها في أنحاء شبه جزيرة أيبيريا(١١٩). وينسب ابن الأنبار(١٢٠) الجد الأعلى لهذه الأسرة إلى إياد بن معد بن عدنان، ومن أجل ذلك يلقبه بالإيادي. ومن أطباء هذه الأسرة المجيدة:

---

(١١٨) شاطبة: بلد بالأندلس بالقرب من بلنسيه، وينسب إليها أبو محمد القاسم بن فيره الضرير، وهو صاحب القصيدة المشهورة في القراءات، وكلمة فيرة لاتينية معناها الحديد.

(١١٩) أيبيريا: أطلق الإغريق شبه جزيرة أيبيريا على بلاد الأندلس، وكلمة أيبيريا مأخوذة من (أيبروس) أو (أبرو) اسم نهر بها.

(١٢٠) ابن الأبار: هو أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، فقد كان والده يشذب النخل ويلقحه، ولد في مدينة بلنسيه **Vaience** على بحر الروم، وكان كاتبًا لمحمد بن حفص، وألف كتبًا منها الصلة (لابن بشكوال) وقد سماه التكملة، وهو مطبوع في مجلدين يشتملان على ألفي ترجمة لأهل الأندلس من علماء وأدباء وشعراء، وتوفي سنة ٦٥٨هـ.

١-أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، كان من أمهر أساتذة الطب في عصره، مارس صناعته أول حياته بمدينة القيروان[١٢١]، ثم انتقل إلى القاهرة واشتغل فيها بالطب مدة كبيرة، ثم عاد إلى الأندلس واستقر في دانية[١٢٢]، حيث منحه أميرها مجاهد بن عبد الله العامري الكثير من عطفه وأغدق عليه هداياه وألحقه ببلاطه. ومنذ ذلك الحين بدأت شهرته تملأ جميع أنحاء الأندلس، وعرف ببراعته في الطب، إلى جانب أنه كان فقيهًا على درجة كبيرة من الإلمام بقضايا الفقه الإسلامي. ويروي ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أنه غادر دانية ميممًا شطر أشبيليه[١٢٣]، حيث

---

(١٢١) القيروان: مدينة عظيمة بالمغرب العربي بناها عقبة بن نافع الجهني سنة ٤٥هـ، وقيل سنة ٥٠هـ، وجعلها مقرًا وحصنًا لعسكره، ثم صارت من بعد قاعدة يقيم بها ولاة أفريقية، وكانوا يقيمون قبل ذلك في زويلة وبرقة، وينسب إليها أبو العباس الحسن ابن رشيق صاحب كتاب العمدة والمتوفى سنة ٤٥٦هـ، والقيروان معناها: القافلة إذا خرجت لمحاربة أو غزو.

(١٢٢) دانية **Denia**: مدينة بالأندلس على ساحل البحر الرومي (الأبيض المتوسط)، أسسها القرطاجيون وكان بها معبد باسم المعبود (ديانا)، ومنه اشتق اسمها، وكان بها الموفق العامري من ملوك الطوائف، ونشأ بها أبو عمر الداني صاحب كتاب التفسير في القراءات، وهو من كتب التجويد المشهورة.

(١٢٣) أشبيليه: **Seville**: مدينة من أعظم مدن الأندلس تقع على شاطئ نهر الوادي الكبير، وكانت تعد رابعة المدن في هذا الفردوس المفقود، وصفها الرواد والسائحون بما لم توصف به أفخم الحواضر إذ ذاك، وقد بنى الرومان حولها سورًا ضخمًا وجعلوا عليه مئة وستة وستين برجًا، وبنى بها أول مرصد فلكي إسلامي، وكان أول مرصد في أوروبا، وفيها ولد محمد بن هانئ الأندلسي الشاعر (متنبي الغرب)، وكان بها أبو بكر ابن قزمان القرطبي إمام الزجالين، وفي إحدى ساحاتها أمر الكردينال (شيمتر) بإحراق ثمانين ألف كتاب من مصنفات العرب، فأضاع هذا القس الجاهل ثروة علمية ضخمة، حرم العالم كله من ثمراتها العظيمة.

أقام بها إلى أن وافاه الأجل المحتوم وقد ترك ثروة كبيرة، ولكن ابن خلكان يؤكد أنه لم يغادر دانية وظل بها إلى أن توفاه الله تعالى.

٢-ومن أطباء أسرة زهر: أبو العلاء زهر بن أبي مروان، وكنيته أبو العلاء، وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن هذه الكنية حرفت في العصور الوسطى فصار أبوالي **Aboali**، ثم أضيف إلى زهر فقيل أبو الميزور **Abuielizor**. وتلقى الطب عمليًا ونظريًا على أبيه ثم على أستاذ مصري، يدعى أبو العيناء المصري، وقد مهر في تشخيص الأمراض إلى درجة كبيرة تدعو إلى الإعجاب، وكان مع اشتغاله بالطب ونبوغه عالمًا بالأدب والحديث، ثم زار قرطبة، وأفاد من دروس أعظم الاساتذة في عصره، وما لبث أن ذاعت شهرته في الأندلس، فاستدعاه المعتمد بن عباد أمير أشبيلية وألحقه بحاشيته وغمره بعطفه، وكانت لأبي العلاء ضيعة ورثها عن جده، ثم صودرت فأعطاها إليه المعتمد، ولما استولى المرابطون[١٢٤] على الأندلس خلع يوسف بن تاشفين المعتمد من إمارة أشبيلية، فحزن أبو العلاء أشد الحزن، ثم حاول متأثرًا بعطف ابن عباد أن يظل على الوفاء له،

---

(١٢٤) المرابطون: كانوا في أول أمرهم مجموعة من قبائل صنهاجة تدين بالمجوسية، وتقطن الصحراء قبل الإسلام (الفتح الإسلامي) فيما بين بلاد البربر والسودان، وكانوا يتخذون اللثام شعارًا يميز بينهم وبين غيرهم من الأمم والقبائل، ثم أسلموا، ومن أعظم ملوكهم يوسف بن تاشفين الذي اختط مراكش وجعلها قاعدة لملكه، واستعان به عرب الأندلس على أعدائهم الإسبان فهزم ألفونس الرابع، وكان يحاصر سرقسطة، ثم أقاموا لأنفسهم دولة بالأندلس، إلى أن غليبهم الموحدون فاستولوا على ملكهم في الغرب والأندلس.

ولكن قوة المرابطين أرغمته فيما بعد على الانضمام إليهم، وسرعات ما أعلن ولاءه ليوسف بن تاشفين الذي كافأة على ذلك بأن منحه رتبه الوزارة، واستمر يخدم المرابطين برأيه وطبه، إلى أن توفي بقرطبة ثم نقل جثمانه إلى أشبيلية ودفن بها سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م، على ما رواه ابن الأبار.

٣-ومن نبغاء أطباء هذه الأسرة أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء ابن زهر، ويعرف بأبي مروان ابن زهر، وحرف نساخ القرون الوسطى اسمه فكانوا يسمونه أفنزور **Avenzoar**، ولد بأشبيلية في زمن تقدره دائرة المعارف الإسلامية بأنه بين سنة ٤٨٤هـ وسنة ٤٨٧هـ (١٠٩١م-١٠٩٤م). وتلقى علوم الأدب والفقه والشريعة، وبلغ فيها منزلة عالية ثم علمه أبوه الطب، ولم يمر وقت طويل حتى بز أستاذه في الطب وفاقه في كثير من مسائله الدقيقة، ثم ساعدته ميوله العلمية على النبوغ السريع في الطب، فكان أمهر أطباء أسرة زهر ومن نطس أطباء العرب في العصور الوسطى، وكانت له تجارب مبتكرة في إعداد الأدوية ومعالجة المرضى. بدأ حياته العلمية يخدم المرابطين كما كان أبوه من قبل، وبعد انتهاء عهد المرابطين التحق بخدمة الموحدين[١٢٥]، وكان ابن رشد فيلسوف الأندلس حينئذ

---

(١٢٥) الموحدون: هم أتباع المهدي محمد بن تومرت، وكان أئمة المغرب الثائرين على مذهب أهل الظاهر، وأشعري المذهب، بايعه أصحابه، وقاتلوا المرابطين حتى انتصروا عليهم، وعندئذ قامت دولة الموحدين بالمغرب والأندلس، ويعد عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، ومن أعظم ملوكها يعقوب بن يوسف، أو يعقوب المنصور، وكان يعاصر صلاح الدين

يحتل مركزًا ساميًا في العلوم والفلسفة، فتعرف بالطبيب الناشئ وقامت بينهما صلة قوية توطدت عراها على مر الأيام، وكان ابن رشد يقدر أبا مروان بن زهر، ويعتز بنبوغه وعبقريته في صناعة الطب، ولا يفتأ يتحدث عنه في المحافل العامة، ونقل عنه أنه قال فيه: إنه أعظم الأطباء منذ عهد جالينوس.

واضطر أبو مروان إلى الطواف بشمال أفريقية ومر بمراكش(١٢٦)، ويقال إنه لأسباب غير معروفة وقعت بينه وبين أمير البربر(١٢٧) علي بن يوسف بن تاشفين جفوة شديدة، فاحتقره الأمير وبالغ في تحقيره ثم أمر بسجنه، فكان هذا العمل من جانب الأمير البربري إهانة كبرى للطبيب

الأيوبي، وقد طلب منه صلاح الدين أن يعاونه على الصليبيين، وفي عهد يعقوب المنصور بلغ ملك الموحدين ذروة المجد، فارتقت العلوم والمعارف، وظهر كثير من نوابغ العلماء والأطباء والفلاسفة، منهم ابن طفيل وابن زهر وابن رشد وابن مضاء القرطبي، الذي ثار على نحوالمشرق محاولًا هدم نظرية العامل، وأكثر المجددين في النحو في عصرنا يعتمدون على ابن مضاء.

(١٢٦) مراكش: **Maroc** مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى، بناها يوسف بن تاشفين سنة **٤٥٤**هـ، واتخذها مقرًا لملك المرابطين أو الملثمين **Almoravides**، وكانت أيضًا مقر الملك الموحدين **Merlnides** من بعدهم سنة **٥١٤**هـ، ثم صارت لبني مرين في سنة **٦١٤**هـ، وقتل فيها الفتح بن خاقان الأشبيلي سنة **٥٣٥**هـ، ومنها ابن العذارى المورخ صاحب كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب.

(١٢٧) البربر: بالمغرب **Berberes**، هم قبائل كثيرة لا تحصى، وأشهرها قبائل البرانس وقبائل البتر، وكانت لها السيادة والسلطان على المغرب بحكم الكثرة والغلبة لعهد الفتح الإسلامي، أما بطون البرانس فهي أربة وهوارة وصنهاجة وكتامة، وكان التقدم لأربة ومن أكبر بطون كتامة زواوة، ومنها عرف عساكر الجزائر عند الإفرنج باسم الزواوة، وكانت مواطنهم محنفة ببجاية وما جاورها، أما بطون البتر فهي نفوسة وزنانة.

العظيم وحطًا من شأنه وكرامته، وقد أشار ابن زهر إلى ذلك في بعض مصنفاته في أسف بالغ.

ولما سقطت دولة المرابطين بقيام الموحدين اضطر أبو مروان ابن زهر إلى الانحياز إلى هذه الدولة الجديدة، وقد كان في وسع ابن زهر أن يبقى وفيًا للمرابطين لولا تلك الإهانة الشديدة التي وجهوها إليه.وغير شك أن ذلك قد أوغر صدره وملأه غضبًا عليهم، فلم تكد تقوم دولة الموحدين حتى أسرع في الانضمام إليها، ويروى أن عبد المؤمن أكرمه كل الإكرام ومنحه الجوائز السنية، وخلع عليه لقب الوزارة.

مؤلفاته الطبية:

وضع أبو مروان بن زهر كتبًا كثيرة في الطب، لم يشتهر منها إلا كتابان، الأول كتاب (الاقتصاد وإصلاح الأنفس والأجساد)، وقد شجعه على تأليفه –كما يروى– الأمير إبراهيم بن يوسف، والثاني كتاب (التيسير في المداواة والتدبير)، وقد وضعه بإشارة من صديقه الفيلسوف ابن رشد وكان أبو مروان يؤمن بنظرية الأمزجة التي وضعها جالينوس من الناحية النظرية، ولكنه من الناحية العملية كان يؤمن إيمانا قويًا بالتجربة وأثرها؛ إذ كان يرى أن التجربة خير مرشد.

وله في هذا الكتاب ابتكارات طبية تقوم على التجارب الصحيحة والملاحظات الدقيقة، وبذلك أضاف إلى علوم الطب ثروة علمية جديدة، من ذلك وصفه الدقيق للأورام الحيزومية وخراج التامور، واهتمامه الشديد ببيان فضل التغذية الصناعية وشرح طريقتها بدقة

ومهارة، سواء أكانت بطريق الحلقوم أو بطريق الشرج، وظل يخدم الطب في عهد الموحدين سنوات طويلة إلى أن توفي بسبب ورم خبيث، أصابه في أشبيلية سنة ٥٥٧هـ، ودفن خارج باب النصر وترك ابنًا وابنة.

وترجم كتابه التيسير إلى اللاتينية في القرن الرابع عشر، وكان عمدة التدريس في المدارس الطبية الفرنسية، ويقول البروفيسور (بوشو) وهو من أساتذة كلية الطب بباريس: إن ابن زهر أول من اهتم بدرس العظام لمداواة الوثأة والكسور[١٢٨]، وقد عرف التشريح معرفة دقيقة؛ لأن ما تركه من وصف الدمامل في الصدر وفي البريتون وفي المعدة يدل دلالة صريحة على معرفته التشريحية القائمة على التجربة، وهو يشير باستعمال الحقن المغذية في أمراض المريء والمعدة؛ لأنه كان يعلم أن المعي الغليظ يتضمن مسالك ماصة للكيلوس.

ويقول الدكتور (كياز) أستاذ الطب بكلية ليون الطبية: أما فيما يتعلق بعامل الداء المعروف بالجرب، فإن أطباء العرب كانوا أول من دل على مكانه، وكان أول من وصفه وصفًا لا غبار عليه ابن زهر حكيم الأندلس وسماه الصواب.

٤-ومن أشهر أطباء هذه الأسرة طبيب يدعى الحفيد، وهوأبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر، وهو ابن صاحب الترجمة السابقة، ولد في سنة ٥٠٤هـ وقيل ٥٠٧هـ، وتوفي في عام ٥٩٥هـ. ويتميز

---

(١٢٨) الوثأة: وثئت يده: أصابها وهن ووصم لا يبلغ أن يكون كسرًا فالوثأة وصم يصيب اللحم لا يبلغ العظم ودون أن ينكسر العظم، الوثئ: المكسور اليد.

الحفيد من بين أطباء هذه الأسرة بأنه كان منصرفًا كل الانصراف إلى الناحية العملية فيالمداواة والعلاج والفحص عن المرضى، بحيث كان يشغل وقته كله بصناعة التطبيب عمليًا، ولم يشغل نفسه بالتأليف إلاقليلًا، وبرز الحفيد في الطب بدرجة فاق بها كل أطباء أسرة زهر، وملأت شهرته الأندلس ثم امتدت إلى شواطئ أفريقية.

وكان يتمتع بسمعة عظيمة في أوروبا النصرانية، فضلًا عما كان يكنه له مسلمو الأندلس وشواطئ أفريقية من تقدير ومحبة واعتراف بمكانته العظيمة في الطب، ويروى أنه وضع رسالة في طب العيون، وتكاد تكون المؤلف الوحيد الذي نسب إليه، ولم يقتصر نبوغه على الطب فحسب، فقد برع في الأدب والشعر، حتى عرف برقة الشعور ودقة الإحساس، ثم بعث في طلبه الخليفة الموحدي يعقوب بن يوسف المنصور، فجعله من أخص رجال بلاطه بأفريقية وطبيبه الخاص، وما لبث الخليفة أن أحاطه بعطفه الشديد ومنحه الجوائز السنية والخلع الثمينة، فأثار بذلك كوامن الحقد والحسد في نفس الوزير أبي زيد عبد الرحمن بن يوجان؛ إذ ساءه أن يرى الحفيد موضع التكريم من الخليفة مقدمًا عليه، فحمله ذلك على ارتكاب جريمة لا تغتفر، فدس له السم ولابنة أخته، وكانت من أشهر الطبيبات في ذلك العصر في أمراض النساء وفنون الولادة، وهكذا دفع الحقد الأعمى هذا الوزير المجرم على قتل طبيب عظيم وطبيبة مشهورة، فحرم الناس جميعًا الانتفاع بطبهما، وما كاد الخليفة يعلم بخبر وفاته حتى أعلن الحزن عليه ورثاه بنفسه، ثم دفن بمراكش بحديقة الأمراء عام ٥٩٥هـ.

تلك سيرة أسرة أندلسية اشتهرت بالطب؛ إذ كان أكثر رجالها ونسائها من الأطباء المبرزين، رحمهم الله جميعًا.

خاتمة ونتيجة

تعطينا الفصول السابقة صورة متكاملة عن موقف العرب من العلوم الطبية، وجهودهم العلمية في هذا الميدان منذ العصر الجاهلي إلى العصر الوسيط، الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية واحتلت فيه مكانًا مرموقًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، وقد مر الطب عند العرب بمراحل يمكن تلخيصها فيما يأتي:

١- المرحلة الأولى: وهي تمثل العصر الجاهلي، حينما كان الطب قائمًا على الاعتقاد بالأرواح واستخدام الرقى والتعاويذ وكتابة التمائم، وحينما كان الكاهن أو العراف هو الذي يقوم بالتطبيب، ولقد كان العراف يقوم بوظيفتين خطيرتين في حياة العرب الجاهليين: الأولى قيامه بمداواتهم وعلاجهم من أمراضهم بطريقته الخاصة، والثانية قيامه بإخبارهم بما يجئ به الغيب.

وكان الجاهليون يعتقدون اعتقادًا جازمًا بكل تصرفات العرافين والكهنة، وما يأتون به من أعمال، وفي ذلك تصوير لحياتهم العقلية والدينية، غير أن طب العرافين لم يكن مسيطرًا على جميع أذهان العرب في ذلك العصر، فقد كان العرب إلى جانب ذلك يؤمنون بنوع آخر من الطب يقوم على التجربة واستخدام أنواع من العلاجات المادية، وإن كانت هذه الأساليب التجريبية لا تزال بدائية، وكان الأطباء الذين

يستخدمون تلك الأساليب يعيشون مع القبائل الرحل، وقد استطاعوا بالقدر الذي وصلت إليه تجاربهم معرفة بعض الطرق الطبية التجريبية لمعالجة الإنسان والحيوان، فكان مما أفادوا من طول ملازمتهم لعرب الصحراء في حلهم وترحالهم أنهم وقفوا على بعض أطوار النمو التي يمر بها كل من الإنسان والحيوان، كما عرفوا عن طريق تشريح الحيوانات بعض المعلومات الطبية عن تشريح أعضاء الإنسان، فلما هدتهم تجاربهم إلى استخدام الكي في العلاج، كانوا يستعملونه في الموضع الذي يعجل باستئصال الداء من جذوره، وبالجملة فقد كان الطب في هذه المرحلة أكثره قائم على الشعوذة، وبعضه قائم على التجربة الساذجة التي لا تستند إلى أساس علمي دقيق.

٢- المرحلة الثانية: وهي تمثل عصر صدر الإسلام، حينما سطع نجم بعض أطباء العرب الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، وفي مقدمتهم طبيب العرب المشهور الحارث بن كلدة، وكان قد تعلم الطب في معهد (جنديسابور) بفارس، وكان هذا المعهد يدرس آراء جالينوس وأبقراط والطب الفارسي، فألم الحارث ببعض هذه الآراء التي كان لها أثر كبير في تقدم أساليبه وطريقه في العلاج، وقد نصح الرسول (صلوات الله عليه سعد بن أبي وقاص) حينما مرض بأن يعرض نفسه على الحارث، وفيما روي عن الرسول بمناسبة هذا الحادث دليل على أن الإسلامالذي تقررت في ظل تعاليمه مبادئ الحضارة العربية الإسلامية، ينادي باحترام الفرد وتهيئة جميع الفرص التي تجعله آمنًا

على نفسه، بحيث يستطيع أن يستغل نشاطه في جميع الميادين.
والحضارة العربية التي تقوم على أساس متين من المثل العليا، التي قررها الإسلام والتي ترمي إلى تقرير مبدأ حرية الإنسان، واحترام شخصيتهوقد سوت بين الأمراء والعبيد وألغت النظام الطبقي الذي كانت تعترف به الحضارات القديمة.

وأفلاطون كان يقسم في جمهوريته الناس إلى زراع وصناع ثم إلى جنود وفلاسفة، وكان يحرم على من كان من طبقة العبيد أن يرقى إلى مرتبة طبقة الفلاسفة، وهم الذين سيكون الحكم بأيديهم، لقد هدمت الحضارة العربية الإسلامية هذا النظام وأقامت مقامه نظام التسوية واحترام شخصية الفرد، فأصبح إذا نبغ في ناحية من النواحي كان موضع التقدير والتكريم والاحترام، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، وقد كان الحارث لا يزال على دينه ولم يدخل الإسلام، ومع ذلك أمر الرسول باستشارته في أمر قائد من أكبر قواد المسلمين. أما طب الحارث فقد كان مبنيًا على التجربة الصحيحة التي تدعمها الملاحظات العلمية، ويوضح لنا ذلك هذه المحاورة الطبية التي دارت بينه وبين كسرى، والتي يمكن ترجمتها إلى دستور طبي عظيم، فالطب العربي في هذه المرحلة بدأ يتخلص مما كان شائعًا في الجاهلية، ويتجه اتجاهًا عمليًا أساسه التجربة الدقيقة التي ترجع إلى الأساليب الصحيحة في العلاج.

٣-المرحلة الثالثة: وهي التي تبدأ باطلاع العرب على الثقافات الطبية القديمة في عصر الترجمة، وقد برز فيها أطباء النصارى من نساطرة

ويعاقبة، كما برز فيها أطباء من المجوس، فقد أعجب بهم الخلفاء، وأتاحوا لهم فرص الترقي وتقلد الوظائف الخطيرة في الخلافة. وقد كان الطب آنذاك متأثرًا بآراء اليونان والهنود والفرس، فطب أبقراط وجالينوس كان المنبع الذي يستمد منه أطباء النصارى، ولم يحاول المسلمون في هذه المرحلة أن يقتحموا ميدان الطب الجديد، فظل أكثرهم قانعًا بالتجارب العربية الخالصة التي ورثوها عن الحارث وغيره، واستمروا زمانًا متمسكين بتقاليدهم الطبية القديمة؛ لذلك استطاع أطباء النصارى أن يحتكروا هذه الصناعة، حتى أصبحت وقفًا عليهم مدة طويلة.

وسارع الخلفاء في الانتفاع بهؤلاء الأطباء والاعتماد عليهم بإسناد الوظائف الكبيرة إليهم، وفي ذلك دليل واضح على سماحة الإسلام الذي أقر مبدأ حرية العقيدة، ولا ريب فالإسلام لم يأت داعيًا إلى القهر والغلبة، وإنما سلك في سبيل نشر تعاليمه مسلك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لذلك لم يفرض الخلفاء على هؤلاء الأطباء النصارى الذين يستخدمونهم في أخطر أعمال الدولةأن يسلموا، وإنما تركوا لهم الحرية الكاملة في ممارسة عقائدهم الدينية، ومن الأدلة الواضحة على أن التسامح كان من أبرز مظاهر الحضارة العربية الإسلاميةأن أبا جعفر المنصور استدعى (جورجيس) رئيس أطباء جنديسابور ليكون طبيبه الخاص، وقد بلغ هذا التسامح درجة كبيرة نتيجة للحرية الفكرية التي كانت تسود المجتمع الإسلامي وقتئذ، حتى شاع بين الناس أنه لا يعرف الطب سوى النصارى.

ويقص علينا الجاحظ في كتاب البخلاء قصة طريفة تدل على هذا الاتجاه، وهي عن طبيب عربي يدعى (أسد بن جاني) فقد انصرف الناس عنه حتى كسد طبه؛ إذ كانوا لا يثقون إلا بأطباء النصارى. يقول الجاحظ: كان (أسد بن جاني) طبيبًا فأكسد مرة، فقال له قائل: السنة وبيئة والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟ قال: إنني مسلم وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب -لا، بل قبل أن أخلق- أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي أسد وكان ينبغي أن يكون (صليب أو مراسل أو يوحنا)، وكنيتي أبو الحارث وكان ينبغي أن تكون (أبو عيسى وأبو زكريا وأبو إبراهيم)، وعلي رداء قطن وكان ينبغي أن يكون علي رداء حرير أسود، ولفظي لفظ عربي وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل (جنديسابور).

وفي هذه القصة دلالة قاطعة على ما كان ينمتع به النصارى في ظل الحضارة العربية الإسلامية من حرية فكرية، وعلى أن المسلمين كانوا يقدرون العلم لذاته بقطع النظر عن دين صاحبه؛ لذلك عاش أطباء النصارى في ظل الحضارة العربية الإسلامية من حرية فكرية، وعلى أن المسلمين كانوا يقدرون العلم لذاته بقطع النظر عن دين صاحبه؛ لذلك عاش أطباء النصارى في جو من التسامح والعطف والحرية، وغير شك أن هذا الجو كان من أقوى العوامل في بناء هذه الحضارة وتشييد صروحها المنيعة، وإذا تأملنا ما فعله الإسبان بالعرب حين غلبوهم على أمرهم وطردوهم من ديارهم وأجبروهم على التنصر والدخول في دينهم

بالقوة، اتضح لنا الفرق العظيم بين العرب وغيرهم. غير أن الطب في هذه المرحلة كان لا يزال قائمًا على أصول المعالجات اليونانية، ولم يبتكر فيه أطباء النصارى جديدًا.

٤-المرحلة الرابعة: وهي التي تبدأ بظهور أطباء المسلمين في الميدان، ويتميز الطب في هذه المرحلة بأنه كان طبًا عربيًا إسلاميًا، فهو وإن كان في أصله يقوم على آراء اليونان والهنود والأمم القديمة، إلا أنه لا يعتمد الاعتماد كله على هذه الآراء، فقد ابتكر العرب والمسلمون نظريات جديدة، فابن سينا والرازي والزهراوي وابن النفيس وابن زهر وغيرهم، نقدوا آراء اليونان وهدموا كثيرًا من النظريات الطبية القديمة، ووصلوا إلى تكوين طب عربي إسلامي له شخصيته المستقلة. ومن يطلع على كتاب (القانون) و(الحاوي) و(التيسير لمن عجز عن التأليف) وغيرها من الكتب الطبية العربية الإسلامية، يدرك لأول وهلة أن العرب كان لهم طب مستقل، وكانت لهم فيه آراء تكون في مجموعها أسلوبًا جديدًا من الطب، ليس يونانيًا ولا فارسيًا ولا هنديًا وإنما هو عربي أصيل. ولم يكن ذلك مقصورًا على أنواع العلاجات، بل شمل ذلك علم الأدوية (الأقرباذين) الذي قيل إنه علم عربي خالص، ثم علم التشريح الذي وصل فيه أطباء المسلمين والعرب إلى درجة عالية من الناحية العلمية، هذا بالنسبة لوقتنا الحاضر، وأما بالنسبة إلى الوقت الذي ظهرت فيه آراء العرب في التشريح فقد كان ذلك شيئًا منقطع النظير، واخترع العرب كثيرًا من

الآلات الطبية، وقد قيل إن الزهراوي عرف وابتكر أكثر من مئتي آلة طبية.

تلك خلاصة سيرة ألممنا فيها بالأطوار التي مر بها الطب العربي، وقد عرضناها عرضًا خاليًا من التعصب، ولم أزعم أنني قد استقصيت جميع أطراف البحث، فقد تكون هناك أشياء عرفها العرب في هذا الميدان ولم تصل إليها أيدي الباحثين. ويؤيد هذا المعنى ما يقوله(ماكس مايرهوف) لا يمكن وضع تاريخ مفصل للطب العربي إلا بعد درس المخطوطات الكثيرة والمؤلفات التاريخية بدقة تامة، ففي (اسطنبول) الأستانة مكتبات كثيرة تحتوي على مخطوطات لا تحصى، قسم منها لم ينظم بعد، وقسم آخر مؤلف من آلاف المخطوطات العربية والفارسية لم يدرسه أحد إلى هذه الساعة، وفضلًا عن ذلك ففي جامعة (برنستون) مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية تشتمل على ست آلاف مخطوطة، وفي جامعة (أكسفورد) مجموعات من المخطوطات باسم السير (توماس بودلي)، وهي لا تقل عن ثلاث آلاف مخطوطة، وفيمكتبة (الأسكوريال) بإسبانيا مجموعات من المخطوطات.

ومن محفوظات هذه المكتبة كتاب له أهمية علمية عظيمة، فقد تحدث فيه صاحبه عن المكتبة العربية الإسبانية في الأسكوريال، وقد وضعه عالم لبناني، ولد في بلدة غزير بلبنان سنة ١٧١٠م ورحل إلى الأندلس، وعمل بمكتبة الأسكوريال رئيسًا لقسم المؤلفات الشرقية، وتوفي بمدريد سنة ١٧٩٠م، وواضح من هذا أن جهود العرب في

الميدان العلمي عامة وفي الطب خاصةلا تزال كامنة في مخطوطات تعد بالآلاف، ولم يكشف عنها العلماء بعد.

وجدير بالذكر ونحن الآن بصدد إقامة حضارة علمية تعمل على تطوير جمهوريتنا الفتية، وتعيد إليها مجد العرب في هذه الميادين= جدير بنا أن نولي وجهنا شطر هذه المخطوطات الموزعة بين مكتبات العالم، وأن نعمل على جمعها في أقرب وقت أو أخذ صور لها، ثم تؤلف لجان من الراسخين في كل علم من أبناء العروبة، وتكون مهمة هذه اللجان دراسة هذه المخطوطات وتحقيقها، والتعريف بها بأسلوب جديد من لغة هذا العصر، ففي ذلك عرفان منا بقدر الأقدمين الذين علموا الإنسانية في أحلك عصورها، وأضافوا إلى التراث تراث قرائحهم ومبتكراتهم.

هؤلاء القادة قد أشرنا إلى بعضهم في فصول هذا الكتاب، وهناك آخرون كثيرون لم نشر إليهم، وهم جميعًا من العرب الذين جمعت رسالتهم في هذه الحياة بين الهداية والتعليم ونشر الحضارة.

إن هذه الفصول التي كتبناها في عجلة ينبغي أن تكون مقدمة لبحوث أوسع وأشمل، تتناول هذه الناحية وغيرها من النواحي المجيدة في ميادين علوم العرب، ومهما يكن من شيء فتلك صفحات مجيدة تؤرخ للطب العربي، قد سجلناها في زهو وفخر واعتزاز.

الفهرس